التصوف مشكاة الحيران

رقم الإيداع القانوني : 1199 / 1996
ردمك : 4 - 055 - 25 - 9981

التصوف مشكاة الحيران

شفاء لجيل الظَمأ

مشكاة العقل التائه

يوضح خط الحيران

يقوي شعلة الإيمان

نبراس يوم المعاذ

تأليف

عفو ربه

الأستاذ : عبد الحميد الجوهري

أفريقيا الشرق

إهـــــــداء

إلى جيل الظمأ والتيه والحيرة والرفض .

إلى جيل نهاية القرن العشرين وما والاه .

إني من أبناء جيلك ، وسأكون يوما شبحا . تأمل هذا المعنى ، واجعل مفتاح الحياة سر الطمأنينة والاستقرار .

وهذا السر لا يوجد إلا في الانقطاع إلى حب الله والتزود من معينة .

إقرأ كتابي هذا ، واذكرني عند ربي .

المؤلف

بسم الله الرحمان الرحيم

مقـــــدمــــة

«الحمد لله رب العالمين، الرحمان الرحيم، مالك يوم الدين».

أحمدك اللهم حمد العافين، ومنك أستمد العون نحو السالكين. والصلاة والسلام على صاحب الكوثر، من جعلته قدوة الأصفياء، وخير الأتقياء، اللهم صل عليه صلاة العارفين بك، الشاكرين لنعمتك، المتفانين في حبك، من ختمت عليهم بالطاعة، ومنحتهم الرضا والرضوان.

أمـا بعـــد.

فإن هذا الكتـاب الذي أسميته «التصوف مشكـاة الحيران» لم يأت وليد الصدفـة، وإنما جاءعن قصد بعد تأمـل فيما يعيشه عصري الذي تخاذل تحت وطأة المادة والآلة، حيث يلهث كـالذي يتخبطه الشيطان من المس، فلا هو بالمطمئن المرتاح، ولاهو بالمستقر على حال، يعيش مبعثر الرأي، تحيط به الوساوس من كل جانب. ليس له قرار ولا سلطة الاختيار، شارد حائر، ولهان تتقاذفه الأهواء من كل جانب، أخذت منه نحل الإيديولوجيـا ما جعلته يغير الرأي بين مشاربها، وينسى الحقيقة التي تتجلى في الدين الإسلامي.

والحقيقـة أن عصري هذا، عصر السرعـة والآلـة والأقمار والإعـلاميات، تقـارب فيـه كل شيء وتزاحم، وأصبحت معاني التعايش تختلف عن التطبيق، فما أراده هذا خـالفه ذاك، والإيديولوجيات تعلن حـربها على الأدمغـة، ككـرة قـدم تتلقفهـا أرجل العمالقـة بين الشبـاكين. والأقـزام على حلبـة الصراع. في خضم هذه الأحداث، وما واكبها من زوابع يومية يعانيها جيل الظمأ، خطرت ببالي فكرة وضع هذا الكتـاب، عساه يكون شفـاء القلب وطمأنينة النفس، وأن يجد فيه الظمآن بغيتـه، ويكون سبب هدايته نحـو طريق الله، التي ما سلكهـا سالك إلا ووجد فيها الحقيقـة والسعادة والطمأنينة، وأدرك من خلالها مفهوم الوجود.

وقد حـاولت في هذا الكتـاب أن أجعل مشكاة التصـوف هي الطريـق إليه سبحانـه، وذلك في أسلـوب سهل مبسط بعيـد عن الملل والإطناب، اختصرت فيـه مـواضيع هي بمثـابـة عظة للعقـول الحائرة، والنفوس التـي لازالت كدرة، عسـاها أن تجد الشفـاء، فتأخذ الخط نحـو المستقر، وتتشرب بـالمعـرفـة نحـو باريها، بعـد ذلك تأخـذ خط العـارفين، حينـذاك تعـرف معنى الحقيقـة والسعـادة والطمأنينة.

أسأل الله العلي القدير أن يوفقني للصواب. ويلهمني من فيضه، ويقيلني عثرة الفكر وزلة القلم. ويرحم والدي ومشايخي وكافة خلقه، ويثيبني على نيتي وقصدي، إنه هو التواب الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين، وقطب العارفين، وشيخ الواصلين، وعلى آل بيته الطاهرين، وصحابته التابعين، ومن تبعهم بالإحسان إلى يوم الدين.

المؤلف
عبدالحميد الجوهري
أسفي - المغرب الأقصى
حرر في 1987/12/12

كلمـــة تصـــوف

نسب بعض المؤرخين هذه الكلمـة إلى «صوفة» اسم رجل عـابد في الجاهلية، واسمـه بالضبط «الغوث بن عامر» فانتسب الصوفية إليه للتشابه.

أما المستشرق «مركس» فيقول أن صوفة اسم قبيلة عربية عرفت بالاستغراق في حب الله، وليست اسم شخص.

ويقول الجوزي في روايته «إنهم قـوم في الجاهلية يقال لهم «صوفة» انقطعوا إلى اللـه وقطنوا مكة، فمن تشبه بهم فهم الصوفة»

وقد أشار لهذا القول الزمخشري والفيروزابادي وفريق من المستشرقين.

والروايـة الأولى لرأي «الصوفة» هـو محمد بن ناصر، وهو أحـد الرواة الولوعين بـالإبتكار والخلق ونسج الأقاصيص، فاعتمده الجوزي والزمخشري والفيروزابادي، وبـالطبع هؤلاء ليسوا بالمتصوفة، أما المستشرقون الذين واكبوا هذا الرأي لا يزيد في قوة الاعتقاد، ولو صحَّ هذا جدلا في العصر الجاهلي فإن رجال التعبد الإسلامي انتقدوا كل ما هو جاهلي.

وقد نسبها فريق من المؤرخين إلى لبس الصوف، وهـو الذي كان شعار المتصوفة، غير أن بعض الصوفية عابوا أن يكون الصوف مظهرا تتقنع به القلوب، ومن هنا يقول «الشبلي» «كان الزهد في بواطن القلوب فصـار في ظواهر الثيـاب»، يقول «الجنيد»، إذا رأيت الصوفي يُعنى بظـاهره فاعلم أن بـاطنه خـراب» ـ والظـاهـر خشـونة الثـوب ــ وقيل لأبي الحسن «أيها الشيخ، أنت تـدعـو الناس إلى اللـه والإعـراض عن الدنيـا. وتلبس أحسن الثيـاب وتأكل أطيب الطعـام فكيف هـذا؟ قال: «كل مـا يصلحك لله فافعله. إذا صلح حالك مع الله بلبس لين الثياب وأكل أطيب الطعام فلا يضرك» وقال آخرون في كلمة تصوف، إنها اشتقت من الصفاء، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى. ففي محاضرة الأوائل يقول، أن أول من تكلم ببغداد في مـذهب الصوفية من صفاء الفكر والشوق والقـرب والمحبة والمعرفة «أبو حمزة الصـوفي». وعند السيـوطي أن أول من سمي بالصـوفي وتكلـم في علم القلوب «أبـو الهاشم الصوفي». ونسب بعض المؤرخين ذلك إلى أهل الصفـة، وقالوا بأن التصـوف اشتق من تلك الكنية. أما الثقاة من المؤرخين الصوفيين، فلم يعللوا تلك التسميـة ولم يتكلفوا لها بقدر ما تكلف غيرهـم، بل ردوها إلى الحقيقة الواضحة في بساطة. فـالقشيري مؤرخ الصوفية الكبير، قال في رسالته «إن المسلمين

في حياة الرسـول وبعده كانوا يتشرفـون باسم صحابي، ثم سمي من بعدهم بـالتابعين، ثـم قيل أتباع التابعين، ثم ظهرت البدع وتعددت النحل، فانفـرد خواص أهل السنة والمراعون أنفا سهـم مع الله، الحافظـون قلوبهم بـاسم المتصوف في عصر الإمـام أحمد بن حنبل قبل المائتين من الهجـرة . . . ثم أن الطوسي يشير في كتـاب اللمع قائلا . . فإن سألنـي سائل . قد نسبت أصحـاب الحديث إلى الحديث ونسبت الفقهاء إلى الفقه، وهكذا فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا علم ؟ قلت لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلوم دون نوع، ولأنهم معـدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة .

أما ابن خلدون فيقول في مقدمته «هذا العلم من العلوم الشرعية، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عنـد سلف الأمة وكبـارها من الصحـابة والتـابعين ومن بعدهم طـريقة الحق والهدايـة، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الحياة وزينتها، والزهد فيما يقبل عليـه الجمهور من لـذة ومـال وجـاه، والانفراد عن الخلق في الخلـوة للعبـادة، وكـان ذلك عامـا في الصحابة والسلف، ولما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني ومابعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على الله باسم «الصوفية» .

إن التصوف كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم صفة غالبة لا ينظر إليها نظرة الدهشة إلا في العصر المتأخر التي بدأت تعطيه فلسفة ومذاهب روحية .

وأول من فلسف ذلك وجعلـه طريقـة خاصـة هو «حـذيفة بن اليمان» الصحـابي الجليل، وقيل عنه : « تراك تتكلم كلاما لم نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله من أين أخذته ؟ قال : «خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم، كـان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخير لا يسبقني» . وفي قول آخر «علمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير» وقال في حديث آخـر « كان النـاس يقولـون يارسـول الله، مـا لمن عمل كذا وكـذا . يسألونه عـن فضائل الأعمال، وكنت أقول، يارسول الله مـا يفسد كذا وكذا . . . فلما رآني أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم» .

وفي حديث أبي طالب المكي : «كان حذيفـة قد خص بعلم المنافقين وأفراد بعلـم النفاق وبسرائر العلم ودقائق الفهم، وخفايا اليقين بين الصحابة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يصلي على أحد مات إلا إذا رأى حذيفة يصلي عليه، لأنه اختص بهذا العلم الباطني»، فحذيفة كان النواة الأولى على الأرجح للصوفيـة العلمية، وعنه تخرج إمـامها الأول «الحسن البصري» وعن الحسن البصري تخرج أئمة التصوف أمثال مالك بن دينار، وثابت البناني، وأيوب السختياني، ومحمد بن واسع، وهـم أعلام القرن الأول وبداية القرن الثاني .

وقد أسـس الحسن البصري مدرستـه الكبرى بالبصرة لنشر هـذا النور ومحاربة أصحـاب الألسن المندسين بين صفوف المسلمين . وبفضله استقـرت زعامة التصوف بالبصرة إلى أن قامت مـدرسة ثانية بالعراق بزعـامة الصوفي العابد سعيد بن المسيب، وثالثة بخراسان بزعامة الصـوفي العابد إبراهيم بن

أدهم، وهكذا أصبحت فكرة التصوف واضحة، فتصدت إليه خصومات عنيفة من رجال الفقه وعلماء الكلام ورجال العلم والمذاهب والملل والنحل.

نعود إلى كلمة تصوف حيث نستمع إلى أنس بن مالك وهو يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف، فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه كان لباسا الأنبياء عليهم السلام».

وقال الحسن البصري «لقد أدركت سبعين بدريا لباسهم الصوف»، وصفهم أبو هريرة قائلا: كانوا يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين» فكان اختيارهم للبس الصوف وقناعتهم بسد الجوعة وستر العورة واستغراقهم في أمر الآخرة، وهذا الاختيار يناسب من حيث الاشتقاق كلمة تصوف، لأن لبس الصوف كان الغالب على المتقدمين من سلفهم، وهي عنوان زهدهم فيما تدعو إليه النفس من الهوى والملبوس الناعم، وما لبس الصوف الاحكم ظاهر من أمرهم، أما نسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام فأمر باطن، والحكم بالظاهر أولى.

وقيل سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله، لإقبالهم وارتفاع هممهم وتعلق قلوبهم بحب الله. وقيل كان هذا الاسم «صفوي» فاستثقل وجعل «صوفيا» وقيل سموا صوفية نسبة إلى «الصفة»، ولو أن هذا الاسم لا يقبل الاشتقاق اللغوي فهو صحيح من حيث المعنى، والصفة كانوا نحو أربعمائة عابد لم تكن لهم مساكن ولا زرع ولا ضرع، هم عشائر جمعوا أنفسهم في المسجد، يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار، ويشتغلون ليلا بعبادة الله وتلاوة القرءان، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يواسيهم ويوصي بمواساتهم ويجلس إليهم ويأكل معهم، وفيهم نزل قوله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه».

التصـــــوف

من النـاس من يغلـو في حق التصـوف، فمنهم من يغلو في رفعـه، ومنهم من يخرجـه عن حـد المعقول، ومنهم من يراه ضربا من يسرف في طعن أهله لدرجة الزندقة.

وقد ذكر الله أفضل المؤمنين عنده وأعلاهم في الدين رتبـة ودرجة، في قوله تعالى «شهد الله أنه لا إلاه إلا هو والملائكـة وأولوا العلم قائما بـالقسط»، والرسـول صلى الله عليه وسلم يقـول «العلماء ورثة الأنبياء» وليس ببعيد أن أولي العلم القائمين بالقسط، والذين هم ورثة الأنبياء، تلك الزمرة المعتصمة بكتاب الله، والمتمسكة لسنة رسوله. والمقتدية بالصحابة والتابعين من عباده الصالحين، وهـم ثلاث أصناف. علماء الحديث والفقهـاء والصوفية، وفي هـذا المعنى يقول الطـوسي في كتاب اللمع «وأصل ذلك حديث الإيمان، حيث سأل جبريل عليه السلام النبي صلى اللـه عليه وسلم عن أصول ثلاث، عن الإسلام والإيمان والإحسان الظاهـر والباطن. والحقيقة فالإسلام ظاهـر، والإيمان ظاهر وباطن، والإحسان حقيقة الظاهر والباطن، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم، الإحسان أن تعبد الله كأنك تـراه فإن لم تكن تراه فإنـه يراك، وصـدّقه على ذلك جبريل، والعلم مقـرون بالعمل، والعمل مقـرون بالإخـلاص، والإخلاص أن يريـد العبد بعلمه وعملـه وجه الله تعـالى، وهؤلاء الثلاثـة الأصناف في العلم متفاوتون، وفي مقاصدهم ودرجاتهم متفاضلـون. وقد ذكر الله تعالى تفاضلهم ودرجاتهم فقال عـز وجل «والذين أوتـوا العلم درجات» وقـال «ولكل درجات مما عملوا» وقـال «انظر كيف فضلنـا بعضهم على بعض» وقال النبي صلى الله عليه وسلم«الناس أكفاء متساوون كأسنان المشط، لا فضل لأحـد على أحد إلا بـالعلم والتقي» فكل من أشكل عليه أصـل من أصول الـدين وفروعـه وحقائقـه وحدوده وأحكامـه ظاهرا وباطنا فلابـد له من الرجوع إلى هؤلاء الأصناف الثـلاثة، أصحاب الحديث والفقهـاء والصـوفية، وكـا صنف من هـؤلاء مترسم بنـوع من العلم والعمل والحقيقـة والحال. ولكل صنف منهم في معناه علم وعمل ومقام ومقال وفهم ومكان وفقه وبيان».

وقد اتفق الصوفية مع الفقهاء وأهل الحديث، وشاركوهـم في كل علومهم ولم يخالفوا نهجهم، وإن اختلف أي طرف من الفقهاء وأصحاب الحديث فإن المتصـوفة يأخذون بالأحسن والأولى، ويبتعدون عن الرخص والنزول والتأويلات وركـوب الشبهات، ثم أنهم ارتقوا إلى درجات عالية وتعـالقوا بالمنازل الرفيعـة والأحوال الشريفـة، وحقائق الطـاعة والأخـلاق والاستقامـة. ولهم في هذه الأحـوال والمنازل خصائص ليس لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث.

وحيـاة التصوف يتأملهـا المتأمل، ويتـذوقها المحب وينعم بها العـابـد ويعجز عن وصفهـا قلم كاتب، إنها وثبة ونشوة، ومنـاجاة وخلوة، وإلهامات فوق ما يتصور الخيـال. ولقد هتف أحد رجالها يوما «إن قلبي ليسكن اليوم عالما لا يعرف غيري عنه شيئا، ولو سئلت ما بي لأعجزني أن أجيب».

وكلمات المتصوف ألحان من قلبه، وهتاف أنغام من فيضه، ورسالة نابعة من روحه.

فالتصـوف الإسلامي تصوير ملـون، وآداب إسلامية، وخـلاصة فضائل أحمدية، وزكـاة علوم ومعارف إنسانية.

والتصـوف هوجم هجـوما عنيفـا من طرف رجـال الفكر والعلم على كل الـواجهات من طرف واحد، ومع ذلك بقي سائرا في هدوء من غير مبالاة.

قال فيه الماديون، إنما هي حياتنا الدنيا نمـوت ولا نحيا ولا يهلكنا إلا الدهر، وكذبوا بكل الرسل والروحانيات، فصدقت عليهم الآية «إن هم إلا كالأنعـام بل هم أضل». وقال الفلاسفة ما قالوا من نكران، وعابوا عليهم التفرغ والزهد والانقطـاع إلى الله. غير أن الصوفية رفضوا النقاش معهـم بحكم أنهم لم يتفقوا بآرائهم في الإلاهيات وغيرها، فأي عقلية يتبعونها؟ وأي عقل معصوم؟ وأي عقل يمكن الاعتراف به أنه وصل الكمال حتى يأخذوا منه الرأي والاطمئنان.

وعلماء الاجتماع هم أيضا تهكموا على الصوفية وأسرفوا، وقـالوا بأنها غيرصالحة للحياة اليومية ولا يقوم عليها نظام.

فكانت هـذه الشهادة للصوفية لا عليهم، فهـم يقولون أن طريقتهم ليست للنـاس جميعا، لأن المثالية ليست للناس جميعا، فلا يعقل أن يكون النـاس كلهم ملوكا أو فلاسفة أو علماء، بل التصوف مثل عليا من قبل الفضيلة والتقرب إلى الله لا يقوم بها إلا صفوة مختارة من أولي العزم.

وقال بعض الفقهاء ما حلالهم من معارضة، والصـوفي يقول بأن الفقيه هو العابد أولا، ثم العالم بحـدود الله وشريعتـه، وكثير من الفقهاء لم يستـوفوا الشرط فنبـذوهم. ومع هذا فـالمتصوفـة انتزعـوا الجماهير إعجابا.

والصوفية دستورها واضح في قول سهل التستري «أصـول طريقتنا سبعة: «التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق»

ويقول الإمـام الغزالي في رجال التصـوف: «إعلم أن سالك سبيل اللـه تعالى قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفـك علامتين له: العـلامة الأولى أن تكـون جميع أفعالـه الاختياريـة موزونـة بميزان الشرع، موقوفة على تـوفيقاته، إيرادا وإصدارا وإقداما وإحجـاما، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكـارم الشريعة كلهـا، ولايصل فيه إلا من واظب على جملة من النـوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض». وفي موضوع آخر يقول: «إني علمت يقينا أن الصوفية هـم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهـم أزكى الأخلاق، بل لـو جمع عقل العقـلاء وحكمة الحكماء وعلم الـواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئـا من

سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستطاء به . وماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها وأول شروطها تطهير القلب عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية في ذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في كله . وأول هذه الطريقة المكاشفات حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائديضيق عنها نطاق النطق» .

وهذا نموذج من نماذج أهل الصوفية نأخذه كمثال ، وهو «أويس القرني» حين جاء وقت الحج وهرع الناس من كل فج عميق ، ففاضت رحاب مكة بالوافدين وتهيأ الكل لعرفات ، وعنت الوجوه للحي القيوم . أما أمير المؤمنين عمر وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد كانا يطوفان بوفود العرب تلهفا وتطلعا خاصة وفد اليمن ، وعجب الناس لعمر وهو يقتحم وفود اليمن ويتطلع إلى وجوههم يسأل عن أسمائهم ، كما عجبوا من علي وهو يتفحص ملامح اليمنيين ويمازح أبناءهم . وكم كانت تلقي نظرة علي بعمر فيبتسما ، كان هذا حالهما مدة عشر سنوات وما بلغا هدفهما . لماذا هذا كله ؟ لقد أخبرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بقوله «يا عمر ويا علي ، إذا لقيتما أويسا القرني فاطلبا إليه أن يستغفر لكما ، فإنه مجاب الدعاء «فبقي ذلك مرتسما في قلبيهما ، وبقيت صورته واضحة في أعينهما حينما وصفه لهم صلى الله عليه وسلم قائلا : «إنه أشهل بعيدا ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، آدم يضرب بذقنه إلى صدره ، واضع يمينه في شماله ، يتلو القرءان ، ذو طمرين من صوف . مجهول في الأرض ، معروف في السماء ، وتحت منكبه الأسير لمعة بيضاء ، يقال للعباد يوم القيامة ، ادخلوا الجنة ، ويقال له : قف ، فيشفع في عدد ربيعة ومضر» ، وأنبأهما الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهما سيشاهدانه في موسم الحج ، فكانت لهفة القلب على هذا الصوفي وصلت ذروتها عند عمر وعلي ، خاصة وأن الصحابة لم يشاهدوا أويسا ، وأن الرسول عليه السلام فاخر به دون أن يراه .

وحل الوقت الموعود حينما جاء رجل إلى عمر يخبره بأن قافلة أخرى صغيرة جاءت من اليمن ، فوثب عمر راكضا وهو يشاهد عليا يستفسر آخر ساداتهم الذي يرد قائلا : إن في رحالنا فتى ممزق الثياب شارد العقل خامل الذكر يرعى بهيمتنا مقابل دراهم معدودة ! فصرخ عمر : إنه أشهل ذو صهوبة ، بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، يضرب بذقنه إلى صدره ؟ فيجيب الأعرابي من غير أن يعرف عمر : لقد وصفته وصفا دقيقا ؟ فينطلقان بسرعة نحو أويس ، فلما وصلا نحوه قالا : من الرجل ؟ قال : راعي إبل وأجير قوم . قالا : ماسمك ؟ قال : ماذا تريدان مني ؟ قالا : وصف لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أويسا القرني ، وقد عرفنا الآن فيك الشهولة والصهوبة واللمعة . فأحسنا السلام وطلبا منه الدعاء . . . !

ثم قال له عمر عظني . فقال له : ابتغ رحمة الله عند الطاعة . واحذر نعمته عدد المعصية ، ولا تقطع رجاءك منه .

وقال علي ، لقد حدثنا عنك رسول الله وهو لم يرك ، ومع ذلك يحبك فيصفك ويقول أنك أفضل التابعين ، فكيف تتصوره صلى الله عليه وسلم يا أويس ؟ فقال : يا علي ، لكم فضل الشرف برؤيته ، أما أنا فأتصوره في بصيرتي على غير ما رأيتم . . . أتصوره نورا ساطعا يملأ الفضاء ويسري في الوجود ، أتصوره ورأسه الشريف قاب قوسين أو أدنى من العرش ، وقدمه في مستقر الارض السابعة . بكى عمر وعلي شوقا لرسول الله عليه السلام ، ثم قال عمر : كيف حالك يا أويس ؟ قال : حال رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسي ، وإن أمسى ظن أنه لا يصبح . قال كيف وصلت إلى مكانتك العليا ؟ قال : إني في مقام الخوف ، لا يصله الإنسان حتى يصبح من خوف ربه وكأنه قتل الناس جميعا . وبعد مناجاة طويلة عرض عمر كسوة ونفقة عليه . فأجابه على الفور بالرفض قائلا : هذا إزاري وردائي من صوف ؟ متى أفنيهما ؟ وأجري أربعة دراهم ، متى تراني آكلهما ؟ إن العقبة لا يجوزها إلا كل ضامر ، فأعرض عن الدنيا ياعمر ، واخش يوما لا ينفع فيه مال ولا بنون . فضرب عمر بدرته على الأرض ونادى بأعلى صوته . . . ألا ليت عمر لم تلده أمه .

وهم أويس بالانصراف ، فبادره علي قائلا : إنا جئنا لنأنس بك . فقال عجبا ! ما أحسب أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره ! ؟ ثم أدبر .

المتصـــــوف

إن المتصـوف متطلع إلى حال الصـوفي ، والصـوفية أولها إيمان ثـم علم ثم ذوق ، يقول الجنيـد « الإيمان بطريقنا هذا ولاية » .

والمتصوف تميز بأحـوال عزيزة ، وأشياء تستغربها الخلائق ، لأنهم مكـاشفون ، ولهم علم من هذا القبيل ، لا يؤمن بطريقهم إلا من أخـذ الله بيده وخصه بمزيد عنايتـه ، فالمتشبه بهم صاحب إيمان . والمتصوف صاحب علم ، لأنـه بعد الإيمان اكتسب مزيدا من العلم ، وصارت لـه حصيلة يستدل بها على سائرها ، وهو صاحب ذوق ، يسير من حـال إلى حال أعلى مما هو فيه ، أو بعبرة أخرى ، من ذوق إلى صاحب قدم ، وفي حال العلم صاحب نظر ، وفوق ذلك صاحب إيمان ، قال تعالى «إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون» وصـف سبحانه وتعـالى الأبرار ووصف شرابهم بقـوله « ومزاجـه من تسنيم عينا يشرب بها المقـربون . . » فكان شراب الأبـرار مزج من شراب المقربين . وللمتشبـه مزج من شراب المتصوف . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سيروا . . . سبق المفردون ، قيل من المفردون يارسول الله ؟ قال : المستترون بذكر الله ، وضع الذكر عنهم أوزارهم فـوروا القيامة خفافا ، فالصوفي في مقام المفردين ، والمتصـوف في مقام السائرين . قـال تعالى «ثم أورثنا الكتـاب الذين اصطفينا من عبـادنا ، فمنهم ظـالم لنفســه ، ومنهم مقتصـد ، ومنهم سـابق بـالخيرات « قيل إن الظالم الـزاهـد ، والمقتصـد العارف ، والسـابق المحب . وقيل أن الظـالم الذي يجزع من البـلاء ، والمقتصد ذلك الـذي يصبر عند البلاء ، والسابق ذلك الذي يبعد على الهبة والمنـة . وقيل إن الظالم يعبد الله على غفلة ، والمقتصد يعبد الله على الـرغبة والـرهبة ، والسـابق ذلك الـذي يتلذذ بـالبلاء . وقيل إن الظـالم يذكـر الله بلسـانه ، والمقتصد يذكر الله بقلبه ، والسابق لا ينسى ربه . وقيل إن الظالم صاحب أقوال : والمقتصد صاحب أفعال ، والسـابق صاحب أحوال . وكل هـذه المعاني قريبة للصـوفي المتصوف . وقال صلى اللـه عليه وسلم عن قولـه تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بـالخيرات» «كلهم في الجنة» قـال ابن عطـاء : الظالم ، الـذي يحب اللـه من أجل الـدنيـا ، والمقتصد ، الـذي يحب اللـه من أجل العقبى . والسابق هو الذي أسقط مـراده بمراد الله فيه وهذا حال الصـوفي . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله ملائكة فضلا عن كتـاب الناس ، يطوفون في الطرق ويتتبعـون مجالس الذكـر ، فإذا رأوا قوما يـذكرون الله تنـادوا : هلم إلى حاجـاتكم ، فيحفونهم

بأجنحتهم إلى عنان السماء، فيقـول الله وهو أعلم، مـا يقول عبـادي ؟ قالوا يحمـدونك ويسبحونك ويمدحونـك. فيقول : وهل رأوني ؟ فيقولون : لا، فيقـول : كيف لو رأوني ؟ قالوا : لـو رأوك كانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتمجيـدا، فيقول : ما يسألونني ؟ قالوا يسألـونك الجنة. فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا، فيقول : كيف لو رأوهـا ؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشد لها طلبا وعليها أكثـر حرصا. قالوا : ويتعوذون من النـار. فيقول : وهل رأوها ؟ قالـوا : لا، فيقول : كيف لو رأوهـا ؟ قالوا : كانـوا أشد منها تعوذا وأشـد فرارا. فيقول : أشهدكم أني قد غفـرت لهم. فيقول الملك : فمنهم فلان ليس منهم وإنما جاء لحاجة. فيقول تبارك وتعالى : هم الجلساء، لا يشقى جليسهم».

ومن المتصوفة ما يدعى «بالملامتي» وهو الذي لا يظهر خيرا ولا يظهر شرا، حيث تشربت عروقه طعم الإخـلاص، فلا يحب أحـدا أن يطلع عليه. قـال صلى الله عليـه وسلم : «سألت جبريل عن الإخلاص ما هو ؟ قـال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : هـو سري، استودعته قلب من أحببت من عبـادي». فـالملامتيـة لهم اختصـاص في التمسك بـالإخـلاص، يتلـذذون بكتمان الأحوال، ويستـوحشون ظهور أعمالهم كما يستوحش العـاصي ظهور معصيته، قال فيهم أبـو يعقوب السوسي : «متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص».

منشــأ العلـم الصــوفي

من القلـوب ما هي بمثابـة الأرض الطيبة التي أنبتـت الكلأ والعشب الكثير، وهذا المثـل للعالم الذي انتفع بعلمه واهتدى نحو الطريق السوي إسوة بيد المرسلين، ومن القلوب ما هي بمثابة الغدران الصافيـة، وهي قلوب العلماء الزهـاد من الصوفية التـي صفيت قلوبهم وتزكت، واختصت بـالمزيد، فصارت أوعيـة للعلوم بما منَّ اللـه عليها من صفاء الفهم. قـال صلى الله عليـه وسلم لعلي لما نزلت الآية «وتعيها أذن واعية» «سألت الله سبحانـه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي» فقال علي: «فما نسيت شيئا بعد، وما كان لي أن أنسى» ويشرح أبو بكر الواسطي هذه الآية بقوله: آذان وعت عن الله تعالى أسراره. فقلوب الصـوفية واعية، وبالتقـوى طهرت نفوسهـم، وبـالزهد صفت قلوبهم، ولما أعـدموا شواغل الدنيا تفتحت بواطنهـم. إن علماء التفسير وأصحـاب الحديث والفقهاء أحاطوا علما بالكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام وردوا كل شيء إلى أصله من النصـوص، فحمى الله بهم الدين، كما عرف علماء التفسير وجهه وتأويله بحكم معرفتهم للغة وغرائبها من نحو وصرف وأصول واختلاف في وجوه القـراءة، فصنفـوا الكتب واتسعت علـوم القـرآن على أمـة الإسـلام. أمـا أصحـاب الحديث فميـزوا الصحيح والحسن وانفردوا لمعرفة الرواة والسند حفظا للسنة. أما الفقهاء فقد انتدبوا استنباط الأحكام والتفريغ ومعرفـة التعليل ورد الفرع للأصل، وتفرع عن الأخلاق علم الجدل. وعلم الفـرائض ما لزم علـم الحساب والجبر إلى غير ذلك.

وبهذا تمهدت الشريعة واستقام الدين وتفرع، وبهذا أنبتت قلوب العلماء الكلأ والعشب بما آتاها الله من مياه الهدى والعلم. قال ابن عطاء شارحا قول الله تعالى «أنزل من السماء ماء» هذا مثل ضربه الله للعبد، وذلك إذا سال السيل في الأودية لا تبقى فيها نجـاسة، كذلك إذا سال النور الذي قسمه اللـه للعبـد في نفســه لا تبقى فيـه غفلـة ولا ظلمـة. وقـال بعضهـم «أنـزل من السماء مـا» أي أنـواع الكرامـات، فيأخذ كل حظه، فقلـوب علماء التفسير والحديث والفقه ســالت أودية قلوبها بقـدرها، وسالت أودية قلوب الصـوفية الزهاد والمتمسكين بحقائق التقوى بقـدرها، ومن كان قلبه لازال يحمل حب الدنيـا ورفعتها سألت أوديـة قلبه بقدرهـا، وأخذ من العلم طـرفا ولم يحظ بحقائق العلـوم، أما الزاهد فيها فإن أودية قلبه تتسع وتسيل فيها مياه العلوم وتجتمع وتصير كالغدران.

يقول الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين الجزء الخامس صفحة 47 قائلا : «وقيل : لما بعث الله جبريل وميكائيل ليقبض قبضة من الأرض فأبت، حتى بعث الله عزرائيل فقبض قبضة من الأرض، وكان إبليس قد وطىء الأرض بقدميه، فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض بين موضع أقدامه، فخلفت النفس مما مس قدم إبليس فصارت مأوى الشر، وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس، فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء، وكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزءائيل لم يمسها قدم إبليس، فلم يصبه حظ الجهل، بل صار منزوع الجهل موفورا حظه من العلم، فبعثه الله تعلى بالهدى والعلم، وانتقل من قلبه إلى القلوب، ومن نفسه إلى النفوس، فوقعت المناسبة في أصل طهارة الطينة، ورفع التأليف بالتعارف الأول ؟ فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الـ'ينة، كان أوفر حظا من قبول ما جاء به، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة، فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت بواطنهم أخاذات ـ أي غدران ـ فعلموا وعملوا كالأخاذ الذي يسقى منه ويزرع منه، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة و علم الوراثة بإحكام وأساس التقوى، ولما تزكت النفوس انجلت مرايا قلوبهم بما صقلها من التقوى . فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها، وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها، فلما زهدوا في الدنيا انصبت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصبابا، وانضاف إلى علم الوراثة» .

قال تعالى «فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب » شرح بعضهم : اللب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون في الرسول، وواحد لكل المؤمنين، وهو مقسم إلى إحدى وعشرين سهما . واحد تساوى فيه كل المؤمنين وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وعشرون سهما يتفاضلون فيها على مقادير إيمانهم .

طبقـــات الصوفيـة

الصوفية تفرد والحملة خصال بعد أداء الفرائض واجتناب المحرمات، من ذلك تركهم مالا يعنيهم وقطع العلاقة مع مطلوبهم ومقصودهم، واتصفوا بالقناعة والاكتفاء بالقوت الذي لابد منه، والاختصار على الملبوس البسيط، واختيار الفقر على الغناء، والقلة على الكثرة، والجوع على السّبع، واجتناب العلو والجاه، والشفقة والتواضع للصغير والكبير والوفاء والإخلاص في السباق نحو الطاعات وفعل الخيرات، والانقطاع إلى الله عز وجل، والصبر على المجاهدة.

ومن شمائلهم مراعاة الأسرار والمحافظة على طهارة القلوب بالخواطر النقية ومساكنة الأفكار التي لا يعلمها إلا الله حتى يعبدوا الله بقلب حاضر ونية صادقة وقصد خالص، فيجري عليهم قوله عز وجل «ألا لله الدِّين الخالص» فينزلون في منازل أصفيائه. سأل الرسول صلى الله عليه وسلم حارثة فقال «لكل حق حقيقية، فما حقيقة إيمانكم ؟» فأجابه قائلا : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون وإلى أهل النار في النار كيف يتعاوون. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «عرفت فالزم»

والصوفية لهم تخصيص من طبقات أهل العلم عن مقامات عالية في الدين، ومنازل رفيعة خصت بها طائفة من المؤمنين وتعلقت بها جماعة الصحابة والتابعين إسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم «إن الله أدبني فأحسن أدبي»، وفيه يقول عز وجل «وإنك لعلى خلق عظيم».

وطبقات الصوفية يتميزون عن العلماء بالدقة والتَّفقه، فهم حينما يذكرون التوبة يذكرون صفاتها ودرجات التائبين وحقائقهم، ودقائق الورع وأحوال الورعين وطبقات المتوكلين ومقامات الراضين ودرجات الصابرين . . . إلى غير ذلك، فهم يذكرون كل حال مثلا من باب الخشية والخشوع والمحبة والخوف والرجاء والشوق والمشاهدة والإنابة والطمأنينة واليقين والقناعة، ولهم في ذلك أسرار ومشاهدات واجتهادات وإرادات. ولهم أيضا معرفة بالنفس وأماراتها وخواطرها، والشهوة الخفية والخلاص من ذلك وصدق الالتجاء، كما لهم استنباطات في علوم تشكلت عن فهم الفقهاء والعلماء، يشيرون لها إشارات تكاد تختفي في عباداتها من لطافتها، كما يتميزون بخبايا السر ومقامات الإخلاص وحقائق الأذكار ودرجات القرب والتوحيد وحقائق ا لعبودية و عبور الأحوال والمقامات.

فهم مخصوصـون من أولي العلم القائمين بـالقسط من حل هـذه العقد والوقـوف على المشكل بحكم المنازلـة والمباشرة ببـذل المهج، هذا أكثر من أن يتهيـأ لأحد، وجميع ذلك موجـود في كتاب اللـه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا ينكره العلماء إلا أصحاب العلم الظـاهر الذين لم يعرفوا من كتاب الله ورسوله إلا ما كان في الأحكام الظاهرة.

لقد صدق فيهم صلى الله عليـه وسلم حينما قال: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره» وقال: «يدخل بشفاعة رجل من أمتي الجنة مثل ربيعة ومضر يقال له أويس القرني» وقال: «إن في أمتي من إذا قرأ أريت أنه يخشى الله تعـالى: وإن طلق بن الحبيب منهم» وقال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بلا حساب، قيل من هم يا رسول الله، قال هـم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون».

يقول الطوسي في كتاب اللمع باب التصوف ما هو ونعته وما هيته «فأما التصوف ونعته وماهيته، فقد سئل محمـد بن على القصاب ـ وهـو أستاذ الجنيـد رحمه الله ـ عن التصـوف ما هو قـال: أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام، وسئل الجنيد رحمه الله عن التصوف فقال: أن تكـون مع الله تعـالى بلا عـلاقة. وسئـل رويم بن أحمد رحمه الله عن التصـوف فقال: استرسـال النفس مع الله تعالى على ما يريده. وسئل سمنون رحمه الله عن التصوف فقال: أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء. وسئل أبـو محمد الجريري رحمه اللـه عن التصوف فقـال: الدخـول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني. وسئل عمرو بن عثمان المكي رحمه الله عن التصوف فقال: أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى في الوقت. وسئل علي بن عبدالرحيم القناد رحمه الله عن التصوف فقال: نشر مقام واتصال بدوام»

ومن طبقات الصوفية نـورد مجموعة من الأسماء نقلا عن كتاب طبقات الصـوفية لأبي عبدالرحمن السلمي، الذي أعطى نبذا عن حياتهم وحكما من أقوالهم وقد قسمهم إلى خمس طبقات كما يلي.

الطبقة الأولى: الفضيـل بن عباس ـ ذو النون المصري ـ إبـراهيم بن أدهـم ـ بشر الحافي ـ سري السقطي ـ الحارث المحـاسبي ـ شقيق البلخي ـ أبـو يزيد البسطامـي ـ أبو سليمان الداراني ـ معروف الكرخي ـ حاتم الأصم ـ أحمد بن أبي الحواري ـ أحمد بن خضرويـه ـ يحى بن معاذ الرازي ـ أبو حفص النيسابوري ـ حمدون القصار ـ منصور بن عمار ـ أحمد بن عاصم الأنطاكي ـ أبو تراب النخشي.

والطبقة الثـانية: أبو القاسم الجنيـد ـ أبو الحسين النوري ـ أبو عثمان الحيري النيسابوري ـ أبو عبدالله بن الجلاء ـ رويم بن أحمد البغدادي ـ يوسف بن الحسين الـرازي ـ شاه الكرماني ـ سمنون بن حمزة المحب ـ عمرو بن عثمان المكي ـ سهل بن عبد الله التستري ـ محمد بن الفضل البلخي ـ محمد بن علي الترمذي ـ أبـو بكر الوراق ـ أبـو سعيد الخزاز ـ علي بن سهل الأصبهاني ـ أبو العباس بن مسروق الطوسي ـ أبو عبدالله المغربي ـ أبو علي الجوزجاني ـ محمد أحمد بن أبي الورد ـ أبو عبدالله السجزي.

الطبقة الثالثة: أبو محمد الجريري ـ أبو العباس ين عطاء الأدبي ـ محفوظ بن محمود النيسابوري ـ طـاهر المقـدسي ـ أبـو عمرو الـدمشقي ـ أبـو بكر بن حـامد الترميـذي ـ أبـوحمزة البغدادي البـزاز ـ

أبـوالحسين الوراق النيسـابوري ـــ أبو بكـر الـواسطي ـ الحسيني بن منصـور الحلاج ـ أبـو الحسين بن الصَّائغ الدينوري ـ ممشاذ الدينوري ـ إبراهيم القصـار ـ خير النسـاج ـ أبو حمزة الخراساني ـ أبو عبدالله الصبحي ـ أبو حفص بن سنان .

الطبقة الـرابعة : أبـو بكر الشبلي ـــ أبو محمـد المرتعش ـ أبـو علي الروذبـاري ـ أبـو علي الثقفي ـ عبدالله بن محمـد منازل ـ أبو الخير الأقطع التينـاتي ـ أبو بكر الكتاني ـــ أبو يعقوب النهرجـوري ـ أبو الحسن المزين ـــ أبـو علي بن الكـاتب ـــ أبو الحسن بن بنـان ـــ أبـو بكـر بن طـاهر الأبهري ـــ مظفـر القرميسيني ـــ أبو الحسين بن هند الفارسي ـــ إبراهيم بن شيبان القرميسي ـــ أبو بكر بن يزداينـار ـ أبو إسحاق ابراهيم بن المولد ـــ أبو عبدالله بن سالم البصيري ـ محمد بن عليان النسـوي ـ أبو بكر بن أبي سعدان .

الطبقة الخامسـة : أبو سعيد بن الأعـرابي ـ أبو عمر الـزجاجي ـ جعفـر بن محمد الخلدي ـــ أبو العباس القاسم السيـاري ـ أبو بكر محمد بن داود الدقي ـــ أبو محمد عبدالله بن محمد الشعـراني ـ أبو عمرو إسماعيل بن نجيد ـ أبو الحسن علي بن أحمد البوشحني ـ أبوعبدالله محمد بن خفيف ـ نبدار بن الحسين الشيرازي ـ أبـو بكر الطمستاني ـــ أيو العباس أحمد بن محمد الـدينوري ـ أبـو عثمان سعيد بن سلام المغربي ـ أبو قاسم إبراهيم بن محمد النصرابـاذي ـ أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري ـ أبوعبيد التروغبذي ـــ أبو عبـدالله الـروذباري ـــ أبو الحسن علي بـن نبدار الصيرفي ـ أبـو بكر محمـد بن أحمد الشبهي ـ أبو بكر محمد بن أحمدالمقرىء ـ أبو القاسـم جعفري بن المقرىء ـ أبو محمد عبدالله بن محمد الراسبي ـــ أبو عبـدالله محمد بن عبـدالخالق الدينـوري . وقد نأخذ نصـوصا من بعض أقـوالهم لنرى مبلغهم من الصوفية .

يقول الفضيل بن عياض : «ثلاث خصال تقسي القلب . كثرة الأكل وكثرة النوم وكثرة الكلام» . ويقول : «جُعل الشر كله في بيت ، وجُعل مفتاحه الـرغبة في الدنيا . وجُعل الخير كله في بيت وجُعل مفتاحه الزهد في الدنيا» .

ويقول ذو النون المصري : «الأنس بالله . من صفاء القلب مع الله ، والتفرد بالله ، الانقطاع من كل شيء سوى الله» . وسألوه عمن هو الصـوفي ، فقال : «من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق ، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العـلائق» . وكتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثـوري قائلا : «من عرف مـا يطلب هان عليه ما يبـذل ، ومن أطبق بصره طال أسفه ، ومن أطلق أمله سـاء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه» . وخاطب رجلا في الطواف : «اعلم أنك لاتنـال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقاب :

أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة .

أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل .

أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد .

أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر.

أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر.

أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت» .

ويقول أبو يزيد البسطامي حينما سألوه عن العارف «ليس هناك أعلى فائدة العارف وجود معروفه» وعن الحسن بن علويه قال : «سمعت أبايزيد البسطامي يقول : «قعدت ليلة في محرابي، فمددت رجلي، فهتف بي هاتف : من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب». وقال عن العابد والعارف : «العابد يعبده بالحال، والعارف الواصل يعبده في الحال».

وعن محمد بن نصر قال، سمعت معروف الكرخي يقول : «ماأكثر الصالحين، وأقل الصادقين في الصالحين» وهذا دعاؤه : «اللهم إن نواصينا بيدك، لم تملكنا منها شيئا، فإذا فعلت ذلك بنا فكن أنت ولينا، واهدنا إلى سواء السبيل».

طــرق الصـوفيـــة

طرق الصوفية تتم بعلم وعمل، ومن عملهم قطع عقبات النفس، والترفع عن دناياها الذميمة الخبيثة إلى أن يتوصل إلى صفاء القلب وتحليته بذكر الله، وقطع علاقته بالدنيا والإنابة إلى دار الخلود. والاقبال إلى الله تعالى، فتبدأ المشاهدات والمكاشفات للملائكة والرسل مناما ويقظة، وسماع الأصوات واقتباس الفوائد، ويترقى الحال من المشاهدة إلى درجات يضيق عنها الوصف. وكمثال عن طرق بداية أهل التصوف حين يعقدون العزم نورد مثالا من شخصية الإمام الغزالي رحمه الله، وهو القائل في كتابه «المنقذ من الضلال» «ثم أني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله، وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طرقهم بالتعلم والسماع، فظهر لي أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات، وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما، وبين أن يكون صحيحا وشبعانا، وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن يكون سكرانا لا يعرف حد السكر و عمله وهو سكران، وما معه من علمه شيء، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه، وما معه من السكر شيء، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا، فعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم. بل بالذوق والسلوك، وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية وإيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت راسخة في نفسي لا بدليل معين محرر بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها، وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا

بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنـابة إلى دار الخلود والإقبال بكنـه الهمة على الله، وأن ذلك لا يتم إلا بـالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعـلائق، ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق، وقـد أحدقت بي من الجوانب ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنـا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم فكرت في نيتي في التدريـس، فإذا هي غير خاصة لوجه الله تعالى، بل باعثهـا ومحركها طلب الجاه وانتشـار الصيت، فتيقنت أني على شفـا جرف هار، وأني قـد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوما، وأقدم فيه رجلا و أؤخر عنه أخرى لا تصـدق لي رغبـة في طلب الآخرة بكـرة إلا ويحمل عليهـا جنـد الهوى حملـة فتفترها عشيـة، فصـارت شهـوات الدنيـا تجاذبني بسلاسلهـا إلى المقام، ومنـادي الإيمان ينـادي الرحيل الـرحيل. فلم يبق من العمر إلا قليل وبين يديك السفر الطـويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن لـلآخرة فمتى تستعـد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطـع ؟ فمنذ ذلك تنبعث الداعية، وينجـزم العزم على الهرب والفرار، ثم يعود الشيطـان ويقول، هذه حال عـارضة، إياك أن تطـاوعها فإنها سريعـة الزوال، فإن أذعنت لها وتـركت هـذا الجاه العريض والشأن المنظـوم الخالي عن التكدير والتنغيص والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصـوم. ربما التفت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة، فلم أزل أتـردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخـرة قريبا من ستـة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهـر جاوز الأمر حد الاختيـار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله علي لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يـوما واحدا تطبيبا لقلوب المختلفين إلي، فكان لا ينطلق لساني بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة حتى أورثت هذه العقلية في لساني حزنا في القلب بطلت معـه قوة الهضم، ومـراءة الطعام والشراب، فكـان لا ينساغ لي ثريـد ولا تنهضم لي لقمة، وبعدي إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج، وقالوا هذا أمر نزل بالقلب، ومنـه سرى إلى المزاج، فـلا سبيـل إليـه بـالعـلاج إلا بأن يتروح السر عـن الهم الملم، ثم لما أحسست بعجزي وسقط بـالكلية اختياري التجأت إلى اللـه تعالى التجاء المضطـر الذي لا حيلة لـه، فأجابني الذي يجيـب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبـي الإعراض عن الجاه والأولاد والأصحـاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشـام حذرا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بـالشام، فتلطفت الحيل في الخروج من بغداد على عـزم الا أعاودها أبدا، واستهـدفت لأئمة أهل العراق كـافة، إذا لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعـراض عما كنت فيه سببا دينيـا، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصـب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهـم من العلم، ثم ارتبك الناس في الاستنـاطات وظن من بعـد عن العراق أن ذلك كـان لاستشعار مـن جهة الـولاة، وأما من قـرب من الولاة وكـان يشاهد إلحاحهم في التعلـق بي، والنكباب علي، وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قـولهم، فيقولون هذا أمر سماوي، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم، ففارقت بغداد وفرقت ما كـان معي من المال، ولم أدخـر إلا قـدر الكفاف وقـوت الأطفـال تـرخصـا بأن مـال العراق مـرصـد

للمصالح، لكونه وقفا على المسلمين، فلم أر في العالم مالا يأخذه العالم لعياله أصلح منه، ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من علم الصوفية، وكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي، ثم رحلت منها إلى ببيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي، ثم تحركت في داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعلى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه، فسرت إلى الحجاز، ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فآثرت العزلة به أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورة المعاش تغير في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة، ولكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق وأعوذ إليها، فدمت على ذلك مقدار عشرين سنين وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به علمت يقينا أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى، خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريق طهارتها - وهي أول شرطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله، وهذا آخرها بالإضافة إلى ما لا يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها، وهي التحقيق أول الطريقة» انتهى.

والإمام الغزالي رحمه الله يبين الطريق نحو التحقيق في عشر قواعد توقظ النائم وتقيم القائم.

أولها النية الصادقة، ومرادها عزم القلب، وعلاقتها عدم تغيير جزمه، ولا يترك ما عزم عليه للخلق.

وثانيها العمل لله لا لغيره، وعلاقة ذلك لا يرضى بغير الحق، إسوة بقوله صلى الله عليه وسلم «اعبدالله كأنك تراه، فإن لم تره فإنه يراك».

وثالثها موافقة الحق ومخالفة النفس بالصبر وترك الهوى، من تعود هدا خرق الحجاب ودخل الكشف.

ورابعها الاتباع لا الابتداع حتى لا يزهو برأيه ويكون صاحب هوى.

وخامسها الهمة البعيدة عن كل تسويف عملا بقوله صلى الله عليه وسلم «ياأحبائي، عليكم بالسواد الأعظم، قالوا: يارسول الله، وما السواد الأعظم؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

وسادسها الذلة ــ لا بمعنى الكسل ـ في الطاعات ، ورؤية الخلق بعين الوقار والاحترام ، فإن بعضهم وسائط بعض .

وسابعها الخوف والرجاء وعدم الاطمئنان بجلال الإحسان ، وحسن ظنك بالله صاحب الفضل والإحسان .

وثامنها دوام الورد في الحق ، فمن ليس له ورد مالـه من الموارد إمدادا . ويعمل لله تعالى ما يرضي كما يجب أن يفعل الله به ما يرضى .

وتاسعها المداومة على المراقبة حتى لا يغيب عن الله طرفة عين ، فيصل إلى عين اليقين ، بعدها يرى الله في كل شيء .

وعاشرها علم يجب الاشتغال به ظاهرا وباطنا مع اجتهاد ، لأنه من ظن أنه استغنى عن الطاعة فهو مفلس ، عملا بقوله تعلى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» .

هذه وصايا عشر قدمها لنا الغزالي . تسير على نهجها الطرق الصوفية التي يشرب عينها أولياء الله الصالحين .

وكرامات الأولياء الصالحين هي بالنسبة للرسل بداية ، والرسول صلى الله عليه وسلم كانت لديه أول حال ، حين اعتكف في جبل حراء واختلى فيه بربه حتى أتاه اليقين .

أدب المتصوفـــــة

يتميز الأدب الصوفي بلطافته وشفافيتـه وذوقه في حل بعض ما شكل على الفقهاء والعلماء وسائر النـاس من أصحـاب الظاهـر، وسنحـاول أن نجمع شتـاتا مـن ذلك في مواضيع مختلفـة علهـا تفي بالمقصود من الناحيتين الأخلاقية والأدبية معا .

فهذا سلمان الفارسي رضي الله عنه قيل أنه لما سمع قول الله تعالى «وإن جهنم لموعدهم أجمعين» صاح صيحة قوية ووضـع يده على رأسه وهرول فارا ثلاثة أيام . وقيل عنـه أنه زار أبا الدرداء رضي الله عنه من العـراق إلى الشام راجلا وهـو يلبس كساء غليظا مضموم الـرأس شاحبا، فقيل لـه : شهرت نفسك، فقال : الخير خير الآخـرة وإنما أنا عبـد ألبس كما يلبس العبيد، فإذا أعتقت لبسـت جبة لا بتلاء محاسنها .

وسألوا أبا ذر رضي اللـه عنه فقال : إن قيامي بالحق لله تعلى لم يترك لي صـديقا، وإن خوفي من يوم الحساب ما ترك على بدني لحما، وإن يقيني بثواب الله تعالى ما ترك في بيتي شيئا .

وعن أبي موسى الأشعـري رضي الله عنـه قال : سمعت رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم يقول : «كم من ذي طمرين لايؤبه له، لو أقسم على اللـه لأبره» منهم البراء بن مالك رضي الله عنه . فقال البراء : اللهم فإني أقسم عليك لما رزقتني الشهـادة ورزقت أصحـابي الفتح . قـال : فاستشهـد البراء وفتح الله عليهم .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه، جزأت الليل ثـلاثة أجزاء، ثلثا أصلي، وثلثا أنام، وثلثا أستذكر فيـه حديث رسـول الله صلى اللـه عليه وسلم . وعـن أنس بن مالك قـال : أول من يرد الحوض يـوم القيامة الذابلون الناحلون الذين إذا جنهم الليل استقبلوه بحزن . وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أنه كان يقـول : ما كنا ننام ونحن عـزاب في أيام رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلا في المسجد، ولم يكن لنا مسكن ولامأوى، وقيل عنه : لا تحبب أبدا إلا من تثق بدينه . كما كان يقول : لاتطعموا طعامكم إلا كل تقي نقي، ولا تأكلوا إلا من طعام تقي نقي .

وقال حذيفة رضي الله عنه : كم من شهوة ساعة أورثت صاحبها حزنا طويلا .

وقال محمد بن كعب رضي الله عنه : إذا أراد الله بعبد خيرا جعل فيه ثلاث خلال ، فقهه في الدين ، وزهده في الدنيا ، وبصره عيوب نفسه . وأما زرارة بن أوفى رضي الله عنه ، فإنه أم في مسجد بني قسير فقرأ «فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير» فخر ميتا .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : أهدي لرجل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاه قال : إن أخي أحوج إليه مني ، فبعث إليه ، فلم يزل يبعث الواحد إلى الآخر حتى تناوله سبعة أبيات فرجعت إلى الأول ، قال : ونزل فيهم هذه الآية «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» .

وفسر ابن عباس قول الله تعالى «يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا» بقوله : يعني أدبوهم وعلموهم تقوهم بذلك من النار . وسئل محمد بن سيرين أي الأدى أقرب إلى الله تعالى وأزلف للعبد عنده . قال : معرفة بربوبيته ، وعمل بطاعته ، والحمد لله على السراء والصبر على الضراء . وسئل الحسن بن أبي الحسن البصري عن إكثار الناس تعلم الأدب . فما أنفعها عاجلا وأوصلها آجلا ؟ قال : التفقه في الدين ، فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين ، والزهد في الدنيا ، فإنه يقربك من رب العالمين ، والمعرفة بما لله عليك يحويها كمال الإيمان .

وقال كلثوم الغساني : الأدب أدبان : أدب قول وأدب فعل ، فمن رفق لنفسه في أدبه بقوله عدم ثواب العمل ، ومن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعله منحه محبة القلوب وصرف عنه العيوب ، وجعله شريكا في ثواب المتعلمين .

ويقول الجلاجلي البصري رحمه الله : التوحيد موجب يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان موجب يوجب الشريعة ، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له . والشريعة موجب يوجب الأدب ، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد .

ويحكي عن إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى أنه قال : إثنا عشر خصلة من خصال الصوفية في حضرهم وسفرهم . أولها أن يكونوا بما وعدهم الله تعالى مطمئنين . والثانية أن يكونوا من الخلق آيسين . والثالثة أن ينصبوا العداوة مع الشياطين ، والرابعة أن يكونوا لأمر الله مستمعين . والخامسة أن يكونوا على جميع الخلق مشفقين . والسادسة أن يكونوا لأذى الخلق محتملين ، والسابعة أن يدعو النصيحة لجميع المسلمين . والثامنة أن يكونوا في مواطن الحق متواضعين . والتاسعة أن يكونوا بمعرفة الله تعالى مشتغلين . والعاشرة أن يكونوا الدهر على طهارة . والحادي عشر أن يكون الفقر رأسمالهم . والثاني عشر أن يكونوا راضين فيما قل أو كثر وفيما أحبوا أو كرهوا عن الله تعالى شيئا واحدا ، راضين عنه شاكرين له واثقين به .

وقال أبو يزيد : قمت ليلة أصلي فعييت فجلست ومددت رجلي ، فسمعت هاتفا يقول . من يجالس الملوك ينبغي له أن يحسن الأدب . وعن ابراهيم بن أدهم قال : تربعت مرة فهتف بي هاتف . هكذا تجالس الملوك ؟ فما تربعت بعد ذلك . وقال حسن القزاز ـ وكان يكثر الجلوس بالليل ـ سئل

عن ذلك. فأجاب : بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء. لا نأكل إلا من فاقة، ولا نتكلم إلا عن ضرورة، ولا ننام إلا عن غلبة.

وسئل يحيى بن معاذ عن الجوع فقال : لو علمت أن الجوع يباع في السوق ما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره، وقال : الجوع أربعة أوجه، للمريدين رياضة، وللتابعين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين مكرمة. وقيل عن سهل ابن عبدالله أنه كان لا يأكل الطعام أزيد من عشرين يوما، فهو لا يترك الطعام، ولكن الطعام يتركه إذ أنه كان يرد على قلبه ما يأخذه ويشغله عن أكل الطعام. ويحكي عن ممشاذ رحمه الله أنه اعتل بعله شديدة، فدخل عليه أصحابه عائدين، فقالوا كيف تجدك ؟ قال : لا أدري ؟ ولكن سلوا العلة كيف تجدني ؟ فقالوا له : كيف تجد قلبك ؟ قال : قد فقدت قلبي منذ ثلاثين سنة.

وقال أبو سعيد الخراز : من أدب المريد وعلامة صدق إرادته أن يكون الغالب عليه الرقة والشفقة والتلطف والبذل واحتمال المكاره كلها عن عبيده وعن خلقه حتى يكون لعبيده أرضا يسعون عليها ويكون للشيخ كالإبن البار وللصبي كالأب الشفوق، ويكون مع جميع الخلق على هدي يتشكى بشكواهم ويغتم لمصائبهم ويصبر على أذاهم، فإن هذا مراد الله تعالى من المريدين الصادقين أن يعطفوا على الخلق من حيث عطف الله تعالى عليهم، ويتأدبوا بآداب الأنبياء والصادقين وآداب أوليائه وأحبائه حتى ترفع الحجب التي بينه وبين الله تعالى. فما دام هو متمسكا بهذه الآداب ومتخلقا بهذه الأخلاق، ويكون مستعينا في ذلك بالله متوكلا على الله عز وجل راضيا عنه. وسئل يوسف ابن الحسين عن علامة المريد. فقال : ترك كل خليط لا يريد مثل ما يرد، وأن يسلم منه عدوه كما يسلم منه صديقه، وعلامة المريد وجدانه في القرءان كان ما يريد، واستعمال ما يعلم، وتعلم ما لا يعلم، وترك الخوض فيما لا يعنيه، وشدة الحرص على إرادة النجاة من الوعيد مع الرغبة في الوعد والتشاغل بنفسه عن غيره. وقال أبو بكر البارزي : إذا سلك المريد الهول في أول قدم، فلا يبالي، فإنه لن يلقاه بعد ذلك إلا الراحة.

وسألوا جعفر الخلدي عن الصداقة والمودة فقال : هي التي لا تزداد بالبر ولا تنقص بالجفاء.

وقال أبو محمد الهروي : مكثت عند الشبلي رحمه الله ليلة غداة التي مات فيها، فكان يقول طول الليل هاتين البيتين.

كل بيت أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

وقال عبدالله أحمد بن عطاء، سمعت بعض الفقراء يقول : لما مات يحى الإصطخري رحمه الله، جلسنا حوله، فقال له رجل منا، قل أشهد أن لا إله إلا الله، فنهض جالسا، ثم أخذ يد واحد فقال : قل أشهد أن لا إله إلا الله، وخلى يده وأخذ بيد الآخر الذي يجنبه وقال، قل أشهد أن لا إله إلا الله وخلى يده، وأخذ بيد الآخر الذي بجنبه حتى عرض الشهادة على واحد منا، ثم استلقى على قفاه وخرجت روحه.

وسئل أحد المتصوفة عن الفناء والبقاء فقيل : الفناء والبقاء اسمان ، وهما نعمتان لعبد موحد يتعرض الارتقاء في توحيده من درجة العموم إلى درجة الخصوص ، ومعنى الفناء والبقاء في أوائله فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء المعصية ببقاء الطاعة ، وفناء الغفلة ببقاء الذكر ، وفناء رؤيا حركات العبد لبقاء رؤيا عناية الله تعالى في سابق العلم . وقال سمنون : العبد في حال الفناء محمول ، وفي حال الحمل مورود ، وهي نعوت تؤدي إلى نعوت . وقال : أول مقامات الفناء الوجود والمشاهدات للبقاء . وسئل الجنيد فقال عن الفناء : استعجام كلك عن أوصافك ، واستعمال الكل منك بكليتك . وقال ابن عطاء : من لم يفن عن شاهد نفسه بشاهد الحق . وقال الشبلي : من فنى عن الحق بالحق لقيام الحق بالحق ، فنى عن الربوبية ، فضلا عن العبودية . وقال عن الفناء والبقاء : أول علم الفناء هو النزول في حقائق البقاء ، وهو الأثرة لله تعالى على جميع ما دونه ، وتفقد كل حال معه حتى يكون هو الحظ ، وسقوط ما سواه حتى تفنى عبادتهم لله تعالى بأنفسهم ببقاء عبادتهم لله بالله ، وما بعد ذلك لا يدركه المعقول بالعقول ، ولا تنطق به الألسن ، وقد قال الله تعالى «كل من عليها فان» فأول علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة بورود ذكر الله تعالى ، ثم ذهاب حظه من ذكر الله تعالى عند حظه بذكر الله تعالى له ، ثم تفنى رؤية ذكر الله تعالى حتى يبقى حظه بالله ، ثم ذهاب حظه من الله تعالى برؤية حظه ، ثم ذهاب حظه برؤية حظه بفناء الفناء وبقاء البقاء .

وسئل بعض الصوفية عن الوصول ، فقال : ذهاب العقول .

حال الصوفيــة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «يابني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل . ثم قال «يابني وذلك من سنتي ، ومن أحيا سنتي فقد أحياني ، ومن أحيـاني كان معي في الجنة» هذا الحديث بشرى للصوفيـة ، حيث هذا حالهم ، وهم أحق بإحياء هذه السنـة لما يميزوا به من طهارة قلب ، فظهر جوهـرهم ولاح فضلهم . ومما أعانهم على هذه السنـة زهدهم في الـدنيا ، فتركـوها لأهلها و طـلابها ، فكانت لهم مثـار غش وغل ومحبة الـرفعة والمنزلة بين النـاس . وقد صدق بعض الصوفيـة حينما قالوا : طريقنـا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل ، فلما سقط عن قلـوبهم محبة الدنيـا وحب الرفعـة أصبحوا وأمسـوا وليس في قلوبهم غش لأحـد . وقـد يعني المزابل «النفـوس» ـــ كما شرح ذلك بعضهم ، لأنها مأوى كل رجس ونجس كالمزبلة ، وكنسها بنور الروح الواصل إليهـا ، لأن الصوفية أرواحهم في مجال القرب ، ونورها يسري إلى النفوس . قال تعـالى «ونزعنا ما في صـدورهم من غل ، إخوانا على سرر متقابلين» . قـال أبو حفص ، يبقى الغل في قلـوب إئتلفت باللـه واتفقت على محبته واجتمعت على مـودته وأنست بذكـره ، إن تلك قلوب صـافية من هواجس النفـوس وظلمات الطبائع ، بل كحلت بنور التـوفيق فصارت إخوانـا قولا وفعلا وحالا ، ووقعت الموافقة في كل شيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجبت المحبة من الله تعالى ، فصدق قوله «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» .

فالصوفية اتبعوا في أحوالهم الجد والاجتهاد في العبـادة ، والتهجد والصوم والصلاة ، فرزقهم الله البركة في هذا الحال . واتصفـوا بالحلم والعفو والصفح والرأفة والشفقة والنصيحـة والتواضع ، فرزقهم الله من أحواله من الخشيـة والسكينة والهيبة والتعظيم والرضا والصبر والزهـد والتوكل ، وبهذا استوفوا أقسام اتساع سنة رسـول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى الغايات . قيل لبعـد الواحد بن زيد : من الصوفية عندك ؟ قـال : القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفـون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم . وكان رسول اللـه صلى الله عليه وسلـم دائم الافتقار إلى الله حيث يقول : «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، اكـلأني كلاءة الوليد» والصوفي هو أيضـا يسير على هذا النهج ، فهو دائم الافتقـار إلى ربـه ، أسير إليـه من نفسـه ، لما يبدو من شرورهـا ، فـلا يخلـو عن مطـالعتهـا أدنى ساعـة ، كما لا يخلو عن ربه أدنى سـاعة . فالصوفي الـزاهد في الدنيـا ، والمستمسك من التقوى بأوثق

العرى، هو حـاله . إن افتقاره إلى ربه تمسك بجانب الحق وفي هذا التمسك استغـراق الروح واستتباع القلب إلى الـدعاء، والنفس المدبـرة بهذا التـدبير مأمونـة من الغل والغش والحقـد والحسد و سـائر المذمومات، وهذا حال الصوفي .

ويجمع حال الصوفية في شئنين، هما : وصف الصوفية ــ وفي ذلك قوله تعالى ؛ «الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » فقوم من الصوفية خصوا بالاجتباء الصرف، وقوم خصوا بالهداية شرط الإنابة .

فالاجتبـاء المحض، حال المحبـوب المراد يمنحه الحق سبحـانه مـواهب من غير سابقـة . يسبق كشـوفه لاجتهـاده، وفي هذا السيـاق طائفـة من الصـوفية، رفعت عنهم الحجب، وسطع فيهم نـور اليقين، فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال فأقبلوا على ذلك بلذة عيش وقرة عين . وسهل الكشف عليهم الاجتهاد .

وأما المريـدون الذين اشترطـت فيهم الإنابـة في قولـه تعالى «ويهدي إليه مـن ينيب» فقد طـولبوا بالاجتهاد أولا قبل الكشف .

وبعبارة أوضح . فإن هناك مرادون ومريدون .

فالمرادون، سبقت كشوفاتهم اجتهاداتهم .

والمريدون . سبقت اجتهاداتهم كشوفاتهم .

يقول الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وقال أبـو عثمان : المريد هو الـذي مات قلبه عـن كل شيء دون الله تعالى، فيرى اللـه وحده، ويريد قربه، ويشتـاق إليه، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شـوقه إلى ربه . وقال أيضا : عقوبـة قلب المريدين أن يحجبـوا عن حقيقة المعـاملات والمقامـات إلى أضدادهـا، فهذان الطـريقان يجمعان أحوال الصوفيـة، ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بـالتصوف : أحدهـم مجذوب أبقي على جـذبته مارد إلى الاجتهـاد بعد الكشف . والثـاني مجتهد متعبـد ما خلص إلى الكشـف بعد الاجتهاد .

يقول سهـل بن عبداللـه : كل وجه لا يشهـد له الكتـاب والسنة فباطـل . ذلك حال الصـوفية وطريقهم، وكل من يدعي حال غير هذا الوجه فمدع مفتون كذاب .

تصورات ثلاثة أقطاب

ثلاثة من كبار أقطاب التصوف عرفهم تاريخنا الإسلامي، كانوا أمناء مع أنفسهم ومع الناس، كل واحد منهم استفاذ من الآخر وفق التسلسل التاريخي، إنهم الرفاعي والبدوي والقنائي.

فالبدوي كانت له صلة بالرفاعي، والقنائي كانت له صلة بالبدوي، كانت هذه اللقاءات باطنية وروحية، عاش الثلاثة حياة تكاد تكون متشابهة في الصراعات والجولات وتربية الرجال، بل حتى في نهاية حياتهم لقوا نفس المصير الذي لقيه جدهم الأكبر سيدنا علي كرم الله وجهه وأبناؤه رضي الله عنهم.

فالرفاعي ينصح أتباعه ويحذرهم من أن يسبوه بعد وفاته، ويعلن براءته، ويسأله الأتباع قائلين: كيف نسبك وأنت إمامنا، فيجيبهم قائلا: ستفعلون مالا يليق — ثم يكرر براءته - ونفس المعاني كان يرددها البدوي والقنائي. وتمر الأيام والسنين الطويلة، فيتجلى حب هذا أو ذاك، وينسجون من حبهم كلاما يسيء لهم، فيخرجون عن تعاليم الشيوخ، فيراهم الناس ويستهزئون بهم وبأئمتهم، والحق أن المسلمين البسطاء يظلمون أئمتهم وتحت كلكل هذا الجهل، ضاع تراث كثير، وضاعت مجموعة تعليم وآداب صوفية رفيعة، يكفي أنهم في فترة تاريخية أو فترات من الحياة الإسلامية، كان لهم الفضل الأكبر في حماية العالم الإسلامي من الخطر الأجنبي أو التفكك الداخلي.

الإمام أحمد الرفاعي:

من أقواله «طريقي دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، ونفس بلا شهوة، وقلب عامر بالمحبة».

من مواليد العراق سنة 512 هـ أيام الخليفة المستظهر بالله من العصر العباسي الثاني، والرفاعي نسبة إلى جده السابع رفاعة الذي اسمه الحسن، وكان قد هاجر من مكة إلى المغرب حين اضطهاد العلويين حيث استقر به المقام في اشبيلية. أما نسبه فينتهي إلى سيدنا الحسين من جهة أبيه، وإلى سيدنا الحسن من جهة أمه، حفظ القرآن في السابعة، وجمع العلوم في العشرين على مشايخ مرموقين.
من تصوراته في نشر الإسلام. أن الدين يجب أن يكون بعيدا عن كل بدعة، وإنما يحتاج إلى صدق وإخلاص وحسن خلق وتقى، ومن أدخل في عمله الرياء والفجور فقد ضل ضلالا بعيدا، ومن كان

يرغب في إظهـار الكرامات وخـوارق الأحوال قاصدا بـذلك التفاخر وجلب الحظ، فمثلـه مثل الذي يتعلق بخيط العنكبوت . و هو يؤكد أن كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة . وقد قسم أتباعه إلى مجموعات تبـدأ من المريد «التلميـذ» وكل مجموعة من المريـدين شيخ «مـدرس» ولكل مجموعـة من الشيوخ شيخ .

والمريد لا يصل إلى مـراده حتى يخرج عن المألوفـات الحسية ويترك جميع الشهـوات، حتى إذا ما صمم المريد على السير في الطـريق مما فعليه أن يسير في قـول الشيخ الرفـاعي الذي يؤكـده في مجالسه قائلا : «أعينوني على أنفسكم بخمس خصال : الأولى سنة رسول اللـه وصفته كما قال لعائشة ـ إن سرك اللحـاق بي فإياك ومجاورة الموتى ومجالسهم ـ موتى القلـوب ـ ولا تصنعي ثوبـا حتى ترقعيـه . والثانيـة موافقة السلف على حـالهم . والثالثة لبـاس ثوب التعريـة من الدنيا والنفس . والـرابعة تحمل البلاء والاستسلام له . والخامسة لباس الوفاء واجتناب الجفاء» .

ويقول في مـوضع آخر مبينا مـراحل تعلم المريد : «يحتاج الفقير ـ يقصد العبد ـ منكم إن كان سالكا في طريقـه مقتدرا على نفسه أن تكون فيه ست خصـال : أولها، فقد المعلوم المحسوس المفضي إلى البؤس ـ أي الماديـات وحب الدنيا ـ . وثـانيها، الصبر والإياس من جميع الأشيـاء إلا الله تعالى . وثالثها . كتمان السر حتى لا يشكـو إلى مخلوق مثله . والرابعة، تـرك المسألة لكيلا يهرب إلى الخلق من باب اللـه تعالى . والخامسـة، أن يظهر الغنى في الفقر . والسـادسة، أن يعمل للـه تعالى ولا يـرى أنه يعمل شيئا» .

وفي الشيخ يقـول الإمام الـرفـاعي : «الشيخ ظاهـره الشرع وبـاطنه الشرع» «الشيخ من يلـزمك الكتاب والسنـة ويبعدك عن المحدثة والبـدع » «الشيخ إذا نصحك أفهمك، وإذا قادك دلك، وإذا أخذك نهض بك .

والرفاعي الإمام، كان يشتغل في حياته الخاصـة حطابا، ثم يحمل الماء لبيوتات العجزة والأرامل والفقراء .

مات الرفاعي، وبقي الرفاعية يقرأون حزبه الصغير الذي لانرى مانعا من عرضه كاملا :

«بسم الله الـرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الـرحمان الرحيم، مالك يوم الـدين، إياك، نعبد و إيـاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الـذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين . . آمين .

بسم الله الرحمان الرحيم الـم، ذلك الكتاب لا ريب، فيه هدى للتمقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . وبالآخرة هم يقنون أولئك على هـدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون . وإلهكم إلاه واحد، لا إلاه إلا هـو، الرحمان الرحيم . الله لا إلاه إلا هـو، الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له مـا في السموات وما في لأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما

شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤده حفظهما، وهو العلي العظيم. لله ما في السموات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله على كل شيء قدير. آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد ﷲآله وصحبه وسلم. اللهم إني أسألك بعظيم قديم كريم مكنون مخزون أسمائك، وبأنواع أجناس رقوم نقوش أنوارك، وبعزيز إعزاز عزتك، وبحول طول حول شديد قوتك، وبقدرة مقدار اقتدار قدرتك، وبتأييد تحميد تمجيد عظمتك، وسمو نمو علو رفعتك، وبقيوم ديوم دوام أبديتك، وبرضوان غفران أمان مغفرتك، وبرفيع بديع منيع سلطانك، وبصلات سعات بساط رحمتك، وبلوا مع بوارق صوامق عجيج وهيج نور ذاتك، وببهر جهر قهر ميمون ارتباط وحدانيتك، وبهدير تيار أمواج بحرك المحيط بملكوتك، وباتساع انفساح ميادين برازخ كرسيك، وبهيكليات علويات روحانيات أملاك عرشك، وبالأملاك الروحانيين المديرين لكواكب أفلاكك، وبحنين أنين تسكين المريدين لقربك، وبحرقات زفرات خضعات الخائفين من سطوتك، وبآمال نوال المجتهدين في مرضاتك، وبتجهد تمجد تجلد العابدين على طاعتك، يا أول يآخر يا ظاهر يا باطن ياقديم يا مقيت أطمس بطلسم بسم الله الرحمن الرحيم سر سويداء قلوب أعدائنا وأعدائك، ودق أعناق رؤس الظلمة بسيوف نمشات قهر سطوتك، واحجبنا بحجبك الكثيفة عن لحظات لمحات أبصارهم الضيقة بحولك وقوتك، وصب علينا من أنابيب ميازيب التوفيق في روضات السعادة آناء الليل وأطراف النهار، وأغمسنا في حياض سواق مساق برك ورحمتك، وقيدنا بقيود السلامة عن الوقوع في معصيتك، يا أول يآخر ياظاهر يا باطن يا قديم يا مقيت. اللهم ذهلت العقول وانحصرت الأفهام وحارت الأوهام وبعدت الخواطر وقصرت الظنون عن إدراك كنه كيفية ما ظهر من مبادىء عجائب أنواع قدرتك، دون البلوغ إلى تلألؤ لمعات بروق شروق أسمائك، اللهم محرك الحركات ومبدىء النهايات الغايات، ومشفق صم الصلاديد والصخور الراسيات، المنبع منها ماء معينا للمخلوقات، المحيي بها سائر الحيوانات والنباتات، والعالم بما اختلج في سرورهم نطق إشارات خفيات لغات النمل السارحات، ومن سبحت وقدست وعظمت ومجدت جمال كمال افضال عزك ملائكة السبع سماوات. اجعلنا اللهم يا مولانا في هذه الساعة المباركة ممن دعاك فأجبته، وسألك فأعطيته، وتضرع إليك فرحمته، وإلى دارك دار السلام أدنيته وقربته، جد علينا بفضلك يا جواد يا جواد يا جواد، عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله، إنك أنت أهل التقوى وأهل المغفرة، يا أرحم الراحمين ارحمنا، يأرحم الراحمين ارحمنا، يا أرحم الراحمين ارحمنا. رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد، « إنما يريد الله ليذهب عنكم

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» . إن الله وملائكته يصلون على النبيء، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

وهذه الصلاة المسماة جوهرة الأسرار تقال بعد قراءة الحزب الصغير.

اللهم صل وسلم وبارك على نورك الأسبق، وصراطك المحقق الذي أبرزته رحمة شاملة لوجودك، وأكرمته بشهودك، واصطفيته لنبوتك ورسالتك، وأرسلته بشيرا ونذيرا وداعيا إليك بإذنك وسراجا منيرا، نقطة مركز باء الدائرة الأولية وسر أسرار الألف القطبية الذي فتقت به رتق الوجود وخصصته بأشرف المقامات لمواهب الامتنان والمقام المحمود، وأقسمت بحياته في كلامك المشهود، لأهل الكشف والشهود، فهو سرك القديم الساري، وماء جوهر الجوهرية الجاري، الذي أحييت به الموجودات من معدن وحيوان ونبات، فهو قلب القلوب، وروح الأرواح، وعلم الكلمات الطيبات، والقلم الأعلى، والعرش المحيط، روح جسد، الكونين، وبرزخ البحرين، وثاني اثنين، وفخر الكونين، أبو القاسم سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما بقدر عظمة ذاتك في كل وقت وحين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين .

الإمام أحمد البدوي :

من أقواله «طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة والصدق والصفاء وحسن الوفاء، وحمل الأذى، وحفظ العهود»

من مواليد فاس سنة 596 هـ سلالة عربية يعود نسبة إلى الإمام علي كرم الله وجهه، هاجر المغرب إثر اضطهاد العلويين في المشرق، حفظ القرآن الكريم في السابعة، ثم بدأ يصاحب والده الشريف علي بن عثمان، وإخوته الستة بين مجالس العلم إلى أن أعلن والده الرحيل من المغرب إلى مكة مقرهم الأول، فاغترف بها أيضا من العلم ما ثبت فؤاده، بعدها بدأ اعتزال الناس والاعتكاف على العباده لدرجة أنه اعتزل في مغارة بجبل قرب مكة، وهنا درس ذاتيته وحاجية الأمة الإسلامية، وخطر له خاطر الشوق إلى معرفة علوم الرفاعي وعبد القادر الجيلاني وغيرهم من المتصوفة، ومن هنا سلك خط الوحدة معهم، فخرج عن صمته متوجها نحو العراق ثم إلى مصر ليقيم في طنطا .

من تصوراته في نشر الإسلام أن يكون جندا للدفاع عن دين الله، فكان كذلك إذ حارب المبشرين والمسيحية بطنطا وقضى عليهم، كما حارب «لويس» التاسع وقضى عليه وأسر منهم عددا كثيرا، وبقدر ما كانت تصوراته في تكوين جند الله في الدفاع بقدر ما كانت تصوراته في تكوين جندالله في السلم، فربى عددا عديدا عن طريق التعليم والتدريس والتربية .

وقد سألوه يوما عن علامة الولاية، فقال :

«إن الولي الشرعي له اثنتا عشرة علامة .

الأولى : أن يكون عارفا بالله .

الثانية : أن يكون مراعيا لأوامر الله .

الثالثة : أن يكون متمسكا بسنه النهي .

الرابعة : أن يكون دائم الطهارة .

الخامسة : أن يكون راضيا عن الله تعالى .

السادسة : أن يكون موقنا عما وعده الله به .

السابعة : أن ييأس بما في أيدي الناس .

الثامنة : أن يتحمل أذى الناس .

التاسعة : أن يكون مبادرا لأوامر الله .

العاشرة : أن يكون شفوقا على خلق الله .

الحادية عشر : أن يكون متواضعا للناس .

الثانية عشرة : أن يكون عالما بأن الشيطان عدو كما أخبر الله تعالى بقوله «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا» .

وفي سؤال عن العقبات التي تقيد الإنسان ، يجيب السيد البدوي قائلا :

تسع عقبات تقيده وتشده إلى الدنيا .

- عدم مراعاة الإحسان في العمل .

- شح النفس بالعطاء .

- عدم استدامة ذكر الله .

- الغفلة عن قيام الليل .

- سوء الخلق في المعاملة .

- عدم الصبر على تحمل أذى الناس .

- عدم ملازمة الصدق .

- خلو القلب من الصفاء وحسن الوفاء وحفظ العهود . »

وفي إحدى وصاياه : «من لم يكن عنده علم ، لم تكن له قيمة في الدنيا ولا في الآخرة ، ومن لم يكن عنده حلم لم ينفعه علم ، ومن لم يكن عنده سخاء لم يكن له من ماله نصيب ، ومن لم تكن عنده شفقة على خلق الله لم تكن له شفاعة عندالله ، ومن لم يكن له صبر لم تكن له في الأمور سلامة ، ومن لم تكن له تقوى لم تكن له منزلة عند الله ، ومن حرم هذه الخصال فليس له منزلة في الجنة» .

ومن أقواله «اذكر الله بقلب حاضر، وإياك والغفلة عن الله، فإنها تورث القسوة في القلب» وفي الزهد «أن يترك المريد سبعين بابا من الحلال خوفا من الوقوع في الحرام» وعن التوبة النصوح «ندم عن الذنب، وإقلاع عنه، واستغفار باللسان، وعزم على عدم العودة إلى المعصية، وصفاء القلب».

لقد واصل البدوي مسيرته التعليمية والتربوية إلى أن وافاه الأجل بطنطا سنة 675هـ. فترك أتباعه يرددون حزبيه الشهرين، الكبير والصغير، وصلاتية.

فأما الحزب الكبير فهو :

«الحمد لله رب العالمين، الرحمان الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نسعين، إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين. وإلهكم إلاه واحد لا إلاه إلا هو الرحمن الرحيم، الله لا إلاه إلا هو، الحي القيوم، لاتأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤده حفظهما. وهو العلي العظيم. ألم الله لا إلاه إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل الثوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان، إن للذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام، إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء، لا إلاه إلا هو العزيز الحكيم. شهد الله أنه لا إلاه إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا إلاه إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الاسلام. الله لا إلاه إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، ومن أصدق من الله حديثا، ذلكم ربكم، لا إلاه إلا هو، خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل. اتبع ما يوحي إليك من ربك، لا إلاه إلا هو، واعرض عن المشركين. قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا، الذي له ملك السموات والأرض، لا إلاه إلا هو يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون. وما أمروا إلا ليعبدوا إلاها واحدا لا إلاه إلا هو، سبحانه عما يشركون. فإن تولوا فقل حسبي الله، لا إلاه إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم. حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا هو الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إلاه إلا هو فهل أنتم مسلمون. وهم يكفرون بالرحمن، قل هو ربي لا إلاه إلا هو، عليه توكلت وإليه متاب، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إلاه إلا أنا فاتقون. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، الله لا إلاه إلا هو، لله الأسماء الحسنى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إلاه إلا أنا فاعبدوني وأقم الصلاة لذكري. إنما إلهكم الله الذي لا إلاه إلا هو وسع كل شيء علما. وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلاه إلا أنا فاعبدون. وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إلاه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فتعالى الله الملك الحق، لا إلاه إلا هو رب العرش الكريم. ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إلاه إلا هو رب العرش العظيم. وهو الله لا إلاه إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة،

وله الحكم، وإليه ترجعون، ولا تدع مع الله إلـها آخر لا إلاه إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم، وإليه ترجعون. ياأيها النـاس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خـالق غير الله يـرزقكم من السماء والأرض، لا إلاه إلا هو، فأنى توفكون. إنهم كـانوا إذا قيل لهم لا إلاه إلا الله يستكبرون. ذلكم الله ربكم له الملك. لا إلاه إلا هـو، فأنى تصرفون، حم، تنزيل الكتاب من الله العزيـز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إلاه إلا هو، إليه المصير. ذلكم الله ربكم خالق كل شيء، لا إلاه إلا هو، فأنى تؤفكـون. هو الحي، لا إلاه إلا هو فادعوه مخلصين له الـدّين، الحمد لله رب العـالمين. رب السموات والأرض ومـا بينهما إن كنتم موقنين، لا إلاه إلا اللـه يحيي ويميت، ربكم ورب آبائكم الأولين، فـاعلـم أنه لا إلاه إلا الله، واستغفـر لذنبك وللمؤمنين والمومنـات، والله يعلم متقلبكـم. هو الله الـذي لا إلاه إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيـم، هو الله الذي لا إلاه إلا هو الملك القدوس السـلام المومن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان اللـه عما يشركون، هو اللـه الخالق البارىء المصـور، لـه الأسماء الحسنى، يسبح له مـا في السماوات والأرض، وهـو العزيـز الحكيم. الله لا إلاه إلا هو، وعلى الله فليتوكل المومنون. رب المشرق والمغرب، لا إ لاه إلا هو، فاتخذه وكيلا. اللهـم إني أسألك بنور وجهك الـذي ملأ أركان عرشك، وأسألك بطول حول شـديد قوتك، وأسألك بتوكيد أكيد برهانك، وأسألك ببديع منيع رفيع سترك، وأسألك بقدر مقدار اقتدار قدرتك، وأسألك بدوام ديوم ديوميتك، وأسألك بعزيـز معتز عزتك، وأسألك بجلال كمال نعمتك، وأسألك بمكنـون تكويـن كائن سرك، وأسألك بما أنـارت بـه السمـوات والأرض من خفي علمك، وأسألك باسمك العظيم وركنك الجسيم أن تفك اللهـم كربتي، وتفرج غمتي، وتؤنس غربتي، وتتفضل علي ياإلاهي بنظرة منك تكـون لي النجاة بها في الدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قديـر، ياأرحم الراحمين، ولاحـول ولاقوة إلا بـالله العلي العظيم، وصلى اللـه على سيـدنا محمـد النبي الأمي وعلى آله وصحبـه وسلم.»

وأما الحزب الصغير فهو:

«بسم اللـه الرحمن الـرحيم وصلى الله على سيـدنا محمـد وآله وصحبـه وسلم، عما نووا فعمـوا، وصموا عما طـووا، رب لا تذرني فـردا وأنت خير الوارثين. بسم اللـه الرحمن الرحيم ألم تـر كيف فعل ربك بأصحـاب الفيل، ألم يجعل كيـدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبـابيل تـرميهم بحجـارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكـول. اللهم اكفنيهم بما شئت، اللهم إني أعـوذ بك من شرورهم، وأدرأ بك في نحورهم، بك أحـاول وبك أقاتل، اللهم واقية كواقية الـوليد، بكفهيعص كفيت، بحمعسق حميت، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، وهـو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قـوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيـدنا محمـد النبي المصطفى الكريم، وعلى آلـه وصحبه وسلم تسليما كثيرا، والحمد لله رب العالمين».

أما الصلاة الأولى:

«اللهم صل وسلم وبـارك على سيـدنا ومـولانـا محمد شجـرة الأصل النـورانيـة، ولمعة القبضـة الرحمانيـة، وأفضل الخليقة الإنسانيـة، وأشرف الصور الجسمانية، ومعـدن الأسرار الربانيـة، وخزائن

العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية، واالبهجة السنية، والرتبة العلية، من اندرج النبيؤون تحت لوائه، فهم منه وإليه، وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت وأمت وأحييت إلى يوم تبعث من أفنيت، وسلم تسليما كثيرا، والحمد لله رب العالمين».

أما الصلاة الثانية :

«اللهم صل على نور الأنوار، وسر الأسرار، وترياق الأغيار، ومفتاح باب اليسار، سيدنا محمد المختار، وآله الأطهار، وأصحابه الأخيار، عدد نعم الله وإفضاله».

الإمام عبدالرحيم القنائي :

من أقواله «اللهم ارزقنا رزقا لا تعذبنا عليه»

من مواليد ترغاي بمقاطعة سبتة بالمغرب سنة 880هـ ، حفظ القرآن في الثامنة من عمره، وتلقى العلم عن أبيه وكبار العلماء، وفي سن الثامنة عشر تأثرت صحته إثر وفاة أبيه، فأرسلته أمه عند أخواله بدمشق، حيث تلقى العلم، وعاد إلى ترغاي في سن العشرين، وانطلق مكان أبيه واعظا، فذاع خبر الشيخ الصغير بين الناس وعم الآفاق. غير أن موت أمه، والفتن التي تمر بالعالم الإسلامي، والدمار الذي أصاب ترغاي، وموت الأحبة. كل هذا دفعه إلى الحجاز عبر الأسكندرية مارا بالقاهرة، ليجاور الحرمين تسع سنوات عالما عابدا، بعدها توجه إلى قنا بمصر، يتعرف على أهلها ويدرس ويتعبد ويعمل بالتجارة، حيث أصبحت ثروته العظيمة وقفا على الطلبة ورجال العلم.

من تصوراته في حماية العقيدة السمحاء قوله دوما وباستمرار لتلامذته «إن الدين الإسلامي دين علم وعمل وأخلاق، فمن ترك واحدة فقد ظل الطريق» من أجل ذلك أسس مدرسة فكرية إسلامية صوفية، ويمكن القول عنه أنه أسس مدرسة فكرية إسلامية أكثر مما أسس طريقة، عكس سابقيه، وهو يدعو إلى ذلك ويفرده بالشرح في كتاباته وتدريسه، إيمانا منه بأن العلم دعوة سماوية ومتممة للعمل، ومما كان يقوله عن العلم «إن مصدره أحاسيس مرتبطة بين العقل و الإرادة، ينتج منها الانتاج الفكري سواء كان جديدا من بيانه وأبوابه، أو مرتلا خزينة أسرار مجلس الإنتاج الفكري . . .

والعلم علم الواقع والعلم الطبيعي. فالأول حسن ظاهري. . . والثاني تحوطه المعرفة، وهو ما يتبصره الإنسان وينظر به ظاهر الأشياء وأسبابها الخفية.

والأخير ــ العلم الطبيعي ـ يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين، وهو الذي يجر صاحبه إلى البحث والتنقيب وراء خالق الكون، فتجر صاحبها إلى كلام الله وأقوال الرسل والرضوخ جسمانيا وروحيا في حلقة من حلقات النور الإلاهي الذي يوهب لمن اتقى، وسار في هذا الطريق مجاهدا بنفسه ليبلغ المرتبة العليا من هذا العلم، أو أسمى حقائق الدين، وبه أخذ التصوف، بل هو التصوف نفسه». وبقدرما أوصى بالعلم أوصى بالعمل قائلا : « . . . وإلى المزيد من العمل لمن يعمل إلى جانب العلم، فهو ضرورة لا يكتفي منها بما يسد الرمق، بل باستغلال كل طاقة الإنسان، من أجل الخير له، وللناس ممن حوله، وللحياة التي خلقها الله لنا»

وقد بحث الإمام القنائي عن الأخلاق قائلا : «إن الأخلاق تنبع من مزيج من العلم الظاهر والباطن، والعمل المنتج المستنير تطويه الروح فترسله إلى النفس الأمارة فتغسلها من أدرانها ، وبهذا يحصل النقل عن الإدراك الصحيح والمعرفة ، فيخلص البدن ، فيتجه الكل إلى الله ، وإلى كلام رسول الله ، وهذه تسمى الأخلاق الزكية ، وهي أعلى درجات الكمال ، وبها اتصف النبي صلى اله عليه وسلم فقال الله تعالى «وإنك لعلى خلق عظيم» .

مات الامام عبد الرحيم القنائي سنة 952هـ وقد ترك آثارا علمية وصدى تردده أتباعه ، وله حزب مشهور نورده بكامله :

«بسم الله الرحمان الرحيم قل هو الله أحد . الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد . بسم الله الرحمان الرحيم قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد .

بسم الله الرحمان الرحيم قل أعوذ برب الناس ملك الناس إلاه الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس . بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . بسم الله الرحمن الرحيم ألم . ذلك الكتاب لاريب ، فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبل وبالاخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون . وإلهكم إلاه واحد لاإله إلا هو، الرحمن الرحيم . الله لا اله الا هو الحي القيوم ، لاتأخذه سنة ولانوم ، له مافي السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ، ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولايؤوده حفظهما وهو العلي العظيم . لاإكراه في الدين ، قد تبين الرشد من لغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انقصام لها . والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خاالدون . الم ، الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء ، لاإله إإلا هو، العزيز الحكيم . شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الاسلام . قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب . الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثا ، ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لاتدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير ، اتبع ما يوحى إليك من ربك ، لاإله إلا هو ، وأعرض عن المشركين . قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ، الذي له ملك السموات

والأرض، لاإله إلا هـو، يحي ويميت، فآمنـوا باللـه ورسولـه النبي الأمي الذي يـؤمن باللـه وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون. وماأمروا إلا ليعبدوا إلاها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون. فإن تولوا فقل حسبي الله، لا إله إلا هـو. عليه توكلت. وهو رب العرش العظيم. حتى إذا أدركـه الغرق قال آمنت ان لا إله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وأنـا من المسلمين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم اللـه وأن لا إله إلا أنا فاعبدون. وإن تجهـر بالقول فإنه يعلم السر وأخفـي، الله لا إله إلا هـو له الأسماء الحسنى. وأنـا اخترتك فـاستمع لما يوحى أنني أنـا اللـه لا إله إلا أنـا فاعبـدني وأقمم الصلاة لذكـري. إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، وسع كل شيء علما. ومـا أرسلنا من رسول إلا نوحي إليه أنـه لا إله إلا أنا فاعبـدون. وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن تقـدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانـك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجينـاه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين. فتعالى اللـه الملك الحق، لاإله إلا هو، . رب العـرش الكريم. الله لا إلـه إلا هو رب العرش العظيم. هـو الله لا إله إلا هو، له الحمـد في الأولى والآخرة، وله الحكم. ، وإليـه ترجعون. ولاتدع مع الله إلاها آخر لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم، وإليه ترجعون. ياأيها الناس اذكـروا نعمة اللـه عليكم هل من خالق غير اللـه يرزقكم من السماء والأرض، لا إلـه إلا هو، فأنى تؤفكون، ذلكم الله ربكم، له الملك، لا إلاه إلا هو، فأنى تصرفون. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لاإ لله إلا هو، إليه المصير. ذلكم الله ربكم، خالق كل شيء، لا إله إلا هو، فأنى تؤفكـون، هو الحي، لا إله هو، فـادعوه مخلصين له الدين، الحمـد لله رب العالمين. رب السموات والأرض ومابينها إن كنتم موقنين. لا إله إلا هو يحي ويميت، ربكم ورب آبائكم الأولين. فاعلم أنه لا إله إلا الله فاستغفر لـذنبك وللمومنين والمومنات، والله يعلم متقلبكم ومثواكم. وهو الله لا إله إلا هـو، له الحمد في الأولى والآخرة، وإليـه الحكم، وإليه ترجعون. ولاتـدع مع الله إلاها آخر لا إله إلا هو، كل شيء هـالك إلا وجهه، له الحكم، وإليه ترجعون. يـاأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خـالق غير الله يرزقكـم من السماء والأرض، لاإله إلا هو، فأنى تـؤفكون، ذلكم الله ربكم، له الملك، لا إله إلا هـو، فأنى تتصرفون. غافر الذنب وقابل التـوب شديد العقاب ذي الطول، لاإله إلاهـو، إلييه المصير. ذلكم الله ربكم، خالق كل شيء، لاإله إلا هـو، فأنيى تؤفكون. هو الحي، لاإله إلا هـو، فادعوه مخلصين له الدين، الحمد للـه رب العالمين. رب السموات والارض ومابينهما إن كنتم موقنين. لاإله إلا هو يحي ويميت، ربكم ورب آبائكم الأولين. فاعلم أنه لا إله إلا الله فاستغفر لذنبك وللمومنين وللمومنات، واللـه يعلم متقبلكم ومثواكم وهو الله لا إله إلا هو عالم الغيب والشهـادة، هو الرحمن الرحيم، هـو الله الـذي لا إله إلا هـو الملك القدوس السـلام المومن المهيمن العزيز الجبـار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البـاريء المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح لـه مافي السمـوات والأرض، وهو العـزيـز الحكيم، الله لا إلـه إلا هو، وعلى اللـه فليتوكل المومنـون. رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو، فـاتخذه وكيلا. آمنن الرسول بما أنـزل إليه من ر به والمومنـون، كل آمن باللـه وملائكتـه وكتبه ورسله، لانفـرق بين أحد من رسلـه، وقالـوا سمعنا وأطعنـا، غفـرانك ربنـا، وإليك المصير لايكلـف اللـه نفسـا الا وسعهـا، لها مـاكسبت، وعليهـا

ماكتسبت ، ربنا لاتـواخذنا إن نسينا آو اخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينـا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنـا مالا طاقة لنـا به ، واعف عنا ، واغفر لنـا ، وارحمنا ، انت مولانـا فانصرنا على القوم الكـافرين . سبحـان الله والحمـدلله ولا إله إلا اللـه والله أكبر ولاحـول ولاقوة إلا بـالله العلي العظيم « ثلاثا» عدد مـاعلم وزنه ماعلم وملء ماعلم ، سبحان الله والحمد للـه ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولاقـوة إلا باللـه العلي العظيم ، عدد خلقـه وزنة عـرشه ورضـاء نفسه ومـداد كلماته ، سبحان الله وبحمده منتهى علمه ، سبحان الله ذلك التسبيح الذي سبحه لنفسسه ، سبحان الله دائما في ديمومته ، سبحان الله تسبيحا يعلو تسبيح المسبحين ويفضل على تسبيحهم لفضله على جميع خلقه ، الحمـد لله بجميع محامده كلها على جميـع نعمائه كلها على جميع خلقه ، الحمد للـه حمدا يوافي نعمه ويكافيء مزيده ، الحمـد لله كما ينبغي له وجه ربه وعز جلاله ونـور كبريائه ، الحمد لله ذلك الحمد الذي حمده لنفسه ، الحمد للـه حمدا يفضل على حمد كل حامد كفضله على جميع خلقه ، اللهم أنت الـواحد الأحـد الفرد الصمـد ، وأنت الحي القيوم القديم الـدائم الأبدي ، وأنت الملك المقتـدر القديـر القادر ، وأنت العلي العالي الأعلى الرحمن الـرحيم الشكور العفو الغفور الـودود التواب ، اللهم أنت الأول فـلا شيء قبلك ، وأنت الآخـر فلا شيء بعـدك ، وأنت الظـاهر فـلا شيء فـوقك ، وأنت البـاطن فلا شيء دونك ، اللهم ، اللهم إني استغفـرك فإنك الله الـذي لا إله إلا أنت الحي القيـوم ، غفار الذنوب وأتوب اليك . اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا اعلـم . أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق ومن شر نفسي ومافيها ، الحمد لله الذي عافاني فما ابتلى به غيري ، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا ، الحمد للـه الذي حمد نفسه ، اللهم آت سيدنـا محمدا الوسيلة والفضيلـة والدرجة العالية الرفيعة ، وابعته المقام المحمود الذي وعدته ياأرحم الراحمين . اللهم صل على سيدنا محمد بعدد من يصلي عليه من خلقك ، وصل على سيدنا محمـد بعدد من لم يصل عليه من خلقك ، وصل على سيدنا محمد كما ينبغي لنا أن نصلي عليه ، وصل على سيدنا محمد كما أمرتنا أن نصلي عليه ، وصل على سيدنا محمـد صلاة زكية تبلغه الدرجـة والوسيلة ، وصل على سيدنا محمـد كلما ذكره أحد من خلقك وحيث ماذكر ، اللهم سلم على سيدنا محمد سلامك الذي سلمته عليه ، اللهم صل على ملائكتك المقـربين وعلى أنبيائك المرسلين وعلى عبـادك الصـالحيين من أهل السموات والأرضين ، اللهم اغفـر للمـؤمنين والمؤمنـات والمسلمين والمسلمات ، اللهم نسألك يـارب يارحمن يـارحيم يـاملك يـاخـالق ياباريء يـا مصور ياشكور يـاودود ياعلي ياعظيم يا عليم يـاكريم يالطيف ياخبير يـاسميع يابصير ياكبير يامتعال يامـولاي يانصير يابريا ياوتر ياأول يـا آخر ياظاهر ياباطن ياوالي يـاقابض يا باسط ياقائم ياداثم ياواسع ياشاكـر ياصادق ياخافض ياقاهر ياغافر ياواحد يـا أحد يافرد ياصمد ياغني ياعلي ياولي ياقوي ياجواد ياقريب يامجيب يـاحسيب يامغيث يامحيي ياميت يامبدىء يا معيد ياحميد يامجيـد يا حي يا قيوم يـاوهاب ياتواب يـافتاح يافعـال ياكافي ياهـادي ياوالي ياباقي يـاحفيظ يامحيط ياشديـد ياشهيد يابديع يـارفيع ياباعـث ياوارث ياوكيل يـاجليل يا الله . اللهم اعف عنا واغفر لنا وا رحمنا و عافنـا واهدنـا واسترنا واجبرنا وانصرنـا وارزقنا خير الدنيـا والآخرة ، واصرف عنـا شر ما في الدنيا وشر ما في الآخـرة ، اللهم خذنا من أنفسنا إليك ، واحي قلوبنا بـذكرك ، وارزقنا الثبات على

طاعتك بين يديك، وافتح لنا طريقنا إليك. بسم الله على ديني، بسم الله على نفسي، بسم الله على أهلي ومالي وأولادي وعلى كل شيء أعطاني ربي، بسم الله خير الأسماء، بسم الله الذي لايضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، بسم الله استفتحت وعلى الله توكلت، الله ربي ولاأشرك به شيئا، اللهم إني أسألك لي ولهم بخيرك من خيرك الذي لايعطيه غيرك. ولايملكه سواك. أنت ربي عز جاهك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك، اللهم اجعلني وإياهم في عياذك من شر كل ذي شر، ومن شر الشيطان الرجيم، اللهم نسألك حرائهم واجارتهم إن ربي على صراط مستقيم بين يدي وأيديهم، وعن يميني وإيمانهم، وعن شمالي وعن شمائلهم، ومن فوقي ومن فوقهم، ومن تحتي ومن تحتهم، ومن خلفي ومن خلفهم، قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.»

الشيخ

للشيخ شرروط، منها سلامة صدره من عيوب الناس، وكرمه لكل طالب وراغب، وصفاء سريرته نحو من أساء إليه، وعدم إغفاله خطايا مريديه، ملما بعلم الفقه والتوحيد، ومزودا بعلم الباطن، معرضا عن الهوى، زاهدا في دنياه، مقبلا على آخرته، ذا بصيرة، غير مغرور.

وهو المسعف للمريد الذي ينقله إلى عناية الله عز وجل .

ولابأس هنا أن نذكر قصة النفر من الصحابة رضوان الله عليم، الذين قدموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سألوا أزواجه عن عبادته وقيامه وصيامه، فذكرن لهم عبادته عليه السلام، فقالوا لسنا كرسول الله، فإنه أخذ غفران ربه ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر كله، وقال الآخر: أما أنا فأقوم الليل كله، وقال الآخر: أما أنا فلا أقارب النساء. ثم ذهبوا. وجاء النبي على إثرهم فأخبرته عائشة رضي الله عنها مما رأت منهم وما قالوا، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال لهم «أما أنا فأخشاكم الله وأتقاكم له وأعلمكم به وإني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأقارب النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني» وأنزل الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ولاتعتدوا. إن الله لايحب المعتدين» إن الشيخ - إلى جانب ماتقدم - هو من يكون على بينة بحال المريد. فليأخذه بالتدريج من مقام التوسط إلى ما هو أعلى، أوبعبارة أصح، يأخذه مثل ما تأخذ الأم طفلها في حجرها. وعلى المريد أن يطيع شيخه كطاعة موسى للخضر، وعلى الشيخ أن يحفظ أسرار المريد من مكاشفات. فسر المريد لايتجاوز ربه وشيخه.

والشيخ من مبدئه تحبيب الله إلى عباده، اتباعا لقوله صلى الله عليه وسلم« والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحبيون الله إلى عباده، ويحبيون عباد الله ويمشون على الأرض بالنصيحة» فهذا الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة المشيخة، والشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صح اقتداؤه أحبه تعالى بدليل قوله عز وجل « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» فالشيخ حين يسلك بالمريد طريق الله فهو يسير به نحو التزكية وانجلاء مرآة القلب، فتنعكس فيه أنوار العظمة الإلهية وينجلي فيه جمال التوحيد وفلاح الظفر بمعرفة الله عز وجل، كما تنكشف للبصيرة حقيقة الدارين ومن هنا تظهر مزايا المشيخة والتربية، فيتضح جليا أن الشيخ من جنود الله يهدي به الراغبين.

ونقلا عن كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي في الجزء الخامس صفحة75 يقول: «كان شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله يقول: ولدي من سلك طريقي واهتدى بهداي: فالشيخ الذي يكتسب بطريقة الأحوال قد يكون مأخوذا في طريق ابتدائه، وقد يكون مأخوذا في طريق المحبين، وذلك لان أمر الصالحين والسالكين ينقسم إلى أربعة أقسام: سالك مجرد! ومجذوب مجرد! وسالك متدارك بالجذبة، ومجذوب متدارك بالسلوك. فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياضة، ولا يرتقي إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة. والمجذوب المجردمن غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ويرفع عن قلبه شيئا من الحجاب ولايؤخذ في طريق المعاملة؛ إلى أن يقول: وهذا أيضا لا يؤهل للمشيخة ويقف عند حظه من الله مروحا بحاله، غير مأخوذ في طريق أعماله ماعدا الفريضة. والسالك الذي تدورك بالجذبة هو الذي كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط. ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال، فوجد العسل بعد العلقم، وتروح بنسمات الفضل، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة، وأونس بنفحات القرب، وفتح له باب من المشاهدة فوجد دواءه وفاض وعاؤه وصدرت منه كلمات الحكمة ومالت إليه القلوب، وتوالى عليه فتوح الغيب وصار ظاهره مسدودا وباطنه مشاهدا، وصلح للخلوة وصار له في جلوته خلوة، فيغلب ولا يغلب، ويفترس ولا يفترس. يؤهل هذا للمشيخة، لأنه أخذ في طريق المحبين، ومنح حالا من أحوال المقربين، بعدما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين، ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم علوم، ويظهر بطريقة بركة، ولكن قد يكون محبوسا في حاله، محكما حاله فيه، لا يطلق من وثاق الحال، ولايبلغ كمال النوال، يقف عند حظه وهو حظ وافر سني، والذين أوتو العلم درجات. ولكن المقام الأكمل في المشيخة القسم الرابع، وهو المجذوب المتدارك بالسلوك، يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين، ويرفع عن قلبه الحجب، ويستنير بأنوار المشاهدة، وينشرح وينفسخ قلبه ويتجافى عن دار الغروب، وينيب إلى دار الخلود، ويرتوي من بحر الحال، ويتلخص من الأغلال والأعلال، ويقول معلنا، لا أعبد ربا لم أره، ثم يفيض من باطنه على ظاهره، وتجري عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء، بل بلذاذة وهناء، ويصير قالبه بصفة قلبه، لامتلاء قلبه ربه، ويلين جلده كما لان قلبه، وعلامة لين جلده إجابة قالبه للعمل كإجابة قلبه، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة، ويرزقه محبة من محبة المحبوبين المرادين، ينقطع فيواصل، ويعرض عنه فيراسل، يذهب عنه جمود النفس، ويصطلي بحرارة الروح، وتنكمش عن قلبه عروق النفس. قال الله تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله» أخبر أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين، ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد، وقد ورد في الخبر أن إبليس سأل السبيل إلى القلب، فقيل له: يحرم عليك، ولكن السبيل لك في مجاري العروق المشبكة بالنفس إلى حد القلب، فإذا دخلت العروق عرقت فيها من ضيق مجاليها، وامتزج عرقك بماء الرحمة المترشح من جانب القلب في مجرى واحد، ويصل بذلك سلطانك إلى القلب، ومن جعلته نبيا أو وليا قلعت تلك العروق من باطن قلبه، فيصير القلب

سلبيا ، فإذا دخلت العروق لم تصل إلى المشتبكة بالقلب ، فلا يصل إلى القلب سلطانك . فالمحبوب المراد الذي أهل للمشيخة سلم قلبه وانشرح صدره ولان جلده ، فصار قلبه بطبع الروح ، ونفسه بطبع القلب ، ولانت النفس بعد أن كانت أمارة بالسوء مستعصية ، ولان الجلد للين النفس ورد إلى صورة الأعمال بعد وجدان الحال . ولايزال روحه ينجذب إلى حضرة إلهية فيستتبع الروح القلب ويستتبع القلب النفس ويستتبع النفس القالب ، فامتزجت الأعمال القلبية والقالبية ، وانخرق الظاهر إلى الباطن ، والباطن إلى الظاهر ، والقدرة إلى الحكمة والحكمة إلى القدرة ، والدنيا إلى الآخرة والآخرة إلى الدنيا ، ويصح له أن يقول : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطرا على الحال ، لا الحال مسيطرا عليه ، ويصير حرا من كل وجه . والشيخ الأول الذي أخذ طريق المحبين حر من رق النفس ، ولكن ربما كان باقيا في رق القلب ، وهذا الشيخ في طريق المحبين حر من رق القلب كما هو حر من رق النفس ، وذلك أن النفس حجاب ظلماني أرضي أعتق منه الأول ، والقلب ، حجاب نوراني سماوي اعتق منه الآخر ، فصار لربه لا لقلبه ولمواقته لا لوقته . فعبد الله حقا وآمن به صدقا ويسجد لله سواده وخياله ، ويؤمن به فؤاده ويقربه بلسانه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض سجوده ، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة ، وتصير عبادته مشاكلة لعبادة الملائكة «ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا أو كرها وظلالهم بالغدو والآصال» ، فالقوالب هي ظلال الساجدة و ظلال الأرواح المقربة في عالم الشهادة . فالأصل كثيف والظل لطيف ، وفي عالم الغيب : الأصل لطيف والظل كثيف ، فيسجد لطيف العبد وكثيفه ، وليس هذا لمن أخذ في طريق المحبين لأنه يستتبع صور الأعمال ويمتليء بها أنيل من وجدان الحال ، وذلك قصور في العلم وقلة في الحظ ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الروح بالجسد ، رأى أن لا غنى عن الأعمال كما لا غنى في عالم الشهادة من القوالب ، فما دامت القوالب باقية فالعمل باق ، ومن صح في المقام الذي وصفناه هو الشيخ المطلق والعارف المحقق ، والمحبوب المعتق ، نظره دواء وكلامه شفاء بالله ينطق والله يسكت . كما ورد في الحديث «ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا ، بي ينطق وبي يبصر» الحديث ، فالشيخ يعطي بالله ويمنع بالله ، فلا رغبة له في عطاء ومنع لعينه ، بل هو مراد الحق ، والحق يعرف مراده ، فيكون في الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه ، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول في صورة محمودة دخل فيها لمراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة ، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة عبادة الله تعالى .

أدب المريد

المريد مشتق من الإرادة، وهي لوعة في القلب يطلقونها ويريدون بها إرادة المتمني، وهي منه، وإرادة الطبع، ومتعلقها الحظ النفساني، وإرادة الحق، ومتعلقها الإخلاص. وهذه هي التي اشتق للمريد منها اسمه عندهم، لأنه المجرد عن إرادته لما أراد الله منه وهو العبادة، قال تعالى «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون». ويطلق عندهم على شخصين، واحد من سلك الطريق بمكابدة ومشاق، ولم تصرفه تلك المشاق عن طرييقة، والآخر من تنفذ إرادته في الأشياء، وهذا هو المتحقق بالإرادة. هذا تعريف الشيخ العلامة ماء العينين بن الشيخ سيدي محمد فاضل صاحب كتاب «البدايات وتوصيف النهايات»

إن أول ما يجب على المريد بعد انتباهه من غفلته أن يعمد إلى شيخ ينصحه ومرشد يهذبه ويبصره بعيوب نفسه ودواعي حسه، ومن لم يكن له شيخ يقوده إلى طريق الهدى، فإن الشيطان يقوده لا محالة إلى الردى.

والمبتدىء ربما يكون غير مستقر على حال في الاختيار، وفي هذه الحال لايستغني عن الشيخ الذي يجعله في البدء غير مستقل بالاختيار حسب الشروط المتعلقة بالعبادة وطبق تعاليم الشيخ التي أخذها بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو الداعي إلى الله عز وجل. وما الشيخ إلا نائب عنه. ولو فرضنا أن للمريد اختيار نحو الولاية، فإنه ليس في وسعه الثبات، إذ اختياره لطريق يعرضه لهزات فيجعله بعد وقت يعدل عن الأولى نحو الثانية، والثانية نحو الثالثة، فيزين له الشيطان هذه عن تلك، فيبقى في دوامة النفس وحبل الشيطان، حتى تسكن حرارته ويتقهقر نحو الولاء. بينما لو كان تحت كنف الشيخ حفظ أحواله بقوة ولايته المشتقة من نور النبي صلى الله عليه وسلم، فحينذاك لم يبق سلطان النفس وكيد الشيطان.

والمريد ينبغي له أن يسلم نفسه لخدمة شيخه، صدوقا في صحبته، غير مفارق له، صبورا على أمره ونهيه، مجالسا له وقت الملالة والكلالة، بل في كل وقت وحين حتى لو فتحت له غوامض الأسرار والكرامات، فلربما قد يحصل له إعجاب بذلك وغرور باعتقاد الكمال، فيتصدى له الشيخ بانتشاله وإنقاذه من بعض التألبات الروحانية التي تلتبس بالتجليات الروحانية، فيظن المريد أنه قد وصل القصد، وفي هذا الحال لا يميز ذلك إلا الشيخ الواصل.

لذلك يجب على المريـد أن يعتصم بشيخه ويتمسك يه تمسك الأعمى. بحيث يفوض أمـره إليه مقتديـا بالحديث الشريف «أصحابي كـالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتـم» فلا ينازعه في أمـر، يصحبه باحترام وتعظيم، يبين له كل ما يراه من حال وخواطر، غير معترض، جاعلا نصب عينيه أن الخير في الانقياد، وأن الشر في الانتقاد، والمريد بطاعته هاته يقتبس من الشيخ كما يقتبس السراج من السراج، فالشيخ يقوم بتلقيح بـاطن المريد، فينتقل الحال منه إليه، ويحصل بينهما امتـزاج وتأليف إلى أن يرتقي إلى ترك الاختيار معـه إلى الاختيار مع كله. ومن هلاك المريد اختبـاره لشيخه، فالشيخ لا يختبر، وإنما يعالج الأمراض النفسية ويجد لها الدواء المناسب، فعلى المريد أن لا يفارقه قبل انفطامه وإلا نال العلل الموجبة لرجوعه إلى أكدار الدنيا، إن تصاريف الشيخ للمريد محمولة على السداد والصلاح، فلا نقاش ولا اعتراض، مثل ذلك مثل الخضر مع مـوسى عليهما السـلام، ولعل المريد يصل إلى مقـام أعلى من شيخه فإن ذلك يلزمه المهابة والتعظيم والاحترام الزائد والفائق نحوه، وأن يحترمه في أوقات ضروررياته، ولا يتتبعه في أموره العاديـة من أكل ونوم وسفر، وأن لا يؤاخذه في صور مذمومـة في الظاهر محمودة في الباطن، وأن يكتم مـا أسر به إليه من أسرار إلهيـة، ولا يتشوف إلى منزلة فـوق منزلته، قـال صلى الله عليه وسلم «أمتي أمة مباركة، لأيدرى أولها خير أو آخرها.»

الإشارة إلى المقامات

يقول الإمـام الغزالي في الجزء الخامس من كتابـه «إحياء علـوم الدين» : التوبـة أصل كل مقام، وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال، وهي أول المقـامات، وهي بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا أبناء له، ومن لا تـوبة له لا حال له ولا مقام لـه، وإني بمبلغ علمي وقدر وسعي وجهدي اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها، فرأيتها بجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطة، فصار مع الإيمان أربعة، ثم رأيتها في إفادة الولاية المعنوية الحقيقيـة بمثابة الطبائع الأربع التي جعلها الله بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية، ومن تحقق بحقائق هذه الأربع بلج ملكوت السموات ويكاشف بالقدر والآيـات، ويصير له ذوق وفهـم لكلمات الله تعـالى المنـزلات، ويحظى بجميع الأحـوال والمقامـات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها نهايات وتأكدات، فأحـد الثلاث بعد الإيمان : التوبة النصوح، والثاني : الزهد في الدنيا، والثالث : تحقيق مقام العبـودية بدوام العمل لله ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبيـة والقالبيـة من غير فتـور وقصور، ثم يستعـان على إتمام هذه الأربعـة بأربعـة أخرى بها تمامهـا وقوامها، وهي : قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الناس. واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على هـذه الأربع بها تستقر المقامـات وتستقيم الأحوال، وبها صـار الأبدال بتأييد اللـه تعالى وحسن تـوفيقة. ونبين بـالبيـان الواضح أن السـائر ينـدرج في صحة هـذه، ومن ظفـر بها فقد ظفـر بالمقـامات كلها، أولها بعـد الإيمان : التوبة، وهـي في مبدإ صحتها تفتقـر إلى أحوال ، وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال، ولابد في ابتدائها من وجود الـزاجر حال ، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب، وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها».

يقول الجنيـد : من حسنت رعايتـه دامت ولايته، ومـا الخواطر إلا مقـدمات العـزائم، والعزائم مقدمات الأعمال، فبالخواطر تتحقق إرادة القلب، والقلب أمير الجوارح لا تترك إلا به.

قال أبو عثمان المغربي : «أفضل ما يلزم الإنسان في هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم، وإذا صحت التوبة صحت الإنابة» والمنيب هو الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله، والذي لا يـزن نفسه بميـزان الصدق فيما لـه وعليه لا يبلغ مبلـغ الرجال، ورؤيـة عيوب الأفعـال من ضرورة صحة الإنابـة، وذلك في تحقيق مقام التوبة، والتـوبة لا تستقيم إلا بالمجاهـدة، والمجاهدة لا تستقيم إلا بـالصبر. قال صلى الله عليـه وسلم «المجـاهد من جـاهد نفسه» أمـا الصبر فهو مـن أعز

مقامات الموقنين ، وهو داخل في حقيقة التوبة ، ذكره الله في القرآن أزيد من تسعين موضعا ، وصحة التوبة تحتوي على مقام الصبر. أما حال الزهد فهو ثالث الأربعة من مقام التوبة ، والنفس بحال هذه الأحوال تصل إلى الطمأنينة ، فتبلغ طمأنينتها حال الرضا ، وبوصولها حال الرضا تكون قد وصلت إلى طمأنينة مجاري الأقدار. قال صلى الله عليه وسلم «من خير ما أعطى الرجل ، الرضا بما قسم الله تعالى له» . فالرضا هو ثمرة التوبة النصوح : ثم أن الخوف والرجاء مقامان من مقامات أهل اليقين ، وهما من صلب التوبة النصوح ، فالخوف سبيل التوبة ، والرجاء سبيل الخوف ، وهما ملازمان لقلب المؤمن التائه ، وهما يدفعان إلى الشكر. فإذا وصل مقام التوبة لما أسلفناه ، فإنه يكون قد جمع حال الزجر ، وحال الانتباه والتيقظ ومخالفة النفس والتقوى والمجاهدة ورؤية عيوب الأفعال والإنابة والصبر والرضا والمحاسبة والمراقبة والرعاية والشكر والخوف والرجاء ؛ فتنجلي مرآة القلب وتنكشف مساويء الدنيا ، فيحصل الزهد ، وفي الزهد يتحقق التوكل ، وبهذا يستدرج التائب نحو تحقيق المقامات كلها . قال تعالى «إنا جعلنا على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» . قيل الزهد في الدنيا . وعن عبد الله بن بريدة قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فبدأ بفاطمة رضي الله عنها ، فرآها قد أحدثت في القيت سترا وزوائد في يديها ، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل ، ثم جلس فجعل ينكت في الأرض ويقول : « مالي والدنيا ، مالي في الدنيا «فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل ذلك الستر والزوائد ، وأرسلت بهما مع بلال وقالت له : إذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقل له : قد تصدقت به ، فضعه حيث شئت ، فأتى بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم «بأبي وأمي قد فعلت ، بأبي وأمي قد فعلت ! اذهب فبعه» .

والتائب يرتقي إلى المراقبة فيستقيم في توبته حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا ، بعدها يرتقي من تطهير الجوارح عن المعاصي إلى تطهير الجوارح عما لا يعني . بحيث لا يسمح بكلمة فضول أو حركتها ، منها ينتقل إلى الرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن ، فتستولي المراقبة على الباطن ، فتمحي خواطر المعصية عن باطنه ، حتى إذا ما تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح . قال تعالى مخاطبا رسوله «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك» . فكان الأمر بالاستقامة له ولمن اتبعه .

والتائب في النادر إذا ابتلى بذنب انمحى أثره من باطنه حينا لوحود الندم في باطنه .

قال يحي بن معاذ الرازي : مادام العبد يتعرف ، يقال له لا تختر ، ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفا يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر ، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت ، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار ، فإنك بنا في الاختيار وفي ترك الاختيار» . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأهلك ، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع ، اكلأني كلاءة الوليد ، ولا تخل عني» .

الأحوال والمقامات

قال الجنيد «الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم» وقيل، هو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار.

وهو من طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات كالمقامات.

أما المقام فهو كما قال الطوسي «مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقال فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات والانقطاع إلى الله عز وجل». قال تعالى: «ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد» وقال عز وجل «وما منا إلا له مقام معلوم» قال الواسطي في قوله صلى الله عليه وسلم «الأرواح جنود مجندة... الحديث...» مجندة على قدر المقامات، والمقامات مثل التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل.. إلى غير ذلك.

إن أول مقام لدى المنقطعين إلى الله عز وجل مقام التوبة، وفيها يقول الطوسي في كتابه «اللمع في التصوف» يقول ذو النون رحمه الله عن التوبة» توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة، فإن لسان أهل المعرفة والواجدين وخصوص الخصوص في معنى التوبة فهو ما قاله أبو الحسن النوري رحمه الله حين سُئل عن التوبة. فقال: التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عز وجل. وإلى هذا أشار إلى الذي أشار بقوله ذنوب المقربين حسنات الأبرار ـ وهو ذو النون، والذي قال أيضا، رياء العارفين إخلاص المريدين، لأن الذي كان يتقرب به العارف إلى الله عز وجل في وقت قصده وابتدائه وتعرضه من القربات والطاعات، فلما تمكن وتحقق بذلك وشملته أنوار الهداية وأتته العناية وحوته الرعاية وشاهد ما شاهده بقلبه من عظمة سيده والتفكر في صنع صانع صانعه وقديم إحسانه، تاب عن الملاحظة والسكون والالتفات إلى ما كان من طاعته وأعماله وقرباته في حين إرادته وبداياته، فشتان بين تائب وتائب، فتائب يتوب من الذنوب والسيئات، وتائب يتوب من الزلل والغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات. والتوبة تقتضي الورع.

أما الورع فهو مقام شريف كما قال صلى الله عليه وسلم «ملاك دينكم الورع» وهو ثلاث طبقات: تورع عن الشبهات، وهي ما بين الحرام البين والحلال البين. وتورع عما يقف عنه القلب ويحيك في الصدر، وهذا يعرفه أرباب القلوب والمتحققون. وورع العارفين الواجدين. وهو عدم تشتت القلب عن الله عز وجل طرفه عين. والورع بطبيعة الحال يقتضي الزهد.

والزهـد مقام شريف يعتبر أساس الأحـوال والمراتب، وهو أول خطوة لـزمرة القاصـدين إلى الله والراضين المتوكلين.

إن الزهـد هو رأس الخير والطـاعة، وهـو في الحلال أبلغ وأنفع، أما في الحرام وكل شبهـة فتركه واجب.

والزهاد ثلاث طبقات، مبتدئون، وهم من خلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم.

ومتحققون، وهم من يتركون حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، لما في ذلك من راحة ومحمدة.

وعارفون، وهم مشتغلون بالله لا يلتفتون للدنيا مطلقا.

والزهد يقتضي عناق الفقر.

ومقام الفقر الصادق هو كما سئل عنه أبو عبد الله بن الجلاء عن حقيقته فقال: هو أن لا يكون لك، فإذا كـان لك لا يكون لك، ومن حيث لم يكن لك لم يكن لك ومقـام الفقر مقـام الصديقين، وهو يقتضي الصبر.

والصبر مقام شريـف، ذكره الله عـز وجل في كتابـه «إنما يوفى الصابرون أجـرهم بغير حساب» والصبر ثلاثة. متصبر وصابر وصبار.

فالمتصبر من صبر في الله مرة على المكاره ومرة يعجز.

والصابر من صبر في الله ولله، لا يجزع ولا يتمكن منه الجزع ويتوقع منه الشكوى.

والصابر من صبره في الله ولله وبالله، لو وقعت عليه جميع البلايـا لم تعجزه ولا غيرت أو نالت من حاله. والصبر يقتضي التوكل.

ومقام التوكل مقرون بالإيمان بدليل قوله عز وجل «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مومنين، وقوله تعالى « وعلى الله فليتوكل المومنون».

والمتوكلون طبقات ثلاث: توكل المؤمنين، وهو كما قال أبو تراب النخشي حين سئل عن التوكل فقال: طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والاطمئنانية إلى الكفاية، فإن أعطي شكر، وإن منع صبر، راضيا موافقا للقدر.

وتوكل أهل الخصوص، وهو كما قال أبو يعقوب النهر جوري: التوكل موت النفس عند ذهاب حظوظها من أسباب الدنيا والآخرة.

أما توكل أهل خصـوص الخصوص، فهو كما قال الشبلي: أن تكون للـه كما لم تكن ويكون الله تعالى لك كما لم يزل. والتوكل يقتضي الرضا.

ومقام الرضا يصدق عليه قوله الله عز وجل «رضي الله عنهم ورضوا عنه» فيه يسكن قلب العبد تحت حكم الله. وأهـل الرضا في الـرضا ثـلاثة أحـوال. من يعمل في إسقاط الخوف متى يكـون قلبه مستويا لله فيما يجري عليه من حكم الله من شدائد ومكاره وراحات ومنع وعطاء.

من يـذهب عن رؤيـة رضاه عن اللـه بـرؤية رضـا اللـه عنه رغم استـواء الشـدة والمنع والرخـاء والعطاء .

من يجاوز هذا ويذهب عن رؤية رضا الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله لخلقه من الرضا .

والرضا آخر المقامات، وهو باب الله الأعظم وجنة الدنيا .

وقد نعود إلى أحوال أهل القلوب وتهذيب أسرارهم وصفـاء أذكارهم ، ذلك أن أول حال من هذه الأحوال هو حال المراقبة .

وهو ثلاثة : حال ابتداء المراقبة ، وحال مـراقبة الحق في فناء ما دون الحق ، وحال النجباء الذين يراقبون الله ويسألونه أن يرعاهم ويتولى أمرهم ، كما قال عز وجل «وهو يتولى الصالحين» .

والمراقبة تقتضي حـال القرب ، قال تعالى « وإذا سألك عبـادي عني فإني قريب» والقرب ثـلاثة أحوال . حال المقربين إليه عزوجل بأنواع الطـاعات . وحال من تحقق بذلك ، وحال أهل النهايات ، والقرب يقتضيي حال المحبة وحال الخوف .

والمحبـة واضحة في قـوله تعـالى «قل إن كنتم تحبون اللـه فاتبعـوني يحبكم الله» . وأهلهـا ثلاثـة أحوال . حال محبة العامة ، وتتولد عن إحسان الله إليهم ، وشرطها الود مع دوام الذكر، لأنه من أحب شيئا أكثر من ذكره .

وحال حب الصادقين المتحققين ، وهي تتولد من نظر القلب إلى جلال وعظمة الله عزوجل وإلى علمه وقدرتـه . وشرطها هتك الأستار وكشف الأسرار. وحال حب الصديقين والعـارفين ، وهي تتولد من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله بلا علة .

أما حالالخوف الذي قرن بالمحبة فإن حـال القرب يقتضي أحد الحالين ، إما غلبة المحبة على قلبه من كشوفات ومشاهدات .

والخوف ثلاثة أوجه : خوف العامة ، وفيه قوله تعالى «يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار» . وخوف الأوساط . وفيه قوله تعالى «ولمن خاف مقام ربه جنتان» . وخوف الأجلة . وفيه قوله تعالى «فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين» ، وقد نجد الرجاء مقرونا بالخوف .

وحال الرجاء يصدق عليه قول الله عز وجل «لقـد كان في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» وقولـه تعالى «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صـالحا» . إن الرجاء ترويح من الله لأهل الخوف وإلا أصيبوا بذهول ، وهو ثلاثة أقسام : رجاء في الله ، ورجاء في سعة رحمته ، ورجاء في ثوابه عز وجل والرجاء والمحبة يقتضيان الشوق .

وحـال الشوق كما قـال بعضهم ، نار اللـه تعـالى أشعلها في قلـوب أوليائه حتى يحرق بها مـا في قلوبهم من الخواطـر والإرادات والعوارض والحاجيات ، وهو ثـلاثة أحوال . حال من اشتـاق إلى وعد الله لأوليائه من ثواب وكـرامة ورضوان ، وحال من اشتاق إلى محبوبه من شـدة محبته إلى لقائه . وحال من شاهد قرب سيده أنه حاضر معه لا يغيب . والشوق يقتضي الأنس .

وحال الأنس اعتماد على السكون لله والاستعانة به، وهو ثلاثة أحوال : أنس بالذكر والطاعة، وأنس بالله عز وجل فيستوحش العبد مما سواه ؛ وذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس.

والأنس يقتضي الطمأنينة.

وحال الطمأنينة سكون قلب العبد إلى مولاه. وفيها قوله تعالى «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب» فيها يرجح العقل فيقوى الإيمان ويصفو الذكر وتثبت الحقيقة، وهي ثلاثة : ذكر العامة فيطمئنون إلى ذكرهم لله عز وجل من إجابة الدعوات. ذكر الخصوص، وقد رضوا بقضاء الله وصبروا على البلايا وأخصوا وسكنوا واطمأنوا. وذكر خصوص الخصوص الذين أدركوا أن سرائرهم لا تقدر على طمأنينتها هيبة وتعظيما لباريها، إذ ليس له غاية تدرك. والطمأنينة تقتضي المشاهدة.

وحال المشاهدة يتلاشى أمامه كل شيء، ولم يبق في القلب إلا الله عز وجل، وهي وصل بين رؤية القلب ورؤية العين. وهي ثلاثة أحوال : الأول منها للأصاغر وهم المريدون. والثاني للأواسط، وهم الذين إذا وقعت مشاهدتهم فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سرهم غير الله. والثالث للعارفين الذين شاهدوا الحق ظاهرا وباطنا وأولا وآخرا، كما قال عز وجل «هو الأول والآخر والظاهر والباطن. وهو بكل شيء عليم». والمشاهدة تقتضي حال اليقين. وحال اليقين هو المكاشفة، وهو حال رفيع، ينقسم إلى ثلاثة أحوال :

حال الأصاغر وهم المريدون والعموم، وحال الخصوص وهو المشاهد مع الترحل من يقين إلى يقين حتى يصير اليقين وطنا. وحال الأكابر، وهم خصوص الخصوص وعندهم اليقين في جملته تحقيق الإثبات لله عز وجل بكل صفاته، وقطع كل سبب بينهم وبين الله تعالى من العرش إلى الثرى حتى يكون مرادهم الله لا غير.

واليقين أصل جميع الأحوال وإليه تنتهي، والأحوال جميعها ظاهره وهو باطنها، نهايته التصديق بالغيب، وحلاوة المناجاة وصفاء النظر إلى الله عز وجل. قال تعالى : «وفي الأرض آيات للموقنين».

مقام الحيرة

الحيرة مقام مر منه تقريبا جميع العارفين، بل مر منه حتى بعض الأنبياء ومن اصطفاهم الله إليه، وهو طريق العبور نحو الاطمئنان والوصول إلى معرفة الله ومحبته الرسخة عن طريق المكابدة والتخبط. قال تعالى: «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الظالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون» هذا مقام الحيرة عند سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومحمد صلى الله عليه وسلم فوجىء في غار حراء بجبريل عليه السلام، ففزع وخاف على نفسه فسارع إلى خديجة رضي الله عنها وأبلغها الخبر فأرسلت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ولما حضر طمأنه على حاله وأخبره أن ذلك سبيل الأنبياء، حيث يفاجئون بالحقيقة فلا يدرون في البداية هل هم في حقيقة أم في منام أو أوهام، بعدها تتبين لهم شمس الحقيقة وتنكشف لهم الأستار.

ثم نأخذ الإمام الغزالي كمثال آخر عن مقام الحيرة إذ نورد قوله من كتابه المنقذ من الضلال «في مدخل السفسطة ـ أي المغالطة ـ حيث يقول: «ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات. فقلت: الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات، وهي الحسيات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟ فانتهى بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول: من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك، دفعة بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار الدينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار، وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل وخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في شيء والواحد لا يكون حادثا قديما: موجودا معدوما، واجبا محالا. فقلت المحسوسات بيا تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر إذا تجلى كذب العقل في

حكمـه، كما تجلى حـاكم العقل فكـذب الحس في حكمه، وعـدم تجلي ذلك الإدراك. لا يـدل على استحالته، فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا وأيدت إشكالها بالمنام وقالت: أما تراك تعقد في النوم أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقـد لها ثباتا واستقرارا ولا تشك في تلك الحالـة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؟ تـأمن أن يكون جميع ما تعتقدي في يقظتك بحس أو غفل هو حق، بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيهـا، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها!

فإذا وردت تلك الحالـة تيقنت أن جميع ما تـوهمت بعقلك خيالات لا حـاصل لها، ولعل تلك الحالة مـا تدعيه الصوفيـة أنها حالتهم، إذ يزعمـون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غـاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم، أحوالا لا تـوافق هذه المعقولات، ولعل تلك الحالة هي الموت، إذ قال رسول الله صلى اللـه عليه وسلم «الناس نيام فـإذا ماتوا انتبهوا» فلعل الحيـاة الدنيا نوم بـالإضافة إلى الآخرة فإذا مات ظهرت لـه الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقـال له عند ذلك «فكشفنا عنك غطـاءك فبصرك اليوم حـديد» فلما خطـرت لي هذه الخواطـر وانقـدحت في النفس، حاولت لـذلك علاجا، فلم يتيسر إذ لم يكن دفعه إلا بـدليل، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمـة لم يمكن ترتيب الـدليل، فإعضل هـذا الدواء ودام قـريبـا من شهرين أنـافيهما على مـذهب السفسطـة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقـال، حتى شفى اللـه تعـالى من ذلك المرض، وعـادت النفس إلى الصحة والاعتـدال، ورجعت الضروريـات العقليـة مقبولـة مـوثوقـا بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنـور قذفه الله تعالى في الصـدر، وذلك النور هو مفتـاح أكثر المعـارف، فمن ظن أن الكشف مـوقـوف على الأدلة المحـررة فقـد ضيق رحمة الله تعـالى الواسعة، ولما سئل رسول الله عليه السلام عن «الشرح» ومعنـاه في قوله تعالى «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» فقـال: «هو نور يقذفه الله تعالى في القلب» فقيل: «ومـا علامته»؟ فقال: «التجافي عن دار الغـرور، والإنابة إلى دار الخلود» وهو الـذي قال عليه السلام: «إن اللـه تعالى خلق الخلق في ظلمـة ثم رش عليهـم من نـوره» فمن ذلك النـور ينبغي أن يطلـب الكشف، وذلك النـور ينجبس من الجود الإلهي في بعض الأحـايين، ويجب الترصد له كما قـال عليه السـلام «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها».

مقام السالكين

السالكون للمقامات ثلاثة :

من وصلوا إليها عن طريق الحس والخيال ولم يجاوزوهما

من وصلوا إليها عن طريقق الحس والعقل .

من ووصلـوا إليها عن طـريق العقل ، فيتجـاوزون ما قبلـه . والقسـم الأول مـوضوع محبتهم عـالم الأجسام وحسن صـورها وأشكالها ، ولا تجاوز محبتهم علـم الخيال الباطن ، إذ يعقل أربـابها عوارض الجسم دون المعـاني التي هي أرواح الأجسـام ، فيخيل لهم الوهـم أن عين الجمال المطلـوب هـو حسن الهيئة ، فتجد ذلك أسرع زوالا وأقل غنى في الآخرة ، وذلك ما يجري عليه قوله عز وجل «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عـدو إلا المتقين» وما أشبـه ذلك بهذه الحكايـة ؛ ذلك أن بعض العارفين رأى رجـلا يبكي على قبر، فسأله عن بكائه ، فأجاب : إن صاحب هذا القبر كان لي محبوبا ، فلما مات لم أستطع عنه صبرا ، فقال لـه العارف : ياهذا ، أنت ظلمت نفسك حين أحببت من يمـوت ، لو أنك أحببت من لا يموت لم تتعذب بفراقه . والقسم الثـاني ممن وصلوا عن طريق الحس والعقل ، هـم الأكثر من خواص السالكين ، وهـم يجردون الصـورة الجسمية من عوارضها وينقلـونها إلى روح معانيها للنفس فتلتذ بها لما حصل فيها من هذه الصورة الروحانية ، بعدها تطلب كمال المعنى الذي أدركته من محبوبها من الخارج عن طـريـق البصر، وهـذه المحبـة وسط بين الطـرفين ، فهي شريفـة من حيث حصـول حقائقهـا في النفس ، غير أنها ناقصـة من حيث أنها متعلقة بشخص معين مقصورة عليـه تزيـد لذتها بحضوره وتنقص بغيابـه ، وقد تترقى هذه المحبة إلى مـا هو أعلى من أمده الله بتـوفيقه ، بحيث يدرك بأن صورة المحبوب الحقيقيـة ما هي إلا الصورة التي حصلت عنده منـه ، بحكم أن رسوم الجسم أمور عارضة عـرضت لتلك الصورة ، وأنه لو فارقتهـا الصورة لما كانت شيئا . فإن تصـور هذا تعلق بالمعنى الذي استغنى به عن الأمور العرضية إلى أن تنطبع هذه الصـورة المجردة في نفسه وتمتزج بها مزجا عشقيا فتلطف النفس وتستنير، وتقبل عليهـا الأنـوار العلويـة وتبصر الصـور الروحـانيـة في ذاتها ، فتتعلق بالأشرف نحو الأشراف إلى أن تبلغ ما قدره الله لها .

وأما القسـم الثالث والأخير، هـم من وصلوا عن طريق العقل ، وهم الذين لاحظوا الجمال القدسي المتجلى لنفـوسهم من العـالم النـوراني فـانطبع انطبـاع صــورة الشمس فتكيفت النفس بـذلك النـور

وتجوهرت بـه ، فأبصرت ذاتها النوريـة وما بها من آثار العـالم النوراني ، فأحبتهـا من جهة أنها هي ذلك النور القدسي . وهذا مقام المقربين من عباد اللـه الصـالحين العارفين ، وهذا المقام لا يصله إلا أرباب الرياضات القلبية المقرونة بالإعـانة الربانية ، فإن حصلت لا يخشى زوالها ، وفي ذلك قوله تعلى «يحبهم ويحبونه» .

والصفات الواردة من المحبـوب لا تنحصر، إذ هي تتعاقب على السـاعـات وتختلف باختـلاف الحالات ، إلا أنها على الجملة ثلاث : جمال وجلال وكمال .

فالانبسـاط والأنس يوجب الجمال ، والفنـاء والمحـو يوجب الجلال ، والشـوق والحب يـوجب الكمال .

وللسالك شروط ، إذ أنه لا يزال يرتقي على الدوام ولا يقف مهما شاهـد من محبوبه ما شاهد وإلا حجب بها من الزيادة ، ولا يـزال يتطور إلى مراتب الكمال طورا بعد طور، فهـو كلما أدرك حالة جليلة استحد عندها إلى حالة أكمل منها إلى أن تصل حالة الذهول والدهش ، عندما تذهل النفس عن عالم الحس وهو بدنها فتصير علوية ، همها الصعود والارتقاء والرفض لما سوى محبوبها ، وهذا مقام الحرية ، إذ يكون فيه العبد المحب هو الفقير مطلقا ، والمحبوب هو الغني مطلقا .

وقل من السـالكين أصحـاب التمكين ، التمكن من دوام المشـاهـدة بـاستمـرار إلا بعـد فـراق الأجسام ، إما بالموت الحسي . وهـو الأكثر شيوعا . وكما في حال الحياة عنـد الانسلاخ عن قوى البدن والتجرد بالكلية ـ وهو نادر ـ ومثل هذا قد استوفت شروطه في الرسل ، مثل قوله تعالى في الرسول صلى الله عليه وسلم «ما كذب الفؤاد ما رأى» لأنه كان أتم مقاما وأكمل . وهو كما قيل عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يضرب بيده على فخذ عائشة ويقول «كلميني يا حميرا» لكي يستتر عنه بعض ما كوشف به من صفـات الجلال الموجبة لطمس الذات ، فينـزل إلى المحسوسات التي هي محل الـرحمة إبقاء على الرسالة في حق أمته . وقيل عن الشبلي أنهم دخلوا عليه يوما فوجدوه ينتف لحمه بمنقاش ، فسئل عن ذلك فقال : الحقيقة ظاهرة لي ولست آطيقها ، فأنا أدخل الألم على نفسي لعلي أحس به فتستتر عني ، فلا أنا أجد الألم ولا هي تستتر عني .

إن أنوار التجلي تمحق رسوم الـذوات مثل ما تمحق أنـوار الشمس أبصار الخفـافيش فإذا استترت تلك الأنوار عادت الذوات ، وإن ظهرت تلاشت .

وعلى أي حال ، فإن من قويت روحانيته بما يرد عليه من أنوار يضعف هيكله الجسمي لكون ما يكشف له من صورة روحانية هي أعظم ما يطيقه جسمـه ، لذلك يوجد صاحب هذا المقام إما قصير العمـر أو ضعيف البنية . وأمـا الذي لا تكـون له ريـاضة قلبيـة فإنـه يذهل عقلـه ويفر عن النـاس كالمجنون إذ لم تهذبه رياضته .

وهناك من رده الله عن هذا المقام إلى العـالم الأسفل بحكم انتفاع الأمة به لما يـدعوهم إلى طريق اللـه ويفيض عليهم من أنوار المعـارف ما يكـون لهم سلما ، كالأنبيـاء والعلماء ، فإن هؤلاء رزقـوا من التمكين في الأحوال والقوة في المقامات ما يجعلهم يصعدون إلى أعلى المقامات ثم ينزلون إلى أسفل دون كلفة .

مقــام المعرفــة

يقول أبو القاسم الجنيد في تعريف المعرفة، المعرفة عندهم صفة من عرف الحق بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله في معاملاته، ثم تنقى من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه، فحظي من الله بجميل إقباله، وصدق اللـه في جميع أحواله، وقطع عنه هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خـاطر يدعـوه إلى غيره، فإذا صار عن الخلق أجنبيـا، ومن آفاق نفسه بـريئا، ومن المساكنات والملاحظات نقيا، وداوم في السر مع الله مناجاته، وحقق في كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثا من قبل الحق بتعريف أسراره مما يجويه من تصـاريف أقداره : تسمى عند ذلك عارفا، وتسمى حالته معرفة .

ويقول ذو النون، حقيقة المعرفة إطلاع الحق على الأسرار، بمواصلة لطائف الأنوار.

وسئل الشبلي عن المعرفة فقال : أولها الله وآخرها مالا نهاية له .

وقيل : المعرفة وراثة النبوة، والعارف أنموذج مختصر من النبي صلى الله عليه وسلم .

والمعرفة حياة القلب، يحييه الله بها قال تعالى : «أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس» .

والمعرفة لها شروط وعلامات كما قال الشبلي : بداتها حيرة ونهايتهـا دهشة، كالطفل أوله طفولة، ثم يرد إلى علم، ثم يـرد إلى جهل . وقال الدقـاق : من أمارات المعرفة بـالله حصول الهيبـة من الله، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته، قال تعالى «إنما يخشى الله من عباده العلماء» .

سئل الحسن عن المعرفـة بالله هل هي كسب أم ضرورة فقال : رأيت الأشيـاء تدرك بشيئين، فما كان منها حـاضرا فبحس، أو غائبا فبدليـل، ولما كان الله غير باد لصفـاتنا وحواسنا، كانـت معرفته بالـدليل والفحص والاستدلال، إذ كنا لا نعلم الغائب إلا بـدليل، والحاضر إلا بحسن . وقال : إن شئت ترتيب المعرفـة على المقامات ببيان أقرب، فـاعلم أن المعرفة المرتبة الأولى، وهي مـرتبة الإسلام . وهي معرفة أصل الجسوم، ومعرفتهم هي الإقرار بأن الـرب موجود، وأنه الخالق المعبود، وقربهم قرب ثواب .

وفي المرتبة الثانيـة، وهي مرتبة الإيمان، معرفة أهل النفوس، ومعـرفتهم أن يسلبوا عن معبودهم نقائص الكون، وقربهم قرب اليقين .

والمرتبة الثالثة، مرتبة الإحسان، وهي معرفة ذوي العقول القدسية، ومعرفتهم أن يشهدوا معرفتهم في جميع المتفرقات كلها شيئا واحدا.

قال رويم البغدادي : العارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه.

وقال الشبلي : للخلق أحوال، ولا حال للعارف، لأنه محيت آثاره ورسومه، وفنيت هويته بهوية غيره، وغيبت آثاره بآثار غيره، والله أعلم.

والعارف كما قال النصر أباذي : الزاهد غريب في الدنيا. والعارف غريب في الجنة، لأن تاركي الدنيا قليلون فهم غرباء، وكذلك أهل الجنة قنعوا بنعيمها، والعارفون تعلقت هممهم بالحق، فلم يشغلهم عنه نعيمها فهم فيها غرباء.

قال الحلاج : علامة العارف أن يكون فارغا من الدنيا والآخرة.

ويقول الوزير لسان الدين بن الخطيب في كتابه «روضة التعريف بالحب الشريف» في فصله الرابع تحت عنوان «في علوم العارف».

«وعلوم العارف على ضربين، إجمال وتفصيل.

فالإجمال من حيث هو، قد آتاه الله الحكمة «ومن يؤت الكمة فقد أوتي خيرا كثيرا» أن يعرف جوهر نفسه، وكيف تصير عاقلا بالفعل، وتتخلص من كدرات الطبيعة، وتتجرد عن جميع العلائق القاطعة عن السبب الأول، ويكمل جوهرها كما تحب، فيستقيم معراجها إلى الأول، ولا يمتنع عن سروره وفرحه في وقت من الأوقات، ولا يعجز عن شيء يريده ويتمم غيره، ويخلص الفطر الناقصة بعلم أجل وأعلى من العلوم المكتسبة والنظرية والأعمال البدنية والتخلف على ما ينبغي، وهذه النفس لا تحتاج في سعادتها وتتميمها إلى غيرها من النفوس الجزئية. وجميع النفوس الجزئية محتاجة إليها وآخذة منها وتابعة لها، وهو إذا استكمل بأكثر هذه الخواص، فمن حيث هو وارث فإن وظيفة الحكم أن يعلم النفس وعللها، ولا يترك شيئا من الصنائع العلمية والعملية التي تعطي تدبير الإنسان إلا نظر فيه وحصله واتصف به، ثم حمل نفسه من المشقات التي تحصل باكتساب الصنائع المذكورة بها وبالصبر عليها وتمرن وبحث عن الحقائق الموجودات، ووقف على ماهيتها، وفكر في الأول الحق، ونظر في الذي يجب عليه ويجوز ويستحيل، وطلب القرب منه. والوصول إلى المبدع الأول بالعلم لا بالتجوهر، واستقام وبلغ كمال الإنسانية وخلص العلم بنفسه وعقله إلى حيث ينبغي وبقدر ما ينبغي.

والتفصيل حيث الوراثة أن يعلم حسبما يعتقده أهل هذا الفن أن موروثه الذي لا ينطق عن الهوى قد بلغ كل ما أمر به في تجلياته وإسراءاته وتنزيلاته، ورأى من آيات ربه الكبرى، وعلم تصريحا كل ذي همة باعثة، وإشارة لكل ذي نفس مستشرقة، ورمزا لكل ذي عقل مصيب. ففهم كل على قدر ما رزق، فكان رجال الشريعة من بعده أربعة.

أولها : عامي يختص به من علومها ظاهر، يقال له علم الرسوم، وعلم التفسير ـ أي تفسير الحدود الظاهرة ـ ويكشف عن الحلال والحرام، وهذا العلم ينبغي تعلمه وتعليمه وإشاعته، وهو لا يدرك إلا بالتعلم والدراسة، ويزيد وينقص. وعلم الرسوم، وهو علم محفوظ مسموع من لسان الشارع صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام.

وثانيها خاص : يختص به من علومها علم باطنها بشرط تحصيل علم ظاهرها، ويسمى علم الباطن، وعلم التأويل ـ أي تأويل ما تضمنه الرسم من المعنى، وتحقيق ما انطوى عليه من الفوائد، ويسمى بالحكمة، وهو الاطلاع على حقيقة المراد من الرسم، وهذا العلم كثير لا يوصف بقلة، فإنه بحر، ولا يدرك هذا العلم بدرس ولا تعليم، وهذا العلم إنما يدرك بهداية الله، والتعرض لهذه الهداية يتعين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها» وهذا التعرض لا يكون إلا بطهارة الظاهر والباطن، وأداء الحقوق الشرعية. وامتثال الأوامر، والتقرب إلى الله بالنوافل، يتقرب بها العبد حتى يحبه، ويقيد هذا العلم بالعلم الإيماني، فهو علم الإيمان، ومن لم يحصل عليه فقد فاته خير كثير نتيجة للتقوى.

وثالثها : خاصة الخاصة، ويختص به من علوم الشريعة علم الحمد، متضمنا التحصيل ما تقدم، قال صلى الله عليه وسلم «لكل من كتاب الله ظاهر وباطن وحد ومطلع» في رواية «لكل كلمة ولكل حرف» وهو علم الإلهام، والعلم اللدني، والموهبي، والإلاهي، وهذا فضل من الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. ويحتوي على معان لا يقدر أن يعبر عنها من اطلع عليها، إنما هو استشراف واطلاع على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهو بحر يوصف بطول ولا عمق، ولا عرض ولا نقطة ولاحظ، إنما هو ذوق تتلون لذاته في الطعمة الواحدة إلى ما لا ينحصر عدده، ولا ينتهي أمده، وهو علم النبوة ؛ وحملته هم الذين عناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» قالوا : وهذا العلم هو الذي لا يجوز كشفه ولا إذاعته ولا ادعاؤه، ومن كشفه وأذاعه وجب قتله واستحل دمه، وينسبون في ذلك إلى خواص النبوة وخلفائها كقوله :

يا رب جوهر علم لو أبوح به — لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي — يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وغاية من اطلع عليه، الحصول في العجز، ولذلك قيل : العجز عن درك الإدراك إدراك، وهو المراد بقوله تعالى «ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير» والعلم الذي قبله في جنسه كلا شيء، وهذا هو علم الإحسان. والرابع من رجال الشريعة : خواص الله في أرضه ورحمته في بلاده وعلى عباده، وهم الأبدال والأقطاب والأوتاد والعرفاء والنجباء والنقباء وسيدهم الغوث، ويختص بهم من علوم الشريعة علم المطلع، متضمنا لما وراءه من العلوم، وهذا العلم هو العلم العظيم، المحتوي على جميع العلوم، وهو علم الرسالة، ولا يقدر على وصفه من اطلع عليه، ولا يعلم

ماهيته ، بل لا ماهية له ، إنما حـامله حامل أسرار ومعان وأبكـار حسان « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان» .

ويقول أيضا في الفصل الخامس تحت عنوان «في أقسام العارفين بالله» :

«وحقق الاستقراء أن مجموع من يَدّعي أو تدعى فيه المعـرفة بالله ينحصر في سبع زمر تتفرع منها إحدى وعشرون زمرة .

الأولى منهم : أهل التقليد وهم ثلاثـة أصناف : الأولى قلدوا آباءهم . والثـانية قلدوا علماءهم ، والثالثة قلدوا أنبياءهم ، ومعرفة هؤلاء خبرية .

والزمـرة الثانيـة : أهل النظر، وهم ثلاثـة أصناف : قـوم استدلوا بـالصنعة على الصـانع ، وقوم استدلوا بالصـانع على الصنعة ، وهـم أشرف وأعسر، وقوم جمعوا بين الدلالتين ، وإليـه الإشارة بقوله : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه ، أو معه أو بعده من حججهم الشهرة ؛ ومعرفة هؤلاء قياسية نظرية .

والزمرة الثالثة : أهل التنزيه ، وينقسمون إلى ثـلاثة أصناف : الأولى ، نزهوا معروفهم عن لواحق الأشباح ، والثانية نزهوه عن لواحق الأرواح ، والثالثة نزهوه عن لواحق العقول القدسية .

والزمرة الـرابعة ، أهل التشبيه ، وهم ثلاثـة أصناف : شبهوه بصفات الجسوم وهم الظـاهرية . وحكموا عليه بما حكموا عليها من اليد والرجل ، والثانية شبهوه بالنفوس ، والثالثة شبهوه بالعقول .

والزمـرة الخامسة : أهل العجز، وهم ثلاثـة أصناف ، الأولى عجز عن معرفتـه من غير نظر ولا استبصار، والثانية عجزوا عنها بعد بحث ونظر، والثالثة عجزوا عن إدراك إدراكهم ، وخرجوا إلى النور المحض الذي لا تصور فيه ولا شوب ولا يخلفه غيره .

والزمرة السادسة : أهل الاتحاد ، وهم ثلاثة أصنـاف : الأولى ، الذين قالوا بالاتحاد في الظواهر، والثانية الذين قالوا به في البواطن ، والثالثة ، الذين قالوا بالاتحاد المطلق .

الزمرة السـابعة : أهل التحقيق ، وهم ثلاثة أصناف : الأولى جمعوا بين الخبر والنظـر. والثانية ، جمعوا بين التشبيه والتنزيه . والثالثة جمعوا بين العجز والاتحاد المقدس .

أما الدلائل ، فأهل الخبر دليلهم الحديث والقرآن «وإلاهكم إلاه واحـد» «قل هو الله أحد» «إني لأعرفكم بالله وأشدكم خوفا منه» وغير ذلك من أخباره عن الله ، وما يناسبه .

وأهل النظـر أدلتهم كثيرة «الذين يـذكرون اللـه قيـاما وقعـودا وعلى جنوبهم ويتفكـرون في خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا بـاطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار» ومثلهـا قوله تعالى «أفلم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض» وأهل التنـزيه دليلهم «ليس كمثله شيء» وقولـه «سبحان ربك رب العزة عما يصفـون» ، فالمخالفون مـا وصفوه إلا بما اتصفت به ذواتهم . وأهل التشبيه دليلهم قـوله عليه أفضل الصلاة والسـلام «من عرف نفسه عرف ربه» ، وقول حـاكيا عن ربه «لم تسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن ، — أي عرفني وقبل صـورة معرفتي — . وأهل العجز دليلهم من

الكتاب «ويحذركم اللـه نفسه» وفي السنة «تفكـروا في آلاء الله ولا تتفكروا في ذات اللـه فإن التفكر في ذات اللـه يقدح الشك في القلب» وقـوله «لا أحصي ثنـاء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» . ومن الآثار «العجز عن درك الإدراك إدراك» وأهـل الاتحاد دليلهـم «إن الذين يبايعونك إنما يبـايعون الله» ، ومن السنة ما أخبر به ربـه في حديث التقرب بالنوافل . وما أعطـى كل شيء حقه في حضرته المعينة ، فهو العارف بالحق» . .

الخــواطــر

الخاطر بربط بالإرادة ، وقد يجهل زمانه ، ينقسم إلى هبة مزعجة ، وهبة باسطة ، وهبة قابضة .

فالمزعجة ما أوجست في النفس خفية . والباسطة إن سبقتها خلوة أو وقوف على حقيقة فقد تحدث في النفس طيب النكهة والانبساط . أما الهبة القابضة ما أكسبت صاحبها كمالا وصعودا إلى أوج مما كان أو تحذره أو تجرده أو تكون له مقدمة غيبته ، أو تحله السكينة أو تلهمه الوعيد وتحذره من المكر وتدفعه نحو الوسائل المنجية . كل هذه الخواطر خواطر رحمانية .

وهناك الخاطر الملكي وهو مرتبط بالخاطر الرحماني ومباين لخاطري النفس والشيطان . والخاطر الرحماني في غاية الخاطر الملكي ، والملكي يسير بالمالك نحو الأمر بالمعروف وكسب الفضائل ، وذلك في باطنه بمثابة بالأستاذ الزاجر والمعلم ، ينبهه ويرشده إلى الغوامض حتى يتصور ما لم يكن يتصور، ويسمع ما لم يكن يسمع ، أو يحفظه ويخلصه من الشوائب ويصعد به إلى منازل الأبرار، أو يعلمه الوصول والخروج عن نفسه ، والخروج عن خروجه والرجوع إلى حقه بأدب الحقيقة ، فيبصر الغلط الخفي ويعلم الحياة والموت . وهناك الخاطر النفساني يرتبط ويتعلق بالخاطر الشيطاني وهو متصل بالجسم ، إذ كل لواحق الجسم موادها شيطانية وقواطعها جرمية ، لا تهدي ولا ترشد البعيد من حيث طبعه ، بل تقبل الزجر، فيفهم بالخاطر الملكي عرضا لا بالذات . وهذا الخاطر ميال إلى الشهوات يحض على الجاه والصيت والملذات ، وهذا يقترن بتداخل الخاطر الشيطاني ، فيدفع ذلك بالتعظيم والتظاهر مما يرمي بذلك إلى بدعة أو ربما إلى اليأس من الرحمة وارتكاب المحرمات والتشويق إلى هوى النفس من باب الإباحة .

والخاطر النفساني هو بالجملة مستمد من الخاطر الشيطاني ؟ ، وكأنه مادة لصورته ؛ أما الخاطر الشيطاني فإنه يجذب إلى النقص ، فتزين عينه المحرم ، وتعلمه ما يضره وتنسيه كل نافع ، وتسلب منه الإنسانية وكل خير وفلاح ، وتنزل به إلى الحيوانية ، ولا تقنع إلا بفواحش الهوى والضلالة ، ولا ترشد إلى الامتثال والطاعة . فهذا خاطر يدعو إلى الانتكاسة . فلا مناص منه إلا بالاستقامة ، واتباع خط إمام المرسلين صلى الله عليه وسلم .

فهـم أهـل الصفـوة

قال تعالى «وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين»وقال أيضا «الّم ذلك الكتاب لا ريب ، فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب» .

لقد فهم أهل الصفـوة الخطاب ، وأصبح فهمهم للقرءان طـافيا كاللجين ، فيـه الهدى والرحمة ، وفيه فصل الخطـاب لما قد شكل ، هو تبيان وبشرى للمتقين ، قـال تعالى «ونزلنا عليك الكتـاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» ، فهـذه الآية بينت لأهل الصفـوة من الفهم ما قسم لهم بعد إيمانهم بالغيب ، وقد أدركـوا قول الله تعالى «ما فرطنا في الكتـاب من شيء» وقوله عز وجل «وكل شيء أحصيناه في إمـام مبين» وقولـه عز وجل « وإن من شيء إلا عنـدنا خـزائنه ، ومـا ننزلـه إلا بقدر معلوم» .

إن أهل الفهم والعلم من الصفوة ، يعلمـون أن القرءان يهدي إلى الأصواب ، وذلك بعـد التدبير والتفكير والتيقظ والتذكـر وحضور القلب عند القراءة . لقـوله تعالى «إن في ذلك لذكـرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» ـ يعني حاضر القلب ـ وقوله تعالى «وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم» قال أهل الفهم ، القلب السليم الذي ليس فيـه غير الله . قال سهل بن عبدالله : لوأعطي العبـد لكل حرف من القرءان ألف فهم لما بلغ نهاية مـا جعل الله تعالى في آية من كتـاب الله تعالى من الفهم ، لأن كلام اللـه تعالى ، وكلامه صفته ، وكما أنه ليس لله نهايـة فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعـالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه ، وكلام الله غير مخلوق فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهوم الخلق ، لأنها محدثة مخلوقة .

والصفوة من العباد أشار إليهم قول الله عز وجل «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات» فـالاصطفاء الذي ذكره الله لعباده الذين أورثهم الكتـاب هـم المونـون ، ثـم بين أنهم متفـاوتون في أحـوالهم التي بينهم وبين اللـه ، فمنهم ظـالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهـم سابق بالخيرات . بعد وقع الاصطفـاء على وجهين ، اصطفاء الأنبياء بالعصمـة والوحي والتبليغ ، وغيرهـم من المومنين بصفاء المعاملـة والمجاهدة والتعلق بالحقـائق . وأمر الله بالاستباق والمسـارعة والمبادرة إلى الخيرات ، بقوله تعالى «ولو شـاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلـوكم فيما آتاكـم ، فاستبقـوا الخيرات» وقـد أجمل سبحانـه الاستبـاق إلى الخيرات ، وفصل ذلك في

آيات، كقوله تعالى «هدى للمتقين» «وموعظة للمتقين» «فلا تخشوهم» «فاذكروني أذكركم» « وعلى الله فتوكلوا» «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول» «والذين جاهدوا فينا» «ومن شكر فإنما يشكر لنفسه» «إن الله يحب الصابرين» «ومـا أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الديـن» «رجال صدقوا ما عاهـدوا الله عليه» «قل متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى» « من كان يريـد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نوته منها، وماله في الآخرة من نصيب» «إن الشيطان لكم عدُو فاتخذوه عدوا» .

ففهم أهل الصفوة لآيـات الله المحكمات الذيـن أنابوا وأطـاعوا وتحققوا في الأحـوال وأخلصوا في المقامات هم الـذين ذكرهم الله تعالى في كتابه «الـذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكـاة وهم بالآخرة هـم يـوقنـون، أولئك على هـدى من ربهم» وقـوله عـز وجل «قـد أفلح المومنـون الـذين هـم في صـلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون» .

وزاد طبقة العلم منهم بقوله تعالى «إنما يخشى اللـه من عباده العلماء»، وقال أيضا «وأولوا العلم قائما باقسط»، ثم خص من هؤلاء قوما أعلى فشرفهم بقوله عز وجل «والراسخون في العلم» . قال أبو بكـر الـواسطي «الـراسخـون في العلم هـم الـذين رسخـوا بأرواحهـم في غيب الغيب، وفي سر السر، فعرفهم ما عـرفهم، وأراد منهـم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم، وخاضـوا بحر العلـم بالفهم لطلب الزيارات، فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص، فاستخرجوا الدر والجوهر ونطقوا بالحكم» .

وقال أبو سعيد : أول الفهم لكتاب الله عز وجل العمل به، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقول الله عـز وجل، «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»، وقـال تعالى : «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنـه»، والقرءان بطبيعة الحال كلـه حسن، ومعنى اتبـاع الأحسن ـــ أي يكشـف للقلب من العجـائب عنـد الاستماع والفهم والاستنباط.

والاستماع والحضور ثـلاثة أوجـه كما قال أبو سعيـد الخراز «إلقاء السمع لاستماع القـرءان هو أن تسمعه كأن النبي صلى اللـه عليه وسلم يقـرأه عليك، ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعـه من جبريل عليه السلام وقراءته على النبي صلى الله عليه وسلم لقول الله عز وجل «وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الـروح الأمين على قلبك» ثم تـرقى عن ذلك فكأنك تسمعه من الحق، وذلك قـول الله عـز وجل «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمونين» وقوله «تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم» .

وأهل الصفوة استفـادوا من الآية الكريمـة «فآمنوا بـالله ورسولـه النبي الأمي الذي يؤمن بـالله وكلماتـه» إن زيادة الإيمان لا نهايـة لـه، بل إن جميع ما وصـل إليه أصحـاب الحقـائق من البدايـة إلى النهاية، كل ذلك من حقائق الإيمان وزيادته وبراهينه وأنواره، وأن لا نهاية لذلك .

الدعـوة إلى اللـه

قال تعالى «قل هو اللـه أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفـؤا أحد» إنه سبحانه وتعالى الـواحد ، الفرد الصمد ، لا شريك لـه ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قديـر ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، هو صانع العالم وفاعله ومبدعه .

إن الإنسـان ميـال بفطـرتـه إلى الإقـرار بـوجـود كـائن عظيم ، عـاقـل حكيم ، أرفع من جميع الموجودات ، خلقها وأبدعها ونظمها ورتبها في حركـة دائمة إلى مالا نهاية ، وهذا الصانع المبدع يتمتع بقوة ثـابتة ، وهـو مبدأ ومـرجع كل شيء ، ذو الكمال المتناهي ، لا يحتـاج إلى علة خـارجة ، سبحـانه وتعالى عما يصفون .

والعقل البشري مهما بلغ من السمو والارتقاء يقف عـاجزا عن إدراكه سبحانه وتعـالى ، وهو منزه عن جميع الصفـات التي تتصف بها مـوجـوداته ومبـدعـاتـه ، فهـو مبدأ كـل موجـود لاستنـاد جميع الموجودات إليه ولصدورها عنه .

والشرائع والأديـان تـدور في إيمانها بـوجـود الخالق المبـدع ، الـذي نظم الليل والنهـار وتعـاقب الفصول ، وزين السماء بالكواكب بالمنازل والبروج والأفلاك ، والرياح بجريانها ، والأرض وما عليها ، فسبحت له كافة الموجودات العلوية ، والمخلوقات الجسمانية ، والمبدعات الروحانية ، ناطقة بعصمته ، ومنبئة عن باهر قدرته ، فخضعت العقول لنوره .

إن أشرف العلوم معرفة الله وصفاته اللائقة به ، والعلماء قد تكلموا في ماهية ذاته . وأكثروا القيل في حقيقته وصفاته ، وتاه أكثرهم في العجـاج عن المنهاج والعلم . والعلة في ذلك هو من أجل أن هذا المطلوب من أبعد المرامي إشارة ، وأقرب المذاهب وجدانا ، فهو سبحانه وتعالى يقبل فيض الجود مادام هو مطلقا مبدأ كل مـوجود ، وإليه سبحانه ينتهي الحدود ، فهو فـوق وصف الواصفين ، وقد يقال لا إلاه إلا هو ، إيمانا وتسليما ، وهذا القول إثبات التوحيد ، فصار الأصل المعتمد عليه في كل شريعة .

فالله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر «إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استولى على العرش ، يغشى الليل النهـار ، يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجـوم ومسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبـارك الله رب العالمين» إنه سبحانـه خالق كل شيء وربه ومليكه ، مـا شاء كان

وما لم يكن ، كل شيء بقضـائه وقدره وقدرته وإرادتـه ، وقد أمر سبحـانه بطاعته . فأعظم الطـاعات توحيده والإخلاص له ، وأعظم المعاصي الشرك بـه «إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» «ومن النـاس من يتخذ من دون اللـه أندادا يحبـونهم كحب الله ، والـذين آمنوا أشـد حبا لله» . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله أي الذنب أعظم؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهـو خلقك» قلت ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن تطعمـه معك» قلت ثم أي ! قال : « أن تزني بحليلة جـارك» فكان تصديق هذا القول بالآيـة الكريمة» والذين لا يدعـون مع الله إلاها آخـر ولا يقتلون النفس التي حـرم الله إلا بـالحق ولا يزنـون ، ومن يفعل ذلك يلق أثامـا يضاعف لـه العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صـالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما» .

والعبد مأمور بالتوبة إليه سبحانه «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» وهو القائل سبحـانه «سارعوا إلى مغفـرة من ربكم وجنة عرضهـا السموات والأرض أعدت للمتقين ، الـذين ينفقـون أمـوالهم في السراء والضراء والكـاظمين الغيظ والعـافين عن النـاس ، واللـه يحب المحسنين ، والذين إذا فعلـوا فاحشة أو ظلمـوا أنفسهم ذكروا الله فـاستغفروا لذنـوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فاتهم وهم يعلمون»

وبهذا القدر أكتفي مادام الكتاب موضوعه بكامله الدعوة إلى الله ، والله ولي المتقين .

منزلة العبد عند خالقه

إن توفيق العبد في أعماله تصبح صالحة موافقة للصواب، وهذا ما يدل عليه منطوق القرءان والسنة، والصوفية رأوا في ذلك سندا.

فالجنيد رحمه الله يتكلم عن توحيد الخواص ويبين أنه مقام من وصل إلى الفناء عن نفسه، وهذا غاية تحقيق حقيقة توحيد الموحد للواحد، أن يذهب كما لو لم يكن يتلاشى وتنمحي أوصافه ويبقى بأوصاف الحق.

وذو النون المصري يتكلم عن المعرفة ويرى أنها لا تكمل إلا بالوصول إلى درجة الفناء، ويصير العارف في مظهر الفناء الأكمل متحركا بحركة الله ناطقا بما يجريه على لسانه ناظرا بنور الله في بصره.

والحلاج يتخذ الفناء أساسا، بحيث لا يصل العبد إلى مرتبة حلول الله فيه إلا بعد أن يفنى عن نفسه فناء كاملا ويحجب عنها بالله، فالمتحققون عنه بالله هم الذين أفناهم الله عن أوصافهم الناشئة عن طباعهم، ولم يردهم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم، بل كان هو لسانهم الذي به ينطقون، وبصرهم الذي به يبصرون، وأسماعهم التي بها يسمعون، وأيديهم التي بها يبطشون. ويرى الفلاسفة الإشراقيون والصوفية أن الكرامات ردوها إلى طبيعة النفس وقوة ذاتية فيها، حصلت لها بعد صفائها بالرياضة والمجاهدة ووصولها إلى درجة العرفان، وتحولها إلى جوهر أسمى من جوهرها، هو جوهر الملائكة، وقربها من طبيعة الإلاه، فأصبحت لها القدرة على التأثير في الكون والتصرف فيه، كقدرتها على تأثيرها في جسمها وتصرفها فيه. وأفضل العباد الأولياء، وأفضل الأولياء الأنبياء، وأفضل الأنبياء الرسل، وأفضل الرسل أولو العزم ـ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ وأفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» وقد جعل سبحانه وتعالى صدق محبته متوقفة على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وجعل أتباعه سبب حصول المحبة من الله سبحانه، وادعت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وجعلوا الجنة وقفا عليهم، وقال تعالى «وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون» وقال تعالى « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا، إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا» وقال

سبحـانه «اللـه ولي الذين آمنـوا يخرجهم من الظلمات إلى النـور، والذيـن كفروا أوليـاؤهـم الطاغـوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» .

والأولياء على طبقتين، سـابقون مقربون، وأبـرار أصحاب يمين مقتصدون، وقد ذكـرهـم الله سبحانه وتعـالى في أول سورة الواقعة، وذكـرمعها القيامة الكبرى والصغـرى حيث قال : «إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وكنتم أزواجا ثلاثة، فأصحـاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمـة ما أصحاب المشأمة، والسابقـون السابقون، أولئك المقـربون في جنات النعيم، ثلث من الأولين وقليل من الآخـرين» فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع فيها الله الأولين والآخرين» وقال عز وجل في آخر سورة الـواقعة «فلولا إذا بلغت الحلقـوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقـرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مـدينين ترجعـونها إن كنتم صادقين، فأما إن كـان من المقربين فـروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن كان مـن أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، وأمـا إن كان من المكذبين الضـالين فنزل مـن حميم وتصلية جحيم، إن هـذا لهو حق اليقين، فسبح بـاسم ربك العظيم» وقـد نلاحظ أن الآية الأولى من السورة ذكرت القيامة الكبرى، والثانية ذكرت القيامة الصغرى .

والعبد عادة يأخذ الجزاء من جنس عمله خيرا كان أو شرا ، قال صلى الله عليه وسلم «من نفس عن مؤمن كربة من كـرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كـرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الـدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الـدنيا والآخرة، والله في عون العبـد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيها علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللـه يتلون كتاب الله ويتـدارسونه بينهم إلا نزلت عليهـم السكينـة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وفي حديث آخر «الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» .

وهناك ثلاثة أصناف من العباد، منهم ظالم لنفسه، مصر على الذنوب . ومنهـم مقتصد، يؤدي الفـرائض ويجتنب المحـارم . ومنهـم سـابق بـالخيرات، يؤدي الفـرائض والنـوافل ويجتنب المحـرمـات والمكـروهـات . وهـذا مـا هـو واضح في الآيـة الكـريمـة «ثم أورثنـا الكتـاب الـذين اصطفينـا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير، جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا، ولباسهم فيها حرير، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنـا الحزن إن ربنا لغفـور شكور» ، ثم ذكر سبحـانه المفاضلـة بين أولياء المؤمنين بقـوله «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخـرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا» بل كان هذا التفضيل أيضا بين أنبيـائه حيث قال عز وجل «تلك الرسل، فضلنـا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله، ورفعنا بعضهـم درجات، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدنـاه بروح القدس» وقال أيضا «لقد فضلنا بعض النبيئين على بعض وآتينا داوود زبورا» .

إن منزلة العبد عند خالقه واضحة ، يبقى إذن عمل العبد عند ربه واضح في قوله عز وجل «أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب» ، وقال أعز من قائل «يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير» .

سلـــوك العبـــاد

قال تعالى «وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم» وقال صلى الله عليه وسلم «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح».

إن العبد السالك هو ذلك العبد الذي يسير بالحكمة والموعظة الحسنة متشبثا بعمله متوكلاعلى الله غير متواكل، قلبه يضيء بتقوى الله، غير هياب بما يمسه في إيمانه. روي عن نجيح العرباض بن سارية قال «وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

والعبد السالك هو الذي يحافظ على السنة وآدابها مستمدا ذلك من قوله عز وجل «وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا» وقال «لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» وقال صلى الله عليه وسلم «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قيل ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» والعبد السالك هو الذي يجعل من أوجب واجباته الانقياد لحكم الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعما لقوله عز وجل «فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لله ما في السماوات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا : أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والجهاد والصيام والصدقة، وقد نزلت عليك هذه الآيةولا نطيقها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في إثرها «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمومنون ،كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير» فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل عز وجل «لا يكلف الله نفسا إلا

وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» قال : نعم «ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا» قال : نعم «ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به» قال : نعم «واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» قال : نعم» والعبد السالك ما نهى عن البدع ومحدثات الأمور، قال تعالى «فماذا بعد الحق إلا الضلال» وقال تعالى «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول» أي إلى الكتاب والسنة ــ وقال أيضا «وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا» .

والعبد السالك مبدؤه التعاون على البر والتقوى ، قال تعالى «وتعارفوا على البر والتقوى» وقال أيضا «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» وقال صلى الله عليه وسلم «من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا . ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا» ، وعن ابن عباس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي ركبا بالروحاء فقال «من القوم ؟ فقالوا ، المسلمون ، فقالوا : من أنت ؟ قال : رسول الله ، فرفعت إليه امرأة صبيا فقالت : ألهذا حج ؟ قال : نعم ، ولك أجر» .

والعبد السالك هدفه النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» وقال جل شأنه «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» وقال أيضا «والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» ، وقال صلى الله عليه وسلم «الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» . وقال أيضا « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» .

والعبد السالك من استطاع أن يصلح بين الناس ويحث على الحب في الله ، قال تعالى «لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس» وقال أيضا «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم» وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شر، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلح بينهم في أناس معه ، فحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت الصلاة ، فجاء بلال إلى أبي بكر رضي الله عنهما ، فقال : يا أبا بكر، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حبس وحانت الصلاة ، فهل لك أن تأُمَّ الناس ؟ قال نعم إن شئت ، فأقام بلال الصلاة وتقدم أبو بكر فكبر وكبر الناس ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي في الصفوف حتى قام في الصف فأخذ الناس في التصفيق، وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يلتفت في الصلاة ، فلما أكثر الناس التصفيق

التفت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع أبو بكر رضي الله عنه يده محمد ورجع القهقرى وراءه حتى قام في الصف، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى للناس، فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق؟ إنما التصفيق للنساء. من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله، فإنه لا يسمعه أحد حين يقول سبحان الله إلا التفت، يا أبا بكر ما منعك أن تصلي بالناس حين أشرت إليك؟ «فقال أبو بكر: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بالناس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وفي الحث على الحب في الله نجد قول الله عز وجل «محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» وقوله عز وجل «والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم».

وفي الحديث الشريف «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشاء في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال، فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه».

وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون، بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» وقال عليه السلام «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتهم؟ أفشوا السلام بينكم».

والعبد السالك من أنفق في أوجه الخير ما يجعله كريما تطبيقا لقوله عز وجل «وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه «وقال أيضا «وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» وقال صلى الله عليه وسلم «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا».

والعبد السالك من اتصف بالورع وترك الشبهات، قال تعالى «وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم» وقال عز وجل «إن ربك لبالمرصاد»، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

والعبد السالك من خفض جناحه وتواضع، قال تعالى «واخفض جناحك لمن اتبعك من المومنين» وقال تعالى «ولا تزكوا أنفسكم، هو أعلم بمن اتقى»، وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد».

وبصفة عامة، فإن العبد السالك من اتصف بالخلق الحسن، والتزم الشريعة، قال تعالى:

«وإنك لعلى خلق عظيم» وقـال صلى اللـه عليه وسلم «إن مـن أحبكم إلي وأقربكم منـي مجلسا يـوم القيامـة أحاسنكم أخلاقـا، وإن من أبغضكـم إلي وأبعدكم مني يوم القيـامة، الثرثارون والمتمشدقون والمتفيهقون » قالوا: يارسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتمشدقون، فما المتفيقون؟ قال المتكبرون».

الطريـــق إلى الـولايـــة

قـال عز وجل «الـذين يـذكرون اللـه قيامـا وقعـودا وعلى جنوبهم ويتفكـرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك، فقنا عذاب النار».

إن مما يفتح الطريق نحـو الولاية ذكر الله، والـذكر مرغوب فيه كما ورد في الآية الكـريمة، وقال صلى الله عليه وسلم «أنـا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكـرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكـرني في ملأ ذكـرتـه في مـلأ خير منه، وإن اقترب إلى شبرا اقتربـت منه ذراعـا، وإن اقترب إلي ذراعا، اقتربت إليه باعا، وإن أتـاني مشيا أتيته هرولة» وقال أيضا «لا يقعد قـوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الـرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكـرهم الله سبحانه فيمن عنـده» وقال أيضا «إذا مررتم برياض الجنة فارتقوا، قالوا يـارسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر». وإن أفضل الذكر ما كان في دعاء الله سبحانه وتعالى حيث قال جلت قدرته «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الـداع إذا دعان»، وقال صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم يـدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها».

ومن أعظم الأذكار أجـرا وأكثرها جـزاء، تلك الأدعية الثـابتة في الصباح والمسـاء، فإن فيها من النفع والدفع ما تشتمل عليه، وهي تريـاق المجرب في النفع والدفع، وكمثال على ذلك للذي يحافظ عند خروجه من بيته كأن يقول ملازمـا «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» أو أن يقول «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهـو السميع العليم» أو آية الكرسي، فإن ذلك فيه حصن من جميـع الشرور لما ورد في الذكرين أو آيـة الكرسي، وكذلك الاستغفـار فإنه بمثـابة المرهم الذي يغسل الذنوب.

ومن أعظم مـا يلازمـه السالك نحـو الولايـة كلمة التـوحيد كما قيل عنـه صلى الله عليـه وسلم «أفضل الـذكر لا إلاه الا اللـه، وأفضل الدعـاء الحمد للـه»، وعن أبي ذر قال : قلت يـا رسول اللـه أوصني، قال : إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحوهـا، قال : قلت يارسول الله : أمن الحسنات لا إلاه إلا الله ؟ قـال : هي أفضل الحسنات». ومما ينبغي لسـالك الطريق أن يستكثـر من الصلاة على النبي صلى الله عليـه وسلم وأن يجعلها فاتحة كل دعاء، فقـد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث

جماعة أن من صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات. . فانظر إلى هذا العطاء العظيم والجزاء الكريم، أن العبد يصلي على المصطفى صلى الله عليه وسلم فيصلي عليه خالق الكون عز وجل عشر مرات، فما أجزل هذا الثواب وما أعظم هذا الأجر الذي لا يماثله أي أجر، فمن نظر بعين المعرفة وفهم هذا المعنى طار بأجنحة السرور إلى الاستكثار من هذا الخير العظيم والأجر العميم، فشكراً و حمدا للواهب الوهاب.

وإن ملازمة التسبيح والتكبير والتوحيد والتحميد لنبراس الولي كما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم«أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إلاه إلا الله والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت».

وأفضل الأدعية ما وردت عنه صلى الله عليه وسلم، منه مثلا قوله عليه السلام «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عاقبتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك» أو دعاؤه أيضا «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، واصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر».

ومن أدب السالك لطريق الولاية أن يدعو أيضا في الوضوء وفي الآذان والإقامة ودخول المسجد وداخل الصلاة.

فعقب الوضوء مثلا يقول ما قاله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد يتوضأ ثم يقول : أشهد أن لا إلاه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء».

وعند الآذان مثلا يردد معه الآذان ؛ وحين يقول المؤذن حي على الصلاة. يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله. وحين يقول المؤذن حي على الفلاح، يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا ما جاء في حديث عمر.

وعند سماع الإقامة مثلا يقول «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وأبعثه مقاما محمودا الذي وعدته» وهذا ما جاء في حديث جابر.

وعند دخول المسجد مثلا يقول «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» وإن خرج يقول : «اللهم إني أسألك من فضلك» وهذا ما ورد في حديث أبي سعيد.

وعقب الصلاة يقول ما جاء في قول المغيرة «أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر كل صلاة : لا إلاه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، ثلاث مرات».

والطريق إلى الولاية يستوجب أداء الفرائض وترك المعاصي أو التحايل على الشريعة وما يتنافى مع الدين، والقيام بالنوافل قدر الإمكان حسب أوقاتها من صلاة وصيام.

ففي الصلاة تصلي ركعتان قبل الظهر وركعتان بعده، وقيل أربعة، وركعتان قبل العصر وركعتان بعد المغرب وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل الغداة، ونوافل الليل مع الشفع والوتر، وصلاة تحية المسجد وعقب الوضوء، وبين الآذان والإقامة . . . إلى غير ذلك .

وفي الصيام هناك صوم عاشوراء وستة من شوال وعشر من ذي الحجة ومنها يوم عرفة، وشهر شعبان خاصة يوم النصف منه . . . إلى غير ذلك . والسالك نحو الولاية لابد له من التسليم والرضا بقضاء الله وقدره في السراء والضراء، وأن ينحو نحو المرشد الأعظم، والنبي الأكرم، محمد صلى الله عليه وسلم حينما كان يردد وقت الشدة «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وجهد البلاء، وشماتة الأعداء» .

ومن مظاهر الولاية الإحسان، فإنه رتبة عالية لا يحصل عليها الولي إلا بعد كمال الإيمان، والإيمان يتجلى في أداء الفرائض والنوافل، وترك المحرمات والمعاصي والمكاره، والسير على النهج القويم فى الحياة مقرنة بطهارة الباطن، فإذا كان كذلك فإن سالك طريق الولاية يدخل في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره إساءته» .

الإســــلام

الإسلام دستـورنا في هذه الحيـا ، لا يمكن أن يغيب عن مسرح حياتنا ، ولـو غاب لا يبقى شيء يأخذ محلـه ، فيحدث خلل في جميع المقاييس ، حيث يصبح الحرام حـلالا والحلال حراما ، ومـا نقره اليوم يلغي غدا ، وما يثبت غدا يلغي بعد غـد . فتنطلق الأهواء ، ولا يعرف الإنسان بها لنفسه مدخلا ولا مخرجا ، ومهما اعتقد معرفة ا لشيء فهو في الحقيقة لا يدري ، ومـا يريده جيل يرفضه آخر بطريقة أو بأخرى ، ومهما أراد سلطان أن يرد الناس إلى نظام فإن الناس يستعصون عليه ، فتكون كل إمكاناته العلمية مسخرة بطريقة منحرفة .

ومما يدل على ذلك واقع الإنسان في القرن العشرين وما والاه ، ألسنا نعيش اليوم وطأة الإجرام رغم ازدياد أجهزة الأمن ؟ ألسنا نرى أجيالا جعلوا الفوضى مبدأ حياتهم يدعون أنفسهم بـالخنافس ؟ ألسنا نرى الإبـاحية المطلقة في العلاقـات الجنسية وفي الشذوذ الجنسي حتى بلغت في بعض الـدول الأوربية ذروتها؟ ألسنا نرى نظريات مطروحة على السـاحة الدول أو الجهوية تجعل كل شيء متناقضا ؟ لعلك الآن تقتنع بأن غياب الإسلام عن الساحة لا يبقى معه أي شيء في محله ، لأن الإسلام هو شيء رباني ، فهو الصحيح السليم عن أي انحراف ، وبه تستطيع البشرية أن تتظلل ، وبغيره كل شيء يضيع .

إن الإنســان مـرتبط بخمس ، وهي أهم شيء بـالنسبـة له ، مـرتبط بـالــدين ، والعقل ، والمال ، والنفس ، والنسل .

الــديــن

فتح المسلمون مصر وبلاد الشام والهند وفـارس إلى غير ذلك ، وحكموا ، لكنهم لم يغيروا العقائد كرها ، وإنما عن طـريق الاقناع والرغبة ، ولم تحدث حادثة إكراه واحـدة على تغيير الدين . وفي عصرنا هذا ، عصر ما يدعى بالحرية العقائدية المصونة ، نجد العكس من ذلك ، فقد نجدها مغتالة جهرا أو ضمنا لدرجـة أن أبناء الدين أنفسهم غير مؤمنين على حفظ دينهم بـالأحرى أن يأتمنوا على حفظ دين غيرهم ، مثـلا في الدول الاشتراكيـة تفرض تعـاليم الماركسية وتحرم الـدعوة إلى الأديـان ، أما في الــدول الرأسمالية فقد تغتال الحرية الدينية أحيانا جهرا وأحيانا سرا عن طريق التعذيب أو عن طريق التصفية الجسدية ، فالحقيقة الجلية أن الإنسان لا يحفظ دينه إلا إذا كان الإسلام حاضرا .

إنه لن يحفظ على الإنسان عقله إلا إذا كان الإسلام حاضرا ، فقد لوحظ أن أنظمة الحكم اليوم في العالم تدعي العلمانية ، غير أننا نجد العلم في واد والواقع في واد آخر ، فمثلا يقول العلم بأن الخمر مضر ، والواقع يقول بأنها مباحة ؛ والعلم يقول بأن الدخان مضر ، والواقع يدعو إلى تشجيع ذلك ؛ والعلم يقول بأن الزنا ليس في صالح الجنس البشري ، والواقع يقول أنه مباح ؛ والعلم يقول بأن المرأة تختلف عن الرجل ، والواقع يجب أن نجعلها مثل الرجل ؛ وعلم النفس وروح الاجتماع يقعان تحت وطأة الأسر واستعمالهما في نشر الأكاذيب على أعمدة الجرائد والمجلات والإذاعات والإشاعات الملفقة بلا رقيب ، وتحريف الحقائق لتبرير الجرائم بدون وازع ؛ والسياسة وتوابعها أصبحت تمر على مركبات الكذب والخداع .

فأي عقل يبقى بعدما يتغذى بالأخطاء والأضاليل ، وأي عقل يبقى بعدما يطلق العنان للقول والفعل من غير تعقل ، وللشطط والهوى .

والحاصل من هذا ، أثبتت الإحصائيات على أن نسبة الذكاء تتناقص ، ونسبة الأمراض العقلية تتزايد . إنه لا يحفظ على الإنسان عقله إلا إذا كان الإسلام حاضرا .

النفس

حق الحياة مقدس للإنسان ، فالنفس البشرية مقدسة ، قال تعالى «إنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا» وقال عز وجل «ولقد كرمنا بني آدم» ، غير أنه في غيبة الإسلام يصبح قتل النفس بسيطا سبب أو بغير سبب ، وفي عصر العلم والحضارة تأتي بالأرقام التالية : ففي روسيا قتل من أجل تنفيذ الشيوعية وتحقيقها 19.000.000 نسمة وحكم على نحو 2.000.000 نسمة بعقوبات فادحة ، ونفي عن البلاد 5.000.000نسمة فهذه الأرقام تتجلى فيها بأن النفس البشرية لا قيمة لها ؛ ثم ماذا يعني اغتيال السود في أمريكا وجنوبي إفريقيا ، ثم ماذا تعني القنابل الفتاكة التي لا تبقى ولا تذر ، مثل القنابل الذرية والهيدر روجينية ، وبالتالي ماذا تعني القصور المبنية من الجماجم والمذابح الجماعية في كل بلد مستعمر ، إن هذا كله يعني أن النفس البشرية لا قيمة لها .

المال

المال أساسي في الحياة ، قال تعالى «وتحبون المال حبا جما» لكن حينما يغيب الإسلام يغيب كل شيء .

فهذه ظاهرة حدثت بحمص حين خرج أبو عبيدة بن الجراح منها عاجزا عن حمايتها فرد إلى أهلها النصاري أموال الجزية التي أخذها منهم ، فكانت هذه الحالة تعني ميلاد عدالة لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، وميلاد مجتمع جديد لا مثيل له في العلم . قارن هذه الحالة بما يفعله الاستعمار في أرض يحتلها . أو في المجتمع الشيوعي الذي يهدر حق الفرد وحق التملك ، أو في مجتمع الرأسمالية

الذي يحفظ للإنسان ماله ظاهريا ويسرقه منه عن طريق الربا والاحتكار والاستغلال . إن مال الإنسان لا يحفظ له إلا عن طرييق الإسلام .

النسل

ولن يحفظ على الإنسان نسله إلا إذا كان الإسلام قـائما ، فمثلا تأتينا الأبناء من «افْيينا تقول : إن المرأة في بلدها تكاد تصبح جنسـا ثالثا فلا هي بالذكر ولا هي بالأنثى ، ومظهـر هذه الحالة هي ظهور حالات عـدم الحمل دون سبب من أسباب العقم نتيجة لفقـدان خصائص أنوثتها بسبب مشـاركتها المطلقة للرجل في أعماله ، وانخفاظ نسبة الـزواج مستمرة . مع ارتفاع المواليد الغير الشرعيين . أما نسبة الطـلاق فهي تعادل نسبـة واحد بين كل سبـع زيجات . وفي أمريكـا يسقط مليون حمل في السنـة على الأقل ، ويقتل الآلاف من الأطفال فور ولادتهم نتيجة أمراض تناسلية مختلفة ، وفي عصرنا هذا انتشر مرض «السيدا» من أوربـا إلى أمريكا إلى افريقيا يهدد العالم أجمع ، أما البنت البكـر فإنها في هذه الدول عار عليها أن تبقى بكرا وأدوات منع الحمل موجودة لديها .

إن الإنسان بلاإسلام يقتل نفسه ، ويعيش حياة الألم مهما أخذ حظه من اللذة ، والإنسانية بدون إسلام تدمر نفسها .

ونستعرض آيات بينات لنبين عن منهجية الإسلام وأخلاقيـاته في تكريم الإنسان وسر خلافته في هذه الدنيا ، ويسر تسخير الكون كله له ، وسر حمله للأمانة ، وقيامه بأمر الله وعبادته . قال تعالى :

«ولقد كرمنا بني آدم»

«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»

«إني جاعل في الأرض خليفة»

«هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا» .

«ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأصبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» .

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» .

«خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين»

«قتل الإنسان ما أكفره» .

«والعصر إن الإنسـان لفي خسر إلا الذيـن آمنوا وعملـوا الصـالحات وتواصـوا بـالحق وتواصـوا بالصبر» .

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون».

من خلال هذه الآيات البينات ينقسم الإنسان إلى قسمين : كافر ومسلم.

فالأول خاسر والثاني رابح. أما الأول فقد عطل إنسانيته، والثاني حققها، فهما سواء من حيث الأصل، وغير سواء من حيث القيمة، قال تعالى : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وقال تعالى : «قل لا يستوي الخبث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث»،

وقال تعالى : «أفنجعل المسلمين كالمجرمين، مالكم، كيف تحكمون ؟».

فالله عز وجل خلق الكون وهو مالكه، وجعل المسلم الذي أسلم وجهه إليه سبحانه وتعالى له حق السلطان على هذه الأرض، له حق السيادة والقيادة على خصائصها مع صيانتها. قال تعالى : «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، إن في هذا لبلاغ لقوم عابدين»، وقال عز وجل : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»، وقال عز من قائل : وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون». وحاصل القول أن الله خلق كل شيء للإنسان، وهو مقابل ذلك مكلف أمام خالقه، وفي هذا التكليف مقسم إلى قسمين، كافر ومؤمن، فالمؤمن يجاهد الكافر من أجل إخضاعه لسلطان رب العالمين، وهذا الإخضاع الذي يأتي بالسلام الحقيقي على هذه الأرض لا يكون إلا بالإسلام.

أسلوب القرءان عن الآخرة

إن أسلوب القرءان الذي اختير لـلاستدلال حول العقيدة باليوم الآخـر، والدعوة إلى الإيمان به، هو أولا دعوة الناس إلى مشاهدة ما في أنفسهم وما حولهم وما في الآفاق من آثار ومعجزات من مظاهر قدرته سبحانه وتعالى، وهو القائل : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»، وهو القائل : «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون».

فالخلاصة من الآيتين الكريمتين تعطي هذا المعنى، إنكم يـاقوم لستم من القوة والعظمة أن تروا رأي العين مالا يأتي تحت حواسكم أو تعلموا حقيقته بالاعتماد على تجاربكم، إلا أنه لو فتحتم أعينكم ونظـرتم إلى آيـات الله وآثـاره ومظـاهـر قـدرته التي تنظـرون بعضهـا ، وتأملتم أيضـا في خلقكم وفي أنفسكم، وبذلتم جهـودا صادقة للـوصول إلى الحقيقة في كل هـذه المحسوسات والمرئيـات، فإنه من الأكيد يتبين لكم ما يقال في هذا القرءان الذي جاء على لسان رسوله الكريم، وهو القول الحق.

فالقرآن يدعو إلى التأمل والتفكير فيما هو أكثر بداهة وجلاء من ذلك، إن مانراه بعيدا عن العقل والقيـاس هو في الـواقع قريب، فـالله تبارك وتعـالى يقول : «اللـه الذي رفع السماوات بغير عمـد، ترونها، ثـم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقـاء ربكم توقنون» فالآيـة ناطقة بـاستشهاد على آثار الأجرام السماويـة، وعلى أن الله خلق هذا الكون البـديع المنسق، وأن قدرته تحرك كل شيء بما فيها السيارات العظيمة، والـذي قدرته قد أقامت طبقـات الكون على دعائم غير مرئية وغير محسوسـة يعجز الخلق عن إدراكها، أليس ذلك بقادر على أن ينشأ الخلق نشأة أخـرى. وهو سبحانـه حينما يدعونا إلى التفكير في آيـاته وآثاره وقـدرته وحكمته يدعونا أيضا إلى التفكير في آياته وقدرته وحكمته في عالمنا القريب ـ أي الأرض ـ يقول سبحانه : «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثـم الله ينشيء النشأة الآخرة، إن الله على كل شيء قدير»، وقوله تعالى : «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون»، وقوله عز وجل : «ومن آياتـه أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنـزلنا عليها الماء اهتزت وربت، إن الذي أحيـاها لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير». وهكذا يدعـونا بعد هذا إلى التفكير فيما وضع في ذات أنفسنا من آثار قدرته وحكمته، وذلك في قوله تعالى : «هل أتـى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا»، وفي قولـه سبحانه وتعالى : «وكنتم أمـواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليـه ترجعون» وقولـه عز

وجل : «إن كنتم في ريب من البعث فإنـا خلقناكم مـن تراب» ، وقـوله جلت قـدرته «قـال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم» . وقوله تعالى : «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثـم جعلناه نطفة في قـرار مكين ، ثـم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنـا المضغة عظـاما ، فكسـونا العظـام لحما ، ثم أنشأناه خلقـا آخر، فتبـارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» .

والقرءان يدعونا بعد التفكير في آياته وآثاره الغريبة إلى التفكير أيضا في أوثق ما يكون من العلاقة بعقلنا العام ، فهو يؤكد لنا أن إخراج الأحياء من العدم هو أصعب من خلقها مرة أخرى على صورتها الأولى بعد انتشار أجزائها ، فـالذي لم يعجز عن العمل الصعب ، كيف يعجز عن هذا العمل الهين ؟ وهو القـائل في محكم التنزيل : «أو لم يروا كيف يبـدي الله الخلق ثم يعيـده ، إن ذلك على الله يسير» وقوله عز وجل : «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه» .

وقد يبادر إلى دهن الجاهل أنه كيف يمكن للذي فني جسـده غرقا و إحراقا أو دسا تحت التراب أو تقطع ربلا ربلا ، أن يعاد جسده الأول وتنفخ في روحه فيتمثل بشرا سويا ، ويأخذ صورته الأولى .

إن القرءا ن يؤكد لنا أن الله عز وجل قـادر أن يعيد لها عين جسدها الأولى مهما انعدمت بطريقة أو بأخرى ، وذلك في قـوله تعالى : «قـد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعنـدنا كتاب حفيظ» ، وقـوله تعالى : «وعنـده مفاتح الغيب لا يعلمهـا إلا هو، ويعلم مـا في البر و البحر وما تستقـط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» .

إن الهدف من الآيتين هـو رفع كل لبس عن اليوم الآخـر، وأن تصور عقـول المنكرين هـو تصور ضيق لا يتسع لتصور البعث بعد الموت .

وهناك تأكيد آخـر يؤكده القرآن ، وهـو أن النظام القائم على الحكمة الإلاهيـة ليس مهملا بدون غاية ، قال تعالى : «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق» وقال أيضا : «ومـا خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، ومـا خلقناهما إلا بـالحق ، ولكن أكثرهـم لا يعلمون ، إن يوم الفصل ميقـاتهم أجمعين» . فالآيتان يشيران إلى أن نظام هـذا الكون ليس عبثا سيبقى سائرا إلى أجل ثم ينعدم ، و إن كنتم تعتقدون أن اللـه صنع هذا النظام المتقن ، فعليكم أن تستعينوا بما قد آتاكم الله من قوة العقل والنظر لتعلموا أن ليس شيء في عالم الوجود إلا وله غاية .

وهنا يتجلى السـؤال إذا كان هـذا العالم الكـوني لم يخلق عبثا ، فأي مصير آخـر غير العدم ؟ إن القرآن نجد فيه جوابا تفصيليا على ذلك في الآيات التالية :

«ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى» .

«وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى» .

ثم أن القرءان يصور لنا أهوال يوم القيامة :

«إذا السماء انفطرت ، و إذا الكواكب انتثرت ، و إذا البحار فجرت ، و إذا القبور بعثرت» .

«إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيرت».

«فإذا النجوم طمست، وإذا السماء فرجت، وإذا الجبال نسفت».

«فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر».

«وحملت الأرض والجبل فدكتا دكة واحدة»

«يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار».

فالآيات في حد ذاتها إشارات واضحة على أن نظام العالم الجاري هو ليس بنظام سرمدي، وإنما هو نظام موقت له أجل معلوم، فإذا انتهى إليه وخبا، فليس ذلك معناه العدم، بل تنتهي سلسلة لتتلوها سلسلة الخلق والإبداع، فيستبدل الطور الخاص الذي نشاهده الآن ويقوم مقامه نظام آخر.

أما كيف ومن أي نوع سيكون ذلك النظام؟ فإن القرءان جلي الكلام في ذلك، إذ أكد أن النظام سيكون صور ارتقائية، وإتمام لنقائص، لكن لا للأشياء المادية، وإنما للمعاني المجردة. والحقائق اللطيفة البسيطة، فسيوزن الخير والشر، والبر والإثم، والفضيلة والرذيلة والإيمان والكفر، والأخلاق والملكات، والنيات والإرادات، والعواطف والهواجس، والأحاسيس والأفعال. والقانون هناك ليس ماديا، وإنما معنويا، وفي ذلك يقول القرآن :

«إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولا».

«يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره»

«لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد».

«يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية».

فنظام الحياة هناك في الآخرة لا ينفع معه المال والجاه والتحالف والأصدقاء والأقرباء وسلاطة اللسان والسعي، بل هناك تبلو كل نفس بما أسلفت. وهذا واضح في القرءان وضوح الشمس، فهناك آيات بهذا الصدد :

«ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون».

«واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون».

«يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم»

«يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذ يغنيه».

ونظام الآخرة مبنى على الجزاء بالعدل والقسط، فقد ينال فيه كل إنسان ما يستحقه من حسن أو قبح، فالقرءان يقول :

«أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار».

«أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون».

«وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين».

وخلاصة القول، فإن القرءان قد عنى عناية خاصة بإرساخ فكرة الاعتقاد بأن الدنيا إنما هي منزل مؤقت، وأن الآخرة هي دار القرار «من عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد»، وأن الذي يغتر بمظاهر هذه الدنيا ويفتتن بلذاتها، فإنما يضيع على نفسه نعيم الحياة الأخرى ولذاتها، فالقرآن يقول: «قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير للمتقين».

«أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل».

«بل تؤثرون ثالحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى».

«كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».

«أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين و القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله».

حقا أسلوب قرآني مؤثر بأبلغ أسلوب بياني يؤثر الآخرة على الدنيا، والتضحية بالمنافع الدنيوية للحصول على السعادة الأبدية في الأخرى. إن حكمة الله العادلة يوم القيامة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، لأن الإنسان تسجل عليه أعماله الصغيرة والكبيرة، فالكتاب الذي يعرض عليه لا يفلت صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» وقد توضع أعماله في ميزان القسط، سيئاته في كفة، وحسناته في كفة «فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية، وما أدراك ماهية، نار حامية»، «ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضرا»، والأدهى من هذا أن الإنسان يشهد عليه جلده وتشهد عليه جوارحه، فهو يشهد على نفسه بنفسه، قال تعالى: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون». وقال جلت قدرته: «حتى إذا جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعلمون، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول

مرة وإليه ترجعون ، ومـا كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولاجلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون»، وقـال سبحانه : «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقـه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا».

ما أعظم القرءان في أسلوبه عن الآخرة، «تقشعـر منه جلود الذين يخشون ربهم»، قال صلى الله عليه وسلم «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وقال أيضـا «ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينـة وغشيتهم الـرحمة وحفتهم الملائكـة وذكرهـم الله فيمن عنـده» مـا أعظم القـرءان في أسلوبه عن دنيانا وعن اليوم الآخر.

تــلاوة القــرآن

القرآن كتاب اللـه «الذي لا ياتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه، تنـزيل من حكيم حميد»، عجزت عنه أهل الأفكار بما فيه من القصص والأخيـار، فيه سلوك النهج القويم، والطريق إلى صراط مسقيم، فصلت فيـه الأحكام، وفـرق بين الحلال والحرام، هـو الضياء والنـور والنجـاة، فيه شفـاء الصـدور، وهو حبل اللـه المتين، ونوره المبين، لا تنقضي عجـائبه، ولا تنتهي غـرائبه، أرشـد الأولين والآخرين، أقبل عليـه البشر، وسمعه الجن فولـوا إلى قومهم منذرين «قـالوا ياقومنـا إنا سمعنا قـرءانا عجبا يهدي إلى الرشـد فآمنا به ولن نشرك بـربنا أحدا»، من تمسك به فقـد هدي إلى صراط مستقيم، «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» من أسباب رعايته حفظه في المصاحف والصدور، والمواظبة على دراسته مع مراعاة شروطه وآدابه. قال صلى الله عليه وسلم «أقل عبادة أمتي تلاوة القرآن» وقال أيضا «خيركم من تعلم القرءان وعلمـه» وقال أيضا: «يقول اللـه تبارك وتعالى من شغله قـراءة القرءان عن دعائي ومسألتي، أعطيته أفضل ثـواب الشاكرين» وعنه صلى الله عليـه وسلم «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فقيل يارسـول الله، وما جلاؤها ؟ فقال: تـلاوة القرءان وذكر الموت». وقال أحمد بن حنبل: رأيت اللـه عز وجل في المنـام فقلت: يارب مـا أفضل ما تقـرب به المتقـربون إليك، قـال: بكلامي يا أحمد، قال، قلت: يـارب بفهم أو بغير فهم ؟ قال: بفهم وبغير فهم. وقال الفضيل بن عياض: حامل القرآن حامل رايه الإسلام، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن.

والحامل لكتاب الله عليه أن لا يغفل عليه، وقد وردت أحاديث في ذم الغافلين، قال صلى الله عليه وسلم «ما آمن بـالقرآن من استحل محارمه» وقال أيضا إقـرإ القرآن ما نهاك، فإن لم ينهك فلست تقرؤه» وقـال أيضا «أكثر منافقي هـذه الأمة قراؤهـا». وقال أنس بن مالك: رب تال للقـرآن والقرآن يلعنه. وقال أبو سليمان الـداراني: الربانية أسرع إلى حملة القرءان الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبادة الأوثان حين عصـوا الله تعالى بعد القرآن. وقال ابن مسعـود، ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينـامون، وبنهاره إذا الناس يفرطـون، وبحزنه إذا الناس يفرحـون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمتـه إذا الناس يخوضون. وبخشوعـه إذا الناس يختالـون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا لينا وليس له أن يكون جافيا ولا مماريا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا. وقال بعض

السلف : إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، فقيل له وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه وإلا لعنته . والقرءان له آدب في قراءته ، فهناك عشرة شروط :

الأول : في حال القاريء ، وهو أن يكون على وضوء في هيئة المتأدب مع السكون جالسا أو قائما . مستقبل القبلة ، جالسا كجلوس التلميذ أمام أستاذه ، وإن كانت القراءة في المسجد فهي أفضل ، ولا بأس إن قرأ مضطجعا ، قال تعالى «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض» ، قال سيدنا علي كرم الله وجهه : من قرأ القرءان وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ، ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمس وعشرون حسنة ، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات ، وما كان من القيام بالليل فهو أفضل ، لأنه أفرغ للقلب .

الثاني ، في مقدار القراءة ، والقراء عاداتهم مختلفة في الاستكثار أو الاختصار ، فمنهم من يختم القرآن في يوم وليلة ، وبعضهم مرتين ، وبعضهم في شهر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه» ، وقالت عائشة رضي الله عنها لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا «إن هذا ما قرأ القرءان وما سكت» ، وكان جماعة من الصحابة منهم عثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وابن كعب يختمون القرآن في كل جمعة .

والتفصيل في مقدار القراءة إن كان من العابدين السالكين فلا ينقص عن ختمتين في الأسبوع ، وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر ونشر العلم فلا بأس أن يقتصر على أسبوع ، وإن كان نافذ الفكر في معاني القرءان فقد يكتفي في الشهر مرة نظرا لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل .

الثالث ، في وجه القسمة ، روي أن عثمان رضي الله عنه كان يفتح ليل الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الإثنين بطه إلى طسم ، موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمان ، ويختم ليلة الخميس . وقيل أحزاب القرءان سبعة ، فالحزب الأول ثلاث سور ، والحزب الثاني خمس سور ، والحزب الثالث سبع سور ، والرابع تسع سور ، والخامس إحدى عشر سورة ، والسادس ثلاث عشرة سورة ، والسابع المفصل من ق إلى آخره ؛ هكذا حزبه الصحابة رضوان الله عليهم .

الرابع ، في الكتابة ، يستحب تحسين الكتابة وتبيانها وتزيينها مع الحذر من الخطأ واللحن في القراءة .

الخامس ، الترتيل ، وهو معين على التفكر في كتاب الله ، والتوءدة فيه تعني التوقير والاحترام ، وذلك أشد تأثيرا في القلب من السرعة والاستعجال ، قال ابن عباس رضي الله عنه : لإن أقرأ إذا زلزلت والقارعة وأتدبرهما . أحب إلي من أن اقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا .

السادس، البكاء، وهو مستحب مع القراءة قال صلى الله عليه وسلم «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكو فتباكوا».

السابع، مراعاة الآيات، هناك آيات السجود تستوجب السجود، سواء قرأها القاريء أو سمعها من غيره، وهذا السجود لا يكون إلا عن طهارة، وفي القرءان أربعة عشر سجدة، وأقل السجدة وضع الجبهة على الأرض وأكمله أن يكبر ويسجد، ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها، فمثلا قرأ قوله تعالى «خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون» يقول في سجوده : اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك. ويشترط في السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث.

الثامن، التعوذ عند بدء القراءة، كأن يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم «رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون» وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الفاتحة، وعند الختم من القراءة يقول : صدق الله العظيم، وبلغ رسوله المصطفى الكريم، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه. الحمد لله رب العالمين، وأستغفر الله الحي القيوم. وإذا مر بآية تسبيح سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا استغفر، وإذا مر بمرجو سأل أو بمخوف استعاذ. قال حذيفة : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأ بسورة البقرة، فكان لا يمر بآية إلا سأل، ولا بآية عذاب إلا استعاذ، ولا بآية تنزيه إلا سبح، فإذا فرغ قال ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم عند ختم القرآن «اللهم ارحمني بالقرآن، واجعله لي إماما ونورا وهدى ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله لي حجة يارب العالمين». التاسع، الجهر بالقراءة، جائز إلى حد أن يسمع نفسه على الأقل، فأما الجهر به لدرجة أن يسمعه غيره فهو محبوب على وجه، ومكروه على وجه آخر. قال صلى الله عليه وسلم «فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية» وفي لفظ آخر «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر به كالمسر بالصدقة» وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته ـ وكان حسن الصوت ـ فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض صوته، فقال الغلام، إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب، فرفع سعيد صوته وقال : ياأيها المصلي، إن كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته، فلما سلم أخذ نعليه وانصرف، وهو يومئذ أمير المدينة. ويدل على استحباب الجهر ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك. وقال : «إذا قام أحدكم من الليل يصلي فإن بالقراءة، فأين الملائكة وعمار الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته» ومر صلى الله عليه وسلم على ثلاثة من أصحابه رضوان الله عليهم مر على أبي بكر رضي الله عنه وهو يخافت، فسأله عن ذلك فقال : إن الذي أناجيه هو يسمعني. ومر على

عمر رضي الله عنه وهـو يجهر، فسأله عن ذلك، فقال أوق الوسنان وأجـزر الشيطان. ومر على بلال وهو يقـرأ آيات من هـذه السورة وآيـات من هذه السـورة، فسأله عن ذلك، فقـال : أخلط الطيب بالطيب، فقال صلى الله عليه وسلم «كلكم قد أحسن وأصاب».

العاشر، تحسين القراءة وتـرتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفـرد يغير النظم، قال صلى الله عليه وسلم «زينوا القرآن بأصواتكم». واستمع صلى اللـه عليه وسلم ذات ليلة إلى عبدالله بن مسعود ومعه أبو بكـر وعمر رضي الله عنهما فوقفوا طـويلا، ثم قال : «من أراد أن يقرأ القرآن غضـا طريا كما أنزل، فليقرأه على قـراءة ابن أم عبد»، وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « إقـرأ علي، فقال : يا رسول الله، أقـرأ عليك وعليك أنزل، فقال صلى الله عليـه وسلم : إني أحب أن أسمعه من غيري، فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليـه وسلم تفيضان. ولكي يكون تأثير تلاوة القرآن على الباطن يجب فهم أصل الكلام وعظمته وعلوه ولطف الله سبحانه وتعـالى بخلقه في نزوله على عرش جلاله إلى درجـة إفهام خلقـه. ثم التعظيم للمتكلم، فـالقـاريء للقرآن ينبغـي أن يحضر قلبه. وأن يحضر فيـه عظمة المتكلـم، ويعلم أن ما يقـرؤه ليس من كلام البشر، وأن تـلاوته هي كـلام الله عز وجـل، وأنه سبحانـه وتعالى يقول «لا يمسه إلا المطهـرون»، فإذا حضر بباله العرش والكـرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجـار فليعلم أنه ربي سبحانه وتعالى هـو خالقها، وأن الكل في قبضته وتحت قدوته، وهذا غاية العظمة والتعالي.

وحضور القلب وترك حديث النفس ضروري، قال تعـالى «يا يحيى خذ الكتاب بقوة». أي بجد واجتهاد، ومنصرف الهمة إليه. كان بعض السلف إذا قرأ آية ولم يكن قلبه معها أعادها ثانية.

أما التدبير، فهو المقصود من القراءة، ولـذلك سن الترتيل، قال علي كرم الله وجهه : لا خير في عبادة لا فقـه فيها ولا في قراءة لا تدبـر فيها. ويروى أنـه صلى الله عليه وسلم «قرأ بسم اللـه الرحمان الرحيم، فرددها عشريـن مرة» وإنما رددها صلى الله عليه وسلم لتدبره في معـانيها، عن أبي ذر قال. قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي «إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم» الآية. وحكي عن أبي سليمان الـداراني أنه قال : إني لأتلـو الآية فأقيم فيهـا أربع ليال أو خمس، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها. ثم التفهم والاستيضاح لكل آية آية، حيث أن القرآن يشتمل على ذكر صفـات الله عز وجل وذكر أفعـاله، وذكر أحـوال الأنبياء، وذكر الأوامر والـزواجر، وذكر الجنـة والنار. قـال ابن مسعود رضي اللـه عنه : من أراد علـم الأولين والآخـرين فليوثـر القرآن. وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عـز وجل وصفاته إذ لم يدركها عدد من خلقـه، ومن لا يزال ينظر إلى الصنعـة فقد يـرى الصانع. ثم هنـاك التخلي عن موانع الفهم، حيث أن عـددا من الناس منعـوا لمعاني القرآن بسبب حجب أسدلها الشيطان على قلـوبهم فعميت عليهم عجائب القرآن وأسراره، قال صلى الله عليـه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلـوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت» والقـرآن هو من جملـة معاني الملكـوت. وهنـاك أيضـا التخصيص، يعني أن يعلم أنـه المقصود بكل خطـاب في القرآن، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفـائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، أما التأثير

ـ وهو أن يتأثر القلب بآثار مختلفة حسب اختلاف الآيات ـ فلكل فهم حال ووجد يتصل به القلب من الحزن والخوف والرجاء وغيره، ومهما تمت معرفته كانت الخشية، قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكثر نصبه وشغله وقت راحته وبطالته. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ علي، قال : فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيد» رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي : حسبك الآن» وهذا لأن تلك المشاهدة استغرقت قلبه كلية.

ثم هناك الترقي، وهو أن يترقى بسمعه الكلام من الله عز وجل لا من نفسه، قال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه : والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون. وسألوه عن لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه، فلما سري عنه قيل له في ذلك فقال : مازلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته.

وأخيرا التبري ـــ وهو أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية، قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : وعد ابن ثوبان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخوه من الغد فقال له : وعدتني أنك تفطر عندي فأخلفت، فقال : لولا ميعادي معك ما أخبرتك، الذي حبسني عنك ! إني لما صليت العتمة، قلت، أو تر قبل أن أجيئك لأني لا آمن ما يحدث من الموت، فلما كنت في الدعاء من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة، فمازلت أنظر إليها حتى أصبحت. إن هذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري من النفس وعدم الالتفات إليها والي هواها. وعلى أي حال فإن أحوال المكاشفات تكون حسب تلاوة الآية، فمثلا آية الرجاء يغلب فيها الاستبشار وتنكشف صورة الجنة فكأنه يراها، وآية الخوف والتحذير فيها الخوف والكشف عن النار فيرى أنواع عذابها، وقس على هذا المثال في آيات الرحمة واللطف والانتقام والبطش، كل ذلك حسب الكلمات والصفات أثناء تلاوة القرآن.

التـوحيـد

التوحيـد هو الأصل في حقيقة التوكل، والتـوكل فضائله متجليـة في آيات كثيرة، منها قولـه عز وجل «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» وقوله تعـالى «إن الله يحب المتوكلين» وقوله جلت قدرته «من يتوكل على الله فهو حسبه» وقوله سبحانه «ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم».

فاللـه حكيم عزيـز لا يذل من استجـار به، ولا يضيـع من لاذ بجانبـه، قال تعالى «إن الـذين تدعون من دون اللـه عباد أمثالكم»، إن ما سـوى الله عبد مسخر، حاجتـه مثل حاجتكم، فكيف يتوكل عليـه وهو في أشد الحاجة إلى الله، وقـال عز وجل «إن الذين تعبدون مـن دون الله لا يملكون لكم رزقا، فابتغوا عند الله الرزق واعبـدوه»، وفي الأخبار عما رواه ابن مسعود قال قال صلى الله عليه وسلـم «أرأيت الأمم في الموسم، فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيأتهم، فقيل لي: أرضيت؟ قلت: نعم، قيل، ومع هـؤلاء سبعون ألفا يـدخلون الجنـة بغير حساب. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسرقون، وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة وقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهـم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهـم اجعله منهم» فقام آخر وقال: يا رسـول الله، ادع أن يجعلني منهـم، فقال صلى الله عليه وسلـم «سبقك بها عكاشـة»، وقال صلى الله عليه وسلـم «لو أنكم تتوكلون على اللـه حق توكله لـرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتـروح بطانا». وقرأ الخواص قولـه تعالى «وتوكل على الحي الذي لا يمـوت» إلى آخرها، فقال: مـا ينبغي للعبد بعد هذه الآيـة أن يلجأ إلى أحد غير الله تعـالى. وقال بعضهـم: متى رضيت الله وكيلا، وجدت إلى كل خير سبيلا.

والتوكل مـن أبواب الإيمان، وكل أبواب الإيمان لا تتم إلا بعلـم وحال وعمل. والتوكـل كذلك ينتظم من علم هو الأصل، وعمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكل.

فالعلم الذي هـو الأصل، والمسمى إيمانا في أصل اللسان، والإيمان هو التصـديق، والتصديق بالقلب علم، وإذا أصبح قويـا سمي يقينا، ولليقين أبواب كثيرة، نأخذ منها مـا نبني عليه التوكل، وهو التوحيد الذي تترجمه «لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

قلنا إن التوحيد هو الأصل، وهو من علم المكاشفة، وله أربعة مراتب، وهو لب، ولب اللب، وقشر، وقشر القشر.

فـالرتبـة الأولى ، أن يقول الإنسـان بلسانـه «لا إلاه إلا الله» وقلبـه غافل أو منكـر . والثانيـة أن يصـدق بمعنى اللفظ كما هو اعتقـاد العـوام . والثالثـة مشاهـدة ذلك بطـريق الكشف ، وهو مقـام المقربين . والرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحد ، وهـي مشاهدة الصديقين ، وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد ، قال تعالى «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه»

وقد يتبـادر إلى الذهن عنه سبحـانه وتعالى كيف لا يرى في الـوجود إلا وحده ، وقـد نرى السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسـة وهي كثيرة لا حصر لها ، فكيف يكون الكثير واحدا ؟ إن ذلك هو غاية المكاشفات ، قال أبو حامد الغزالي رحمه الله ، «أسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب ، فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوبية كفر» . كم نلاحظ من إنسان يشاهد آخر ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطـرافه وأعضائه ، والحالة أنه مستغـرق بواحد ليس فيه تفـريق ، وكأنه عين الجمع ، فكذلك كل ما في الوجود من الخالق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحد . وهذه المشاهدة التي لا يكون فيها إلا الواحد الأحد قد تدوم وقد تكون كالبرق الخاطف وهو الأكثر ، وقد أشار إلي هذا الحسين بن منصـور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفـار فقال له ، فبماذا أنـت ؟ قال أدور في الأسفار لأصحح حـالتي في التوكل ـــ وقد كان من المتوكلين ـــ فقال الحسين : قـد أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفنـاء في التوحيد ؟ وكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثـالث من التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع .

والمقام الثالث الذي يبني عليه التـوكل ، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله ، وأن كل عطاء ومنع وغنى وفقـر وحياة وموت إلى غير ذلك ، كل ذلك بيـد الله عز وجل ، لا شريك لـه فيه ، فإذا انكشف لك هذا لم تنظـر إلى غيره ، بل كان منه خـوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليـه توكلك ، وانفتحت إليك أبواب المكاشفة واتضح لك ذلك أتم من المشاهدة بالبصر ، وقد يصدك الشيطان عن هـذا التوحيـد صدودا في مقـام يـرجو بـه أن يطـرق إلى قلبك شائبـة الشرك ، كأن يجعلك تلتفت إلى اعتمادك على المطر في خروج الزرع ، وعلى الغيم في نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع الغيم ، وهذا شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور . قال تعـالى : «فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم البر إذا هم يشركون» قيل معناه ، أنهم يقولن لـولا استواء الريح لما نجونا . فإذا انكشف لك أن جيع ما في السمـوات والأرض مسخرات بإذن الله ، انصرف عنـك الشيطان خائبـا وأيس بسبب عدم مزج توحيدك بهذا الشرك .

إن أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السماوات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقـديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها ، لا يسمعهـا الذين هم عن السمع معـزولـون ، والعجيب كيف تتكلم وتنطق وبماذا تنطق هـذه الذرات التـي خلقها اللـه في الأرض والسماوات وهي تسبح بحمـــده ؟ فعليك أن تعلم كل ذرة مع أربـــاب القلـوب منـــاجـاة في السر ، وذلك مما لاينحصر ولا يتناهى ، وأنها كلمات تستمد من بحـر كلمات الله التي لا نهاية لها ، قال تعالى «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفـذ البحر» إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء

السر في ذلك لؤم، إن صدور الأحرار قبور الأسرار، قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا».

نعود إلى أبواب الإيمان التي ذكرنا منها العلم الذي هو الأصل، ونذكر الثاني فيها الذي هو الحال، وتتفاوت درجته في شدة الثقة والطمأنينة حسب تفاوت قوة اعتقاده، والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه، فتعلم أنه ليس وراء منتهى قدرته، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى غايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، فاتكل لا محالة قلبك عليه ولم يلتفت إلى غيره، قائلا لا حول ولا قوة إلا بالله.

أما إن ضعف الحال فقد يكون ذلك إما بضعف القلب أو ضعف اليقين، فالتوكل إذن لا يتم إلا بقوة القلب وقوة اليقين، إذ بهما تحصل السكينة والطمأنينة.

وسئل سهل عن التوكل: ما أدناه؟ قال: ترك الأماني. قيل: وأوسطه؟ قال ترك الاختيار، وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال: لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه. وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب. فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال. وقال إمام مسجد لبعض المصلين: من أين تأكل؟ فقال: يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك. وقد روي أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا، ثم قال: في سبيل الله تعالى، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين، فجاءه رجل وقال: يا أبا عبدالرحمن، إن ناقتك في مكان كذا، فلبس نعله وقام ثم قال: استغفر الله وجلس، فقيل له: ألا تذهب فتأخذها؟

فقال: إني كنب قلت في سبيل الله. وقيل لآخر، ادع الله على ظالمك، فقال: ما ظلمني أحد، ثم قال: إنما ظلم نفسه، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا وسرق من علي بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن، فقال: أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا، ولكن على المسكين إن سئل يوم القيامة ولا تكون له حجة. تلكم أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين.

تقوية الإيمان

قال تعالى « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور» وقال أيضا «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» . إن المؤمن إذا أنار الله قلبه نطق لسانه بتوحيده ، وعرف ربه ، وصدق وعده ، وذهب عنه الشك . وابتعد عن الشرك والغفلة ، وتيقظ وأيقن وأخلص ، وبدل الغفلة باليقظة ، والشك باليقين ، والشرك بالإخلاص . فتبقى الشهوة والرغبة والرهبة والغضب ، حتى إذا ما ازداد إيمانا نقصت الشهوة ونقص الغضب ونقصت الرغبة والرهبة . واستنارت معرفته كالشمس تشرق في قلبه بالأسحار فتبدو له الأشياء معنيه فيتخلص القلب حينئذ من الأسباب إلى ولي الأسباب ، قال صلى الله عليه وسلم »من أحب لله ، وأبغض لله ، ومنع لله ، وأعطى لله ، ونصح لله ، فقد استكمل الإيمان» ، وقال صلى الله عليه وسلم لسلمان رضي الله عنه «قل اللهم إني أسألك صحة الإيمان ، وإيمانا في حسن خلق ، ونجاحا يتبعه فلاح ، ومغفرة منك ورحمة ورضوانا» . وقال الحسن البصري رحمه الله في تفسير قوله تعالى : «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه» قال : غير مستكمل الإيمان : «فأولئك لهم الدرجات العلي ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكي» أي تطهر من الأسباب ، وتلك درجة الصديقين وهم رفقاء الأنبياء ، ومن هنا قالوا بزيادة الإيمان ، وأن النور الذي يزيادة العبد بربه معرفة به إيمانا كالشمس .

والمؤمن إذا آمن ودخل في ولاية الله وحزبه صار سعيدا فحرم على نفسه الدماء والأعراض والغيبة والبهتان والزور والتجسس وسوء الظن وهتك الستر وطلب العورات والجهر بالسوء والأذى ، وحرم على نفسه الزنا والخمر والربا إلى غير ذلك من الموبقات ، فأدى الصلوات الخمس والجمعة ، وأدى الزكاة والحج ودعا إلى صلة الرحم والجهاد والبر بالوالدين والإحسان إلى الجار وإلى ذوي القربى ، والصاحب بالجنب إلى غير ذلك .

والعبد قلبه أغلف ، فإذا كان ممن خلقه الله للرحمة وسبقت له منه الحسنى جعل له نورا و صدق عليه قوله تعالى «أو من كان ميتا فأحييناه» أي بذلك النور، وهو قوله تعالى « وجعلنا له نورا يمشي به في الناس» ، فصار القلب بلا غلاف وأذن له ربه بالإيمان فقال : «وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله» فذكر سبحانه وتعالى الإذن للنفس ، ثم ذكر القلب فقال : «حبب إليكم الإيمان وزينة في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان» فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل ، وذكر فعل النفس

أنها قد آمنت وبهاذا آمنت ، فخرج القلب من الغلاف كسحابة انشقت عن شمس فاستنار، وسمع عن الله تعالى وأبصر الغيب فصار مجتبي ، وذلك قوله تعالى «هو اجتباكم» فصار موسوما بسمة الله ، وهو ذلك النور الذي أصابه ، فأسلم وجهه لله ، ومن أسلم وجهه لله فقد أسلم إليه بكليته ، قال تعالى «هو سماكم المسلين» أي في اللوح المحفوظ وفي هذا» يعني القرءان : «ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس» . وقال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سأله عن الإحسان . فقال : أن تعبد الله كأنك تراه» وقال في حديث آخر «إن أقواما أيقنت قلوبهم ، حتى كأنهم عبدوا الله على رؤية . قال تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» .

والمؤمن يبني إيمانه على أربعة أركان .

فالأول معرفة ذات الله ، ومدارها على عشرة ، وهي العلم والقدم والبقاء ، وأنه سبحانه وتعالى ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ، وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقرا على مكان ، وهو سبحانه واحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد .

والثاني صفاته وتشتمل على عشرة أصول ، وهي العلم بكونه حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما ، منزها عن الحوادث ، وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة .

والثالث أفعاله تعالى ومدارها عشرة أصول ، فهي أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد ، وهو سبحانه متفضل بالخلق والاختراع ، وله تعالى تكليف مالا يطاق ، وأن له الرعاية ، وأن بعثه الأنبياء جائز، وأن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة ومؤيدة بالمعجزة .

والرابع السمعيات ومدارها على عشرة أصول ، وهي إثبات الحشر والنشر والسؤال وعذاب القبر والميزان والصراط والجنة والنار وأحكام الإمامة وشروطها وفضل الصحابة حسب ترتيبهم .

فأما الأول وهو معرفة ذات الله سبحانه وتعالى ، وقد قلنا مدارها عشرة أصول ، وهي :

الأصل الأول معرفة وجوده سبحانه وتعالى : وهو القائل في محكم كتابه «ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أو تادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا» وقوله تعالى «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» ، وقوله تعالى «ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا» . إنه من خلال هذه الآيات ومضمونها يتجلى العجب والترتيب المحكم فيما ورد ، وأنه لا يستغني عن صانع هو مدبره وفاعله يحكمه بقدرته ، وأن فطرة النفس تجد نفسها مقهورة أمام هذا الخلق والتسخير.

والأصل الثاني العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل، وأزلي ليس لوجوده أول، هو صانع العالم ومحدثة ومبدعه.

والأصل الثالث ليس لوجوده آخر، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وما ثبت قدمه استحال عدمه.

الأصل الرابع، وهو سبحانه ليس بجوهر يتحيز، بل يتعالى ويتقدس.

الأصل الخامس، وهو سبحانه ليس بجسم مؤلف من جوهر.

الأصل السادس، وهو سبحانه ليس بعرض قائم بجسم. أو حال في محل، لأن العرض ما يحل في الجسم، فهو ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام، فهو سبحانه لا يشبه شيء، بل هو الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء.

الأصل السابع، وهو سبحانه وتعالى منزه الذات من الاختصاص بالجهات، فهو فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء.

الأصل الثامن، وهو سبحانه وتعالى مستو على عرشه بالمعنى الذي أراده بالإستواء، ولا يتطرق إلى ذلك سمات الحدوث والفناء، وهو الذي أريد بالإستواء إلى السماء حيث قال «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء، واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل، كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى «وهو معكم أينما كنتم» حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم، وليس الاستواء بمعنى الاستقرار.

الأصل التاسع، وهو سبحانه وتعالى مع كونه منزه عن الصورة والمقدار، مقدس عن الجهات والأقطار مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة، بدليل قوله: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»، ولا يرى في الدنيا تصديق لقوله «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار».

الأصل العاشر، وهو سبحانه وتعالى واحد لا شريك له، انفرد بالخلق والإبداع، وهو المختص بالإيجاد والاختراع، وهو القائل «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا».

وأما الثاني وهو العلم بصفاته سبحانه وتعالى، وقد قلنا أن مدارها عشرة أصول هي: الأصل الأول، أنه سبحانه وتعالى صانع العالم قادر، وهو القائل في محكم كتابه «وهو على كل شيء قدير».

الأصل الثاني، أنه سبحانه وتعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات، وهو القائل في محكم كتابه «لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء».

الأصل الثالث، أنه سبحانه وتعالى حي، حيث أن من ثبتت قدرته وثبت علمه ثبتت بالضرورة حياته.

الأصل الرابع، أنه سبحانه مرد لأفعاله، فهو المبديء المعيد، والفعال لما يريد.

الأصل الخامس، أنه سبحانه وتعالى سميع بصير لا يعزب عنه شيء، فهو يعلم خفايا الأمور والتفكير ولا يشد عن سمعه دبيب نملة.

الأصل السادس، أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام، وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف، وكلامه لا يشبه كلام غيره، كما لا يشبه وجوده وجد غيره.

الأصل السابع، أنه سبحانه وتعالى قائم بنفسه قديم، وكذا جميع صفاته، لا تعتريه التغيرات ولا تحله الحوادث، بل لم يزل في قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولا يزال في أبده.

الأصل الثامن، أنه سبحانه وتعالى قديم لم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته. ومهما حدثت المخلوقات فقد حصلت مكشوفة له بعلم أزلي.

الأصل التاسع، أنه سبحانه وتعالى إرادته قديمة، وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق العلم الأزلي.

الأصل العاشر، أنه سبحانه وتعالى عالم بعلم، حي بحياة، قادر بقدرة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة.

وأما الثالث وهو العلم بأفعاله سبحانه وتعالى، وقد قلنا أن مدارها عشرة أصول هي:

الأصل الأول، أن كل حادث في العالم هو فعله وخلقه واختراعه، وأن جميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته. تصديقا لقوله تعالى «وأسروا قولكم أو اجهروا به، إنه عليم بذات الصدور، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير».

الأصل الثاني، أن انفراده سبحانه وتعالى باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا، فأما القدرة فوصف للعبد، وخلق للخلاق، وليست بكسب له. وأما الحركة فخلق للخلاق ووصف للعبد وكسب له، فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه، وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة، فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا.

الأصل الثالث، أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه، فلا يجري في الملك والملكوت شيء طرفة عين إلا بقضاء الله وقدره وإرادته الإرادة لقضائه وقدره ولا معقب لحكمه، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون».

الأصل الرابع، هو أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع وتكاليف العباد، ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه، إذ هو الموجب والآمر والناهي.

الأصل الخامس، أنه يجوز على الله سبحانه وتعالى أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه كقوله تعالى في محكم الكتاب «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به».

الأصل السادس، أن لله إيلام الخلق وتعذيبهم.

الأصل السابع ، أنه سبحـانه وتعالى يفعل بعباده ما يشـاء ، فهو القائل «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» .

الأصل الثامن ، أن معرفة الله وطاعته واجبة بإيجاب الله سبحانه وتعالى وشرعه .

الأصل التاسع ، أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام .

الأصل العاشر، أنه سبحانه وتعالى قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيئين ، وناسخا لما قبله من الشرائع ، وأيده بالمعجزات الباهرة كانشقاق القمر وتسبيح الحصى وانطاق العجماء وتفجير الماء بين أصابعه ، وإعجاز القرآن .

وأما الرابع وهو السمعيات وقلنا أن مدارها عشر، وهي :

الأصل الأول ، وهـو الحشر والنشر، وقـد أوردهما الشرع والتصديـق بهما واجب ، قال تعـالى «مـا خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحد» .

الأصل الثاني ، سواء منكر ونكير، وقد وردت به الأخبار، فيجب التصديق به ، لأنه ممكن .

الأصل الثالث ، عذاب القبر، وقد ورد الشرع به ، فقال تعالى «النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» .

الأصل الـرابع ، الميزان وهـو حق ، قال تعالى «ونضـع الموازين القسط ليوم القيـامة» وقـال تعالى «فمن ثقلت موازينـه فأولئك هـم المفلحون ، و من خفت موازينـه فأولئك الذين خسرو أنفسهم . . . الآية» .

الأصل الخامس ، الصراط ، وهـو جسر ممـدود على متن جهنم ، أرق من الشعـرة وأحـدّ من السيف ، قال تعالى «فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسؤولون» .

الأصل السادس ، أن الجنـة والنار حق ، قال تعـالى «سارعـوا إلى مغفرة من ربكـم وجنة عـرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين» .

الأصل السابع ، أن الإمام الحق بعـد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبـو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم .

الأصل الثامن ، أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على ترتيبهم في الخلافة ، إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل ، وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل التـاسع ، أن شرائط الإمـامة بعـد الإسلام والتكليـف خمسة : الـذكـورة والـورع والعلم والكفاية والإمامة من قريش نسبة لقـوله صلى الله عليه وسلـم «الأئمة من قريش» . وإذا اجتمع عدد الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق .

الأصل العاشر، أنه لـو تعذر الورع والعلم فيمن يتصدى لـلإمامة ، وكان في صرفـه إثارة فتنة لا تطاق ، حكمنا بانعقاد إمامته .

فهذه الأركان الأربعة الحاوية لـلأصول الأربعين، هي من قواعد عقائد المؤمن، وبها يقتضي أهل السنة، قال صلى الله عليه وسلم عنـدما سئل «قيل أي الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإسلام، فقيل أي الإسلام أفضل ؟ فقال صلى الله عليـه وسلـم الإيمان»، وقال صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضع وسبعون بابا، أدناها إماطة الأذى عن الطريق».

النيـــة

النية لغة النهوض، يقال ناء ينوء ـ أي نهض ينهض.

فالقلب يرتحل إلى اللـه عز وجل حتى يصل إلى المنتهى إن كان له طريق، فإن حبس في الطريق فلتهمة وسـوء أدب منع وانسد الطـريق، فعلى أي حال نهض من مكـانه إن وجـد الطريق أم لم يجد، وخاطب الجارحة التي تعمل ذلك العمل بأن تتحرك بحـركاتها قـائلا إني واقف على الباب أبتغي من ربي عز وجل مرضاته. تلك هي النية.

والناس في نياتهم على درجات حسب تفاوت عقولهم، روي عن الله عز وجل قال: «يا موسى، إنما أجزي النـاس على قدر عقولهم»، وقال قـائل، صف لنا كيف التفاوت على قدر العقـول؟ قال: مثل رجل دخل المسجد فـوجد الصف الأول قد قـام، فوقف في الصف الثاني، فقـد سقط من درجة الصف الأول. والصف الأول درجتـه كما قـال رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم «إن الله ومـلائكتـه يصلون على الصف الأول»، ومن وقف في الصف الثاني عن غفلـة لم ينل من صلاة المولى شيئا، اللهـم إن نـوى أنه لـو وجـد مكانـا لـدخل في الصف الأول، فبهذه النيـة استـوى بالصف الأول، ولـه مثل أجورهم لما نـوى أنه مقيم فيهم، أو تمنى أن يدخل في الصفـوف ليصل إلى الصف الأول، لكنه امتنع وتحرج مخافة أن يـؤذي الناس أو يضيق عليهم، فإنه يـأخذ ما لأجـر الصف الأول وزيادة. وروي عن رسول اللـه صلى الله عليه وسلم في شأن النية والتقـوى فقال «أحدثكم حـديثا فاحفظوه، إنما الـدنيا أربعـة نفر. عبـد رزقه اللـه عز وجل فيهـا مـالا وعلما، فهو يتقي اللـه عز وجل، ويصل رحمه فيـه، ويعطي لله عز وجل منه حقه، فهو بأفضل المنازل. وعبـد رزقه الله عز وجل علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية، يقول لو أن لي ما لا لعملت بعمل فلان، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله عز وجل مالا، ولم يرزقـه علما فهو يتخبط في مالـه بغير علم، فلا يتقي فيـه ربا ولا يصل فيه رحما، ولا يعلم للـه فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل. وعبد لم يرزقه الله عز وجل مالا ولا علما فهو يقول: لو أن لي مالا عملت به بعمل فـلان، فهو بنيته، فـوزرهما سواء» وقال صلى اللـه عليه وسلم «من تـرك الصلاة في الصف الأول مخافة أن يؤذي مسلما أو يزاحم أحدا، فصلى في الصف الثـاني أو الثالث. أضعف الله عز وجل أجره على من في الصف الأول».

أوردنا هذا من أجل تفسير الحديث «إنما أجـزي الناس على قدر عقولهم» ولـذلك قال صلى الله عليه وسلم «لا يعجبنكم إسـلام رجل حتى تعلموا ما عقـدة عقله»، وفي حديث عنه صلى اللـه عليه

وسلم «فالصادقون المخلصون قلوبهم محجوبة بالشهوات» فنيتهم النهوض بالقلب، إذا نهضوا لم يجدوا منفذا، فيقفون حيث بلغوا من الجو، وأما الذين فتح لهم في الغيب، فإن قلوبهم تنهض إلى العلا حتى تبلغ مقامه، فهناك يبتغي مرضاة ربه تعالى، وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه بأثره، فذلك النهوض هو النية، والسابقون الذين وصلوا إلى الله عز وجل في مقامه، يترضى ربه عز وجل، ثم يلحقه العمل على الأثر، فالنيات متفاوتة.

وابن آدم مطبوع على سبعة، وهي الغفلة والشك والرغبة والرهبة والشهوة والغضب، هذه أخلاقه السبعة، فإذا جاء نور الهداية عرف ربه ووحده، فتذهب الغفلة ويذهب الشك والشرك، فهو يعلم الله يقينا بنية صادقة، وينفي عنه الشرك ويزول الشك، ثم لما جاءت الشهوة ألمت الصدر بدخانها وفورانها ذهبت بضوء علمه واستنارته، وتحير في أمر ربه كالشاك، وظهر شرك الأسباب. والعبد كلما ازداد معرفة وعلما بربه استنار قلبه وصدره ونقصت عنه الغفلة وكل الخصال السبع، بعدها يمتلىء صدره بجلال الله وعظمته، فعند ها تحسن النية أكثر وينكشف الغطاء، فيصير يقينا ويزول شرك الأسباب وتموت الشهوة، ويذهب الغضب، وتذهب الرغبة والرهبة، فلا يرغب إلا في الله عز وجل، ولا يرهب إلا منه، ولا يغضب إلا في ذات الله عز وجل ولله، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل.

وقد يتبين لنا الآن مما سلف، أن الذاهب إلى الله عليه بعقد النية الصادقة من غير التواء، لقوله صلى الله عليه وسلم «وإنما لكل امريء ما نوى» وإن علامة النية الصادقة، عدم تغييرها بأعراض فانية وباقية، فاعقد العمل للحق ولا تترك العزم للخلق، واعمل من غير شريك ولا اشتراك، قال صلى الله عليه وسلم «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فلا ترضى بغير الحق ولا ترى ما سواه، واجتنب سعيك للخلق، لقوله صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدينار» فأثمر النية بالقربى، وكن صورة في الدنيا ومعنى في العقبى، وعلى قدر همتك وتركك تحظى من الحديث المشهور «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك من أصحاب القبور»، ووافق الحق بالإتفاق والوفاق، وخالق النفس بالصبر على الفراق والمشاق، والملاذ إلى من يشد له الوثاق «إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون».

التـوبـــة

قال تعالى « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم» .

وقال أيضا «وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون» .

وقال أيضا «إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم» .

وقالوا أيضا «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم» .

وقال أيضا «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه» .

وقال أيضا «ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا» .

وقال أيضا «واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربي رحيم ودود» .

والآيات في باب التوبة كثيرة نكتفي بهذا القدر.

وقال صلى الله عليه وسلم «ياأيها الناس توبوا إلى الله ، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة» .

وقال أيضا «كل بني آدم خطاء ، وخير الخطابين التوابون» .

وقال أيضا «إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر» أي إذا جاءت الغرغرة بلغت روحه الحلقوم ، ولم يكن عقله ثابتا ، فلا تقبل توبة العاصي ولا إيمان الكافر.

وقال أيضـا «إن الله يبسط يده بـالليل ليتوب مسيء النهـار، ويبسط يده بالنهـار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» .

وقال أيضـا فيما يحكي عن ربه عـز وجل «أذنب عبد ذنبـا ، فقال : اللهم اغفـر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب اغفر لي ذنبي ، فقـال تبارك وتعـالى : عبدي أذنب ذنبـا فعلم أن له ربـا يغفر الذنـب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أيْ رب اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرت لك .

وقـال أيضا «كـان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعـة وتسعين نفسا ، فسأل اللـه عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من من توبة ؟ فقال : لا،

فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عـالم، فأتاه فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى كذا وكذا فإن فيها أناس يعبدون الله، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سواء . فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكـة الرحمة وملائكة العذاب، فقال ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى اللـه تعالى، وقالـت ملائكة العـذاب : إنه لم يعمل خيرا قط، فأتـاهـم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال : قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أدنى فهـو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» .

وعن زر بن حبيش رضي الله عنه قال : أتيت صفوان بن عسال المرادي فقلت : هل حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهوى شيئا ؟ قـال : نعم، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفـاره فناداه رجل أعـرابي جاف جلف كـان في آخر القـوم بصوت جهـوري : يا محمـد يا محمد، فقال له القوم : مه إنك قد نهيت عن هذا، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من صوته : هاؤم، فقال : الـرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال رسول اللـه صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب . قال زر : فما بـرح صفوان يحدثني حتى حـدثني أن الله جعل بالمغـرب بابا عـرضه مسيرة سبعين عاما للتـوبة، لا يغلق مالم تطلع الشمس من قبله، وذلك قول اللـه عز وجل «يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت في إيمانها خيرا» .

والأحاديث في باب التوبة كثيرة نكتفي بهذا القدر.

إن التوبة من الذنوب تعني الرجوع إلى ستـار العيوب وعلام الغيوب، وهي مبدأ طريق السالكين ورصيد الفائزين، ومفتاح الاستقامة ومطلع المقربين، فالتجرد للخير قرب من الملك الديان، والنزوح إلى الشر قرب للشيطـان، والمجتنب للشر بالرجـوع إلى الخير إنسان، فكل عبد يصحح وضعـه إما إلى ملك أو إلى آدم أو إلى شيطـان، فـالتـائب قـد أقـام البرهان على صحـة انتمائه إلى آدم بمـلازمـة حـد الإنسان، والمصر على الطغيان قـد سجل نفسه مع الشيطان، فأما من صحح مسـاره نحو الخير فقد قارب مـلائكة الـرحمن، والشر معجون مع الخير في طينـة آدم لا تخلصه إلا نـار الندم أو نـار جهنم، فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان، فما على الإنسان إلا أن يختار أهون النارين قبل أن يطوى بساط الاختيار، ويساق إلى دار القرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار.

فأفضل مبادرة هي التوبة إلى الله الذي يقبل التوبة عن عباده جميعا، وهي تنتظم في ثلاثة أمور : علم وحال وفعل . فالعلم هـو الأول، والحال هو الثاني والفعل هو الثـالـث، والعلم موجب للحال، والحال موجب للفعل .

والعلم هو معـرفة عظم ضرر الذنـوب، وهي الحجاب بين العبد وكل محبـوب، فإن عرف ذلك معرفة حقة ثار قلبه وتألم بسبب فوات المحبوب وتأسف، فيكون سبب فعله هذا ندما، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعث منـه في القلب حالـة تسمى الإرادة والقصـد إلى فعل له تعلق بـالحال والماضي وبالمستقبل . فأما تعلقه بالحال فهو ترك الذنب الذي كـان ملابسا له، وأما بالاستقبال فهو العزم على

ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما الماضي فتلافي ما فات. وكثيرا ما تعني كلمة التوبة الندم، قال صلى الله عليه وسلم «الندم توبة» وتعني أيضا ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ، وتعني أيضا خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء، وقال سهل بن عبدالله التستري: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال. والأقاويل في معنى التوبة لا تنحسر.

ووجوب التوبة وارد في آيات وأحاديث كثيرة أوردنا بعضها، وواضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله صدره بنور الإيمان، فسعى بنور الله بين يديه من ظلمات الجهل والضلالة.

والسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه، وإما بصير يُهدى إلى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه. ولاشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب الوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه لو لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم، ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلاشك أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، فيكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، وأما من يكن مرشحا بهذه الطريقة ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة، بذلك يختار التائب الطريق، ويندرج تحت قوله تعالى «يأأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا» والنصوح الخالص لله تعالى، الخالي من الشوائب، وفضل التوبة عند الله ما ذكرها في محكم كتابه «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»، وقال عليه الصلاة والسلام» التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له». والندم روح التوبة وبه تمام التلاقي، قد يحصل لا محالاة عقب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله.

وبحكم ما هو مكتوب على الإنسان، ولن تتبدل سنة الله فيه، فإن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره، وإن بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم نفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته للاسترسال وراء الشهوات بالرجوع إلى حدود الله في المنع والانفكاك والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الكثيرون، فدل ذلك على أن التوبة فرض عين في حق كل عبد قبل فوات الأوان، وقبل أن ينكشف الغطاء.

قال بعض العارفين، إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وأنك لا تتأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا، وهذا ما يظهر من معاني قوله تعالى «من قبل أن ياتي أحدكم الموت فيقول ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين، ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها» والمعنى أنه يقول عند انكشاف الغطاء يا ملك الموت أخرني يوما اعتذر فيه إلى ربي وأتوب لنفسي، فيقول له، فنيت الأيام فلا يوم،

فيقول العبد، أخرني ساعة، فيقول له : فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه ويتجرع اليأس والحسرة والندامة على ما ضاع من العمر، فيضرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه وكان سبقت له من الحسنى خرجت روحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقاء والعياذ بالله، خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، وصدق سبحانه وتعالى حين قال «وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن» وقوله جلت قدرته «إنما التوبة على الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب» ومعناه عن قرب عهد الخطيئة بأن يندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن تتراكم فيرين القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «أتبع السيئة الحسنة التي تمحها». وإن ترك مبادرة التوبة بالتسويف - يعني ظلمة القلب بالمعاصي - حتى إذا ما عالجهُ المرض أو الموت لا يجد لنفسه مهلة للاشتغال بالمحو، وقد ورد في الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام. أحدهما : إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا، واستودعتك عمرك، وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني.

والثاني : عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب، وهذا إشارة إلى قوله تعالى «أوفوا بعهدي أوف بعهدكم» وإلى قوله تعالى «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون».

إن القلب خلق في الأصل سليما، وكل مولود يولد على الفطرة، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها. ثم أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، ونور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، والقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون بجواره، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخه، وغسله بماء الدموع وحرقه الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، فالتوبة النصوح هي تزكية وتطهير القلب، قال صلى الله عليه وسلم «كفارة الذنب الندامة»، وسأل رجل ابن مسعود عن ذنب ألم به، هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له : لا يغلق، فاعمل ولا تيأس. وقال عبد الله بن سلام : لا أحدثكم إلا عن بني مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين. وقال عمر رضي الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة. وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لي. قيل متى؟ قال : إذا تاب عليّ. ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرآى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال : إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا : احببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك. وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا. فجنوا من غير جنون، وتبلدوا من غير عي ولا بكم، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا

بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت، وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم، وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهدى حتى نزلوا بفناء العلم، واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة.

وصفات أخلاق الإنسان كثيرة، ولكنها تنحصر في أربع صفات من مثارات ذنوبه: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية، وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة.

فصفات الربوبية يتشعب عنها الكبر والفخر والجبرية والمدح والثناء والعز والغنى ودوام البقاء وطلب الاستعلاء، ومن هنا تتشعب كبائر الذنوب والمهلكات. وأما الصفات الشيطانية، فيتشعب عنها الحسد والبغي والحيلة والخداع والفساد والمنكر والغش والنفاق والبدع والضلال.

وأما الصفات البهيمية فيتشعب عنها الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج من زنا ولواط وسرقة وأكل أيتام وجمع حطام.

وأما الصفات السبعية فيتشعب عنها الغضب والحقد والتجهم والتهجم والشر والقتل واستهلاك الأموال.

وهذه الصفات الأربعة لها تدريج فطري، فقد تكون الصفة البهيمية أولا فتتلوها السبعية ثانيا، فإذا اجتمعنا معا اندرجتا نحو الصفة الشيطانية، فإذا اجتمعت الثلاثة دفعت نحو صفة الربوبية. فهذه أمهات الذنوب ومنها تنفجر على الجوارح، فبعضها في القلب كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء وبعضها في العين والسمع، وبعضها في اللسان، وبعضها في البطن والفرج، وبعضها في اليدين والرجلين، وبعضها موزع على باقي البدن.

والذنوب تنقسم إلى ثلاثة، بين العبد، وبين الله، وبين حقوق العباد. فما يتعلق بالعبد كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به.

وما يتعلق بين العبد وبين ربه إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر «الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك. فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى: وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى، وأما الديوان الذي لا يترك فظالم العباد» وأما ما يتعلق بحقوق العباد فهو تركه الزكاة، وقتل النفس، وغصب الأموال وشتم الأعراض، والإغواء، والدعوة إلى البدعة، والترغيب في المعاصي وتهييج أسبابها، والذنوب منها الصغائر والكبائر، قال تعالى «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم»، وقال صلى الله عليه

وسلم «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت البكائر»، وقال صلى الله عليه وسلم «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس»، وقد اختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر، من أربع إلى إحدى عشر أو يزيد، وقال بعضهم، كل ما أوجب الله عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة، وقال ابن مسعود لما سئل عنها : اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله تعالى «إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه» فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة.

ويظهر أنها حسب الأخبار أربعة في القلب هي الشرك، والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكره. وأربعة في اللسان هي شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس ـ أي الحق باطلا وباطنا حقا ـ والسحر. وثلاث في البطن هي شرب كل مسكر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنان في الفرج وهما الزنا، واللواط. واثنان في اليدين وهما القتل والسرقة. وواحد في الرجلين، وهي الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين. وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين.

وفي الخبر «من الكبائر السبتان بالسبة، ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم». وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة، إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر.

والخلاصة أن كل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو من أكبر الكبائر، قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا مزرعة الآخرة».

وأما الصغائر فإنها تكبر إذا كان الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل : لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، قال صلى الله عليه وسلم «خير الأعمال أدومها وإن قل» وجاء في الخبر المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره.

والتائب عن ذنوبه إذا عزم عليه أن يراجع نفسه فيما مضى من حياته منذ بلوغه إلى الوقوف على سنه الحالي، فيحاسب نفسه عما مضى من عمره فيما أفناه سنة وشهرا ويوما، فينظر إلى ما قصر فيه وإلى المعاصي التي اقترفها. فإن ترك صلاة عليه أن يقضيها، وإن بقي عليه صوم أو زكاة فعليه أداء ذلك، وإن كانت استطاعته للحج ولم يتفق له فعليه بأدائه.

وأما المعصي فعليه أن يفتش عليها أيضا منذ بلوغه كانت سمعية أو بصرية أو لسانية أو بطنية أو بإحدى جوارحه حتى يحاول أن يطلع عليها جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها، ويقسمها إلى قسمين، ما بينه وبين الله، وما بينه وبين الناس.

فأما التي بينه وبين الله فالندم والحسرة على ما فات أفضل، ويختار الحسنة التي تلائم ضحد تلك المعصية، فيكفر مثلا سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر السكر بالتصدق، وهكذا يعالج كل شيء بضده.

وأما مظالم العباد فيتدارك ذلك أيضا بالندم والحسرة، ويأتي بالحسنات التي ضدها، مثلا يقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، وغصْب الأموال بالتصدق، ويكفر تناول أعراضهم من غيبة وقدح بالثناء على أهل الدين والطهارة: وإظهار ما يعرف من الخصال، ويكفر القتل بإعتاق الرقاب. وروي أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني! فرده، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت! فرد الثانية، فلما كان في الثالثة أمر به، فحفر له حفرة ثم أمر به، فرجم، فكان الناس فيه فريقين: قائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته، وقائل يقول، ما توبة أصدق من توبته. فقال صلى الله عليه وسلم «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم». وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني! فردها، فلما كان من الغد قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزا. فوالله إني لحبلى: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما الآن فاذهبي حتى تضعي، فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدته، قال: اذهبي فارضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز، فقالت: يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها، فحفر إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فنضح الدم على وجهه فسبها، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال «مهلا يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكث لغفر له» ثم أمر بها، فصلى عليها ودفنت.

قد يتبادر إلى الذهن سؤال، فما قولك في تائبين، أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه، بينما الآخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه، فأيهما أفضل؟

البعض قال: حقيقة التوبة أن تجعل ذنبك بين عينيك، والبعض قال: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك، لكل منهما صوابه مع إضافة.

إن تصور الذنب والتفجع عليه كمال في حق المبتدىء، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه، وبذلك لا تقوى إرادته نحو السلوك المستقيم. أما إلى سالك الطريق نقصان، فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق، فإن ظهرت له مباديء الوصول وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال.

فالتائب عليه أن يشغل فكره بالآخرة ونعيمها لتزيد رغبته، بل عليه أن يفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى.

والتائبون أربعة. تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فاته ولا يخطر بباله أنه سيعود إلى معاصيه وزلاته، فهذه هي التوبة على الاستقامة، وصاحبها سابق بالخيرات، وهذه هي التوبة النصوح، وصاحبها النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، وفيها إشارة قوله صلى الله عليه وسلم «سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا»، وفي هذا الحديث إشارة إلى الأوزار التي وضعها الذكر؛ هذه طبقة.

طبقة ثـانية، وهي تائب سلك طـريق الاستقامة في أمهات الطـاعات وترك الكبـائر والفواحش كلها، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه عن قصد، فيبتلي بها في مجازي أحواله من غير أن يقدم عزما، لكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وتأسف، وشمر على الاحتراز منهـا، وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلـوم صاحبها على ما يستدف إليـه من أحوال ذميمة، وهذه أيضا رتبـة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهؤلاء لهم حسن الوعـد من الله عز وجل إذ قال «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمـم، إن ربك واسع المغفـرة»، وقال أيضا «والذين إذا فعلوا فـاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللـه فاستغفروا لذنـوبهم»، فأثنى سبحانه وتعـالى عليهم مع ظلمهم لأنفسهـم لندمهم ولومهم أنفسهم، وفي هذا إشارة منه صلى الله عليه وسلم في قوله «خياركم كل مفتن تواب».

أما الطبقة الثالثة، أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب، فيقدم عليها عـن صدق وقصد شهوات لعجزه عن قهـرها، إلا أنه مع ذلك مواظـب على الطاعات، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، ومع ذلك يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها، تلك أمنيته في حـال قضاء الشهوة عند الفـراغ، فيندم قائلا، ليتني لم أفعل، وسأتوب وأجـاهد نفسي وأقهرها عن ذلك، لكنه يسوف توبته مرة بعـد المرة، فهذه هي النفس المسؤولة، وصاحبها يجري عليه قوله تعالى «وآخرون اعترفـوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا» وهـذا، على الله أن يتوب عليه، وربما تختطفـه المنيـة قبل التـوبـة، فإن تـدارك اللـه بلطفـه جبر كسره ومن عليـه بـالتـوبـة، والتحق بالسابقين، قال تعالى «ونفس ومـا سواها فألهمها فجورها وتقواها، قـد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها»، وقال صلى الله عليه وسلم «إن العبـد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنـه من أهلهـا، ولا يبقى بينـه وبين الجنـة إلا شبر، فيسبق عليـه الكتـاب، فيعمل بعمل أهل النـار فيدخلها».

وأخيرا الطبقة الرابعة، أن يتوب العبد ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى اقتراف الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة أو يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته، فهو من المصرين، وهذه هـي النفس الأمارة بالسـوء، وقد يخاف هـذا سوء العـافية عند الخاتمة، فـإن ختم له بالسـوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بـالحسنى حتى مات على التوحيد، فينتظـر له الخلاص من النـار ولـو بعد حين، قـال تعـالى « وأن ليس لـلإنسان إلا مـا سعى»، وقـال أيضـا «ولو تـرى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحا».

فالتـائب من الذنب عليه أن يبـادر بالتضرع إلى الله ويسأله العفـو والمغفرة ويتذلل تـذلل العبد الآبق، وذلـه يتجلى لكل العبـاد بنقصـان كبره بينهم، ويعترف لسـانـه بمظـالم النـاس لهم ويلهج بـالاستغفـار، وجـوارحـه تسير نحـو الطـاعـات والصـدقـات وأنـواع العبـادات والمنـاجـاة والموالاة والأذكار، حتى يكفـر عن السيئات ويصير كمن لاذنب لـه، منها ينطلق نحو الـدرجات حتى يصير حبيبا.

من مناقب أبي مدين شعيب

هو الشيخ سيـدي أبو مدين شعيب بـن الحسين الأنصاري الأندلسي، ولـد ونشأ بقرية قطيـانة قريبة من اشبيليـة» وذلك ما بين 1120 م و 1130 م من عائلـة أنصار فـاتحين. لما بلغ أشده ذهب إلى إشبيلية ليأخذ علومه ومعارفه، بعدهـا ذهب إلى فاس، واستقر في إحدى قراها يشتغل نساجا «درازا» ليسد رمق حـاجته، ويقطع ليله في العبـادة والتفكر والـدرس، وقد أتم دراسته على جهـابذة العلماء المعروفين بالعلم والورع، فدرس كتاب الرعـاية، وإحياء علوم الدين، وجامع الترميدي في الحديث، والموطأ، إلى غير ذلك، وحضر حلقـات العلم بفاس، وشرب من معـارفها. ويـروي هو نفسـه قائلا «كنت في أول أمـري وقراءتي على الشيـوخ إذا سمعت تفسير آيـة أو معنى حديث قنعت بـه وانصرفت لموضع خال خارج فاس أتخذه مأوى للعمل بما فتح الله به علي، فإذا خلوت فيه تأتيني غزالة تأوي إلي وتؤنسني، وكنت أمر في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس فيدورون حولي ويبصبصون لي، فبينما أنا ذات يوم بفاس وإذا برجل من معارفي بالأندلس سلم علي، فقلت وجبت ضيافته، فبعث ثوبا بعشرة دراهم، فطلبت الـرجل لدفعهـا له، فلم أجـده هنالك فجلبتهـا معي وخرجت لخلـوتي على عادتي، فمررت بقـريتي فتعرضت الكلاب ومنعتني الجواز حتى خـرج من القريـة من حال بيني وبينهـم، ولما وصلت لخلوتي جاءتني الغزالة على عـادتها، فلما شمتني نفرت عني وأنكرت على، فقلت ما أتى علي إلا من أجل هذه الدراهم التي معي، فرميتها عني، فسكنت الغزالة وعادت لحالها معي، ولما رجعت لفاس أخذت الـدراهم معي، فلقيت الأندلسي فدفعتها لـه، ثم مررت بالقريـة في خروجي للخلوة، فدار بي كلابها وبصبصوا على عادتهم، وجاءتني الغـزالة على عادتها، فشمتني من مرفقي إلى قدمي، وآنست بي، وبقيت كذلك مدة وأخبـار سيدي أبي يعزى ترد علي، وكراماتـه يتداولها الناس وتنقل إليّ فمـلأ قلبي حبه فقصـدتـه مع جماعة الفقـراء، فلما وصلنـا إليه أقبل على الجماعـة دوني، وإذا حضر الطعامم منعني من الأكل معهـم، وبقيت كـذلك ثلاثة أيام، أجهدني الجوع وتحيرت من خـواطر ترد علي، فقلت في نفسي إذا قام الشيخ من مكـانه أمرغ وجهي في المكان، فقـام ومرغت وجهي وقمت، فإذا أنا لا أبصر شيئـا، وبقيت طول ليلتي بـاكيا، فلما أصبح الصباح دعـاني وقربني، فقلت لـه: يا سيدي قد عميت فـلا أبصر شيئا، فمسح بيده على عيني فعاد بصري، ثم مسـح على صدري فزالت تلك الخواطر وفقدت ألم الجوع، وشـاهدت في الوقت عجائب من بركـاته، ثم استأذنته في الانصراف بنية أداء فرضة الحج فأذن لي، وقال: ستلقى في طريقك الأسـد فلا يرعك، فإن غلب عليك خوفه، فقل له، بحرمة أهل النور إلا انصرفت عني . . . فكان الأمر كذلك».

وفي الحج تعرف علي كثير من العلماء والأولياء، وفيه تعرف على الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله تعالى وقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الحديث وأودعه كثيرا من أسراره، فكان أستاذه.

ويروي بعض مؤرخيه أنه لما رجع من الحج مر ببلاد المغرب فرآى أسدا افترس حمارا وهو يأكله وصاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد، وقال للشيخ، امسك الأسد واذهب به واستعمله في الخدمة موضع حمارك، فقال له ياسيدي أخاف منه، فقال له لا تخف، إنه لا يستطيع أن يؤذيك، فمر الرجل بالأسد يقوده والناس ينظرون إليه. فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ، وقال: يا سيدي هذا الأسد يتبعني أينما ذهبت، وأنا شديد الخوف منه لا طاقة لي بعشرته، فقال الشيخ للأسد إذهب ولا تعد.

وكان له رضي الله عنه مجلس في الوعظ بعد صلاة الصبح بمسجد ببجاية بالجزائر فكان يجتمع عليه جم غفير من الناس، وكان في مجلسه كثيرا مايتكلم عن أهل التصوف ومناقبهم وأخبارهم وزهدهم وورعهم واشتغالهم بالله سبحانه وتعالى وانقطاعهم إليه، ويحثهم على اتباع نهجهم، وتخرج على يديه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال.

ويروى أن نزاعا وقع بين الطلبة والفقهاء والعلماء في شأن الحديث الشريف «إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة . . .» فساروا إلى مجلس الشيخ أبي مدين ليعطي رأيه، فلما استقروا في مجلسه، وكان حديثة في ذلك المجلس حول رسالة الإمام القشيري رحمه الله تعالى. ترك كلامه قائلا: قال صاحب البستان . . . وكاشفهم في الحال بلا سؤال . . . نزيل عن أصحابنا الإشكال، ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة . .» أراد صلى الله عليه وسلم نصف جنته، وإذا كان بعد الحشر يعطى النصف الآخر، فبعد البعث تكمل له جنته، وفي القبر يعطى نصف جنته، ويبين أنه في القبر يكشف له عن مقعده من الجنة، وأنه يتنعم برؤيته، وأن أرواح المؤمنين تسرح في الجنة، ويوم القيامة يجتمع الجميع في الجنة. ولما عمت شهرته الآفاق أوشى به أحد علماء الظاهر ليعقوب المنصور أحد ملوك الدولة الموحدية بأن شوكته قويت، فيجب أن يحسب له حسابه، فأرسل في طلبه موصيا به خيرا في حله وترحاله، فشق على أصحابه أن يسافروا معه، فأخبرهم قائلا: إن منيتي قربت، إلا أنها بغير هذا المكان، والآن وقد كبرت، وضعفت مني الحركة، فبعث الله من يحملني إلى ذلك المكان برفق، ويسوقني إليه في أحسن حال، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني، فطابت نفوسهم، وعلموا أن ذلك من كراماته، فرحلوا معه حتى وصلوا حوز تلمسان، فبدا رباط العباد، فقال لأصحابه: ماهذا الرباط؟ فقالوا: هذا رباط العباد، فقال لأصحابه: ما أحلاه للرقاد، فمرض به، ولما وصل وادي يسرا إشتد مرضه، ونزلوا به وكان آخر كلامه: الله الحق! فتوفي رحمه الله تعالى، وذلك سنة 1198م، وحمل إلى رباط العباد مدفن الأولياء.

ومن مكاشفاته رحمه الله أن أحد تلامذته غاظته زوجته ليلا فكسر أواني داره وقرر فراقها، ولما كان أمام مجلس الشيخ، أمسك بيده بعد الانتهاء قائلا له: امسك عليك زوجتك، واتق الله في

نفسك، قال مـا حدثت أحدا بـذلك، فقال له الشيخ، إنك دخلت المسجـد، وذلك القلق مكتوب عليك فعلمت نيتك، ثم ما بال الأواني التي أتلفتها وكسرتها، كفر عن نفسك ولا تعد.

ومن مناقبـه ومكاشفاتـه أيضا، أن رجـلا جاءه ليعترض عليه، فجلس في الحلقـة، وما أن فتح الـدرس حتى التفت إلى الرجل وقـال له لم جئت، قـال : أقتبس من نـورك. فقال لـه : ما الـذي في كمك. قـال : مصحف. فقـال : افتحه واقـرأ أول سطـر يخرج لك، ففتح وقـرأ أول سطر فإذا فيـه «الذين كـذبوا شعيبا كأن لم يغنـوا فيها، الذين كـذبوا شعيبـا كانوا هم الخاسرين» فقـال الشيخ : أما يكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله.

وسمعا قاضيان به فذهبا لزيارتـه، فدخلا المسجد وسلما عليه ورد عليهما السلام، وما أن فرغ من الدرس وانصرف الناس حتى انفردبهما قائلا : هذا هو الفقيـه أبو محمد عبدالحق، وهذا هو الفقيه أبو علي المسيلي، فأجاباه نعم.

ومن كراماتـه أيضا أنه كان ماشيـا على الساحل فأسره العدو، وجعلوه في سفينـة فيها جماعة من الأسرى المسلمين، فلما استقـروا في السفينـة توقفت عـن السير ولم تتحرك من مكـانها مع قـوة الـريح لمساعـدتها، فأيقن الروم أنهم لا يقدرون على السير، فقـال بعضهـم، أنزلوا هـذا المسلم فإنه قسيس، ولعله من أصحـاب السرائر عند الله، فأشـاروا له بالنـزول، فقال لا أفعل إلا إذا أطلقتم جميع من في السفينة، فلما رأوا أن لابد لهم من ذلك، أنزلوهـم كلهـم وسارت السفينة في الحال.

كان رحمه الله مـن الأبدال أصحاب الخطوة والكرامات والتصريف. سمع بـه رهبان دير يعرف بـدير الملك، وكـانـوا سبعة عشر، فجـاءه من أكـابرهـم عشرة قصـد الامتحـان، فتنكروا ولبسـوا زي المسلمين، ودخلـوا المسجـد، فجلسـوا مع النـاس، ولم يعلم بهم أحـد، فلما أراد الشيخ أن يتكلـم، سكت حتى دخل رجل خياط، فقال له الشيخ : ما أبطأك ؟ فقال له : يا سيدي، حتى فرغت العشرة أطواق التي أوصيتني بها البارحة، فأخذها الشيخ ونهض قـائما، فألبس كل واحد من الرهبان طاقية، فتعجب الناس من ذلك، ولم يعلموا الخبر، ثم شرع الشيخ في الكلام، فكان من جملة قوله، يا فقراء، إذا هبت نسمات التوفيق من جنات الحق تعالى على القلوب المشرقة، أطفأت كل نور، ثم تنفس الشيخ فأطفأت القناديل، وكـانت أكثر من ثلاثين، ثم سكت الشيخ وأطـرق، فلم يجسر أحد أن يتكلـم أو يتحرك لعظم الهيبة، ثم رفع رأسه وقال : لا إلاه إلا الله يا فقراء، إذا أشرقت أنوار العناية على القلوب الميتة عاشت وأضاء لها كل ظلمة، ثم تنفس الشيخ فاشتعلت القناديل وعاد إليها نورها، واضطربت اضطرابـا شديـدا حتى كاد يلحق بعضها بعضـا، ثم تكلـم الشيخ في تفسير آية سجـدة في سجوده : اللهـم إنك تعلم بتـدبير خلقك ومصالح عبادك، وإن هـؤلاء الرهبـان قد وافقـوا المسلمين في لباسهم والسجود لك، وأنا قد غيرت ظواهـرهـم ولا يقدر على تغيير بواطنهم غيرك، وقد أجلستهم على مائدة كرمك، فـانقذهم من الشرك والطغيان، وأخرجهـم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان. فما رفع الـرهبان رؤوسهم من السجـود إلا وقد مضى عنهـم الهجـران والصدود ودخلـوا في دين الله، فأسلمـوا وبلغوا المقصود، فأتوا إلى الشيخ وتـابوا على يده، وبكوا وندموا على ما كـان منهم، فكثر الصراخ والبكاء في المسجد، وكان يوما مشهودا. وبلغ الملك خبرهم فأحسن إليهم.

كان رحمه الله نجما ثاقبا، وصدرا قويا من صدور الأولياء الأبدال، جمع بين الشريعة والحقيقة، وكان هاديا وداعيا، يقصد بالزيارة من كل مكان، فهو كبير مشايخ وقته، عارف بالله، خاض بحار الأحوال، ونال أسرار المعارف خصوصا مقام التوكل، وهو سابع أبدال زمانه، قال عنه الشيخ العارف محيي الدين أبو بكر بن العربي : إن الشيخ أبا مدين رحمه الله تعالى، لم يمت حتى تقطب قبل أن يغرغر بثلاث ساعات. والقطبية للعارف منتهي مناله.

أخـــلاق الصوفيـــة

إن المتصوفة أوفر الناس اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتخلق بأخلاقه وإحياء سنته، وقد أوصى صلى اللـه عليه وسلم أمته إلى أحسن الخلق فقال «إن من أحبكم إلي وأقـربكم مني مجالسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون المتفيقهون. قـالوا : يا رسول اللـه علمنا الثرثـارون المتشدقون فما المتفيقهون ؟ قـال «المتكبرون». قال الواسطي : الخلق العظيم أن لا يخاصم ولا يخاصم، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقـول «مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكـون في ابنه، وتكون في الابن ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : صدق الحديث، وصـدق البأس، وأن لا يشبع وجـاره وصـاحبـه جـائعـان، وإعطـاء السـائل، والمكـافأة بالصـانع، وحفظ الأمانة، وصلة الـرحم، والتذمم للصاحب، وإقـراء الضيف، ورأسهن الحياء»، وسئل صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخـل الناس الجنة، قال «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال : الغم والفرح»، وبسط عبدالله بن مبارك حسن الخلق فقال : هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

والمتصوفة راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى استجابت إلى تحسين الأخلاق، فكم من نفـوس تجيب إلى الأعمال ولا تجيـب إلى الأخـلاق، فنفـوس العبـاد أجـابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخـلاق، ونفوس الـزهـاد أجابت إلى بعض الأخـلاق دون البعض، ونفـوس الصـوفية أجـابت إلى الأخلاق الكريمة كلها.

يقول الإمام الغزالي في كتاب الإحياء الجزء الخامس : «فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين وتأصل في بواطنهم ذلك، انصلح القلب بكل أرجائه وجـوانبه، لأن القلب يبيض بعضه بنور الإسلام، وبعضـه بنور الإيمان. وكله بنـور الإحسان والإيقان. فإذا ابيض القلب وتنـور انعكس نوره على النفس، وللقلب وجـه إلى النفس ووجـه إلى الـروح. وللنفس وجـه إلى القلـب، ووجـه إلى الطبع والغريـزة، والقلب إذا لم يبيض كلـه لم يتوجـه إلى الروح بكلـه، ويكون ذا وجهين، وجـه إلى الروح، ووجه إلى النفس، فإذا ابيض كله وجه الروح بكله، فيتداركه مدد الروح، ويزداد إشراقا وتنورا، وكلما انجـذب القلب إلى الروح انجـذبت النفس إلى القلب، وكلما انجـذبت تـوجهت إلى القلب توجههـا الذي يليه، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذي يلي القلـب، وعلامة تنورها طمأنينتها، قال

الله تعالى «ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية» ، وتنور وجهها الذي يلي القلب بمثابة نورانية أحد وجهي الصدف لاكتساب النورانية من اللؤلؤ، وبقاء شيء من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذي يلي الغريزة والطبع ، كبقاء ظاهرة الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالفا لنورانية باطنه ، وإذا تنور أحد وجهي النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت ، ولذلك سمي الأبدال أبدالا. والسر الأكبر في ذلك أن قلب الصوفي بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقي إلى ذكر الذات ، ويصير حينئذ بمثابة العرش . فالعرش قلب الكائنات في عالم الحق ، والحكمة والقلب عرش في عالم الأمر والقدرة .

وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذا بوصيته جامعة لمحاسن الأخلاق فقال له «يامعاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقة في القرءان وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح ، وإياك أن تسب حليما أو تكذب صادقا أو تطمع آثما أو تعصي إماما عادلا أو تفسد أرضا ، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية ، بذلك أدب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب» ، وقال صلى الله عليه وسلم «حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب» .

فمن حسن أخلاق الصوفية التواضع ، قال لقمان عليه السلام : لكل شيء مطية ، ومطية العمل التواضع . وقال النوري رحمه الله : خمسة أنفس أعز الخلق في الدنيا : عالم زاهد ، وفقيه صوفي ، وغني متواضع ، وفقير شاكر، وشريف سني . وسئل يوسف بن أسباط عن غاية التواضع فقال : أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا إلا رأيته خيرا منك . وسمعت الحريري يقول : صح عند أهل المعرفة أن للدين رأسمال : خمسة في الظاهر، وخمسة في الباطن ، فأما اللواتي في الظاهر، فصدق في اللسان ، وسخاوة في الملك ، وتواضع في الأبدان ، وكف الأذى ، واحتماله بلا إباء . وأما اللواتي في الباطن ، فحب وجود سيده ، وخوف الفراق من سيده ، ورجاء الوصول إلى سيده ، والندم على فعله ، والحياء من ربه ، وقال يحي بن معاذ : التواضع في الخلق حسن ، ولكن في الأغنياء أحسن ، والتكبر سمج في الخلق ، ولكن في الفقر أسمج . وعن أنس قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي أف قط ، وما قال لشيء صنعته لم صنعته ، ولا لشيء تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، وما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولاشممت مسكا ولا عطرا من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم «المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» وفي الخبر: أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم قيل ، ماذا كان يصنع أبو ضمضم ؟ قال : كان إذا أصبح قال : اللهم إني تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمني ، فمن ضربني لا أضربه ، ومن شتمني لا أشتمه ، ومن ظلمني لا أظلمه ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : «اتق الله حيثما كنت . وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن ، وقد ورد : من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور

شاء، وقال عبدالله بن بكر عن رجل من العرب قال : زحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، وفي رجلي نعل كثيفة، فوطئت بها على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفحني نفحة بسوط في يده وقال «بسم الله أوجعتني» قال فبت لنفسي لائما أقول : أوجعت رسول الله، قال : فبت بليلة يعلم الله، فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ قلت : هذا والله الذي كان مني بالأمس. قال : فانطلقت وأنا متخوف، فقال لي : «إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس، فأوجعتني، فنفحتك نفحة بالسوط، فهذه ثمانون نعجة فخذها بها».

والصوفية أيضا من أخلاقهم الإيثار والمواساة بسبب الشفقة والرحمة وقوة اليقين، فهم يؤثرون بالموجود، ويصبرون على المفقود. قال أبو زيد البسطامي : ما غلبني أحد مثلما غلبني شاب من أهل بلخ قدم علينا حاجا فقال لي : يا أبا يزيد، ماحد الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا. فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت له، وما حد الزهد عندكم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النضير للأنصار «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيئا من الغنيمة» فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة».

ومن أخلاق الصوفية العفو ومقابلة السيئة بالحسنة، قال صلى الله عليه وسلم «رأيت قصورا مشرقة على الجنة، فقلت : يا جبريل، لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».

ومن أخلاق الصوفية طلاقة الوجه والبشر، فالصوفي بكاؤه في خلوته وبشره وطلاقته مع الناس، على وجهه من آثار أنوار قلبه.

ومن أخلاق الصوفية لين الجانب والنزول إلى طبائع الناس وترك التعسف والتكلف والإنفاق من غير إقتار وترك الأدخار، والقناعة باليسير، قوام على نفسه بالقسط، يتميز بروح التودد والألفة.

وأدب الصوفي يعني تهذيب ظاهره وباطنه بحيث لا يتكامل الأدب إلا بمكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخلق، فالخَلْق صورة الإنسان والخُلُق معناه، وقد ورد : فرغ ربكم من الخَلْق والخُلُق والرزق والأجل. وقال تعالى « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها»، وقال الجنيد : من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه، لأن العبودية ملازمة الأدب. والطغيان سوء الأدب، وقال الجلال البصري : التوحيد يوجب الإيمان، فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة توجيب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له.

وعلى الجملة، فمن قدر على تصفية باطنه من الأدناس فقد دخل باب الولاية الكبرى وتمسك بأوثق أسبابها، لأنه قد خلص من أعم موانعها، وصار باطنه قابلا لأنوار التوفيق، مستعدا للظفر بالمنازل العليا، والمزايا الجميلة التي هي أساس الولاية والهداية وركن الإيمان القوي، وعماد الإخلاص السوي.

كســر الشهــوة

إن أعم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، بها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الافتقار، إذ نهيا عن الشجـرة فطغت عليها شهواتها حتى أكلا منها فبـدت لهما سوآتها ؟ والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومصدر الآفات ، يتبعـه في ذلك شهوة الفرج والشبق ، ثم يتبع شهوة الطعام والنكاح الـرغبة في المال والجاه ، وهما وسيلة التـوسع في المنكوحات والمطعـومات ، ثم يتبع المال والجاه أنواع الرعونات والمنافسات والمحاسدات ، فتتولـد آفة الرياء وغائلة التفاخر والكبرياء ، فيتداعى ذلك إلى الحقد والعـداوة والحسد ، فيفضي ذلك بصاحبـه إلى اقتحام البغي والمنكـر والفحشاء ؛ كل ذلك ثمـرة شهوة البطن وشبـع المعدة وامتـلاؤهـا . والعبد لـو ذلل نفسـه بالجوع وضيـق الخناق عليهـا من الشهوات لأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك الطغيان وتفضل العاجلة على الآجلة .

لذا فإن فضيلة الجوع أساس المجـاهدة عند السالكين ، وقد قال صلى اللـه عليه وسلم «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش ، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله ، وإنه ليس من عمل أحب إلى اللـه من جوع وعطش» وفي حـديث آخر «لا يـدخل ملكـوت السماء من ملأ بطنـه» ، وقال أيضـا «البسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون ، فإنه جزء من النبوة» .

والجوع هو للـراغبين منبهة وللنائمين تجربة وللمجتهـدين كرامة وللصـابرين سياسة وللـزاهدين حكمة . وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي ؟ قال : قيدها بالجوع والعطش ، وذللها بإخمال الذكر وترك العز ، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخـرة ، واكسها بترك زي الفراء عن ظاهرها ، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها ، واصحبها بخلاف هواها .

وللجـوع عشر فوائد ، الأولى صفـاء القلب وإيقـاد القريحة وإنفـاذ البصير. والثـانية رقـة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ السالك لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر. والثالثة الانكسار والذل وزوال البطر والفرح الذي هو مبدأ الغفلة والطغيان . والرابعة أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء . والخامسة كسر شهوة المعـاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء . السـادسة دفع النوم ودوام السهر. السابعة تيسر المواظبة على العبادة . الثامنة صحة البدن ودفع الأمراض . التاسعة خفة المؤونة . والعاشرة أن يتمكن من الإيثار والتصـدق من الأطعمة على اليتامى والمساكين ، فيكون يـوم القيامة في ظل صدقته .

هذه عشر فوائد للجوع يتشعب عن كل فائدة فوائد لا حصر لها ، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة ، وقد قال أحد السلف : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة .

وعلى المريد في أكله أن لا يأكل إلا الحلال ، فالعبادة التي معها أكل الحرام كمن يبني بيتا على أمواج البحر. وعليه بتقدير الطعام في القلة والكثرة ، وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة ، وتعيين جنس المأكول في تناولها أو تركها .

ولكي يتدرب المريد على ذلك لابد له من الرياضة ، وأعني بالرياضة هنا التدريج ، فمن اعتاد أن يأكل كثيرا لاداعي بأن ينتقل دفعة واحدة ، فذلك لا يحتمله مزاجه ، بل ينبغي أن يتدرج قليلا قليلا في النقصان البطيء ، فيرجع مثلا من أكل رغيفتين في اليوم إلى واحدة في ظرف شهر ، كل يوم ينقص جزءا من الرغيفة المحذوفة . وهكذا يحاول أن يتدرج بنفسه إلى أن يصل قدر القوام الذي لا يبقى دونه ، وهو عادة الصديقين ، وكانت عادة عمر رضي الله عنه أنه يأكل سبع لقمات إلى تسع في اليوم . وهناك درجة عليا من الجوع عند بعض المريدين منهم من وصل إلى طي ثلاثة أيام ومنهم من طوى ستا ومنهم من طوى سبعا ومنهم من طوى ثلاثين يوما ومنهم من طوى أربعين ، وقال بعض العلماء . من طوى أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت ـ أي كوشف ببعض الأسرار الإلاهية .

وعلى أي حال إذا اقتصر الإنسان على يوم فمن الأفضل له أن لا يتناول الوجبة إلا وقت السحر ، حتى يكون له النهار صياما والليل قياما ، وإن كان يلتفت قلب الصائم إلى الأكل لا بأس أن يفطر بعد المغرب حتى لا يشغله عن حضور قلبه في التهجد . فيقسم طعامه إلى وقتين ـ عند الإفطار وعند السحر .

والسالكون عادتهم يبتعدون عن شهوات الطعام ، لأن ذلك يورث في القلب قسوة وأنسا بملذات الدنيا فيألفها ويكره الموت .

فبعد هذه النظرة الخاطفة عن الجوع ، لابد أن نقول للمبتدإ بأن يسلك الوسط ، فما أوردناه عن فضائل الجوع ربما يومىء إلى الإفراط ، ولكن الشريعة قد ضبطت لنا الأمور في كل شيء ، فمثلا إذا طلب الطبع غاية الشبع فالشرع يحث على الجوع حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا فيحصل الاعتدال ، والرسول صلى الله عليه وسلم علم بحال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله . فنهى عن ذلك .

والطبع المعتدل أن يأكل الإنسان بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع ، والمقصود من الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة ، لأن ثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها ، فما دام الإنسان لاخلاص له من الشبع والجوع فأفضل الأحوال الوسط والاعتدال ، وإلى ذلك يشير قول الله عز وجل : «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» . ومهما لم يشعر الإنسان لا بالجوع ولا بالشبع فقد تيسرت له العبادة والفكر ، وقوي على العمل مع خفته ، لكن هذا بعد اعتدال الطبع .

ومن باب كسر الشهوة أيضا شهوة الفرج ، وهذه الشهوة سلطت على الإنسان لفائدتين اثنتين ، أحدهما ، إدراك اللذة لتقاس بها لذة الآخرة . والثانية بقاء النسل ودوام الوجود .

لكن فيهما من الآفة ما تهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم تعد إلى حد الاعتدال، فالإفراط فيها يقهر العقل حتى يصرفه عن سلوك طريق الآخرة، ويدفع المرء إلى البحث عن الأدوية التي تعين عليه، فينتهي به الأمر إلى ضلال العشق والمجاوزة في البهيمة إلى حد البهائم، فيتوقف العقل عند خدمة الشهوة محتالا وخادما، بدل أن يكون مطاعا، ويمرض القلب ويصبح فارغا لا هم له إلا الشهوة. قال بعضهم، إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطىء، وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي.

والشهوة أيضا في المال والجاه والعقار والأولاد وأنواع اللعب من نرد وشطرنج ولعب الورق «الكارتة والضامة» وغير ذلك، كلها أمور تستولي على الإنسان فلا يصبر عليها حتى يفوت الفوت.

وعليه، فقد يجب الاحتياط في بداية الأمور قبل أواخرها، فإن تأخرت لا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد.

والشهوة في الإنسان تتفاوت قوة وضعفا، وتنصرف إلى حال من أحوال الدنيا، فتنغمس فيه قلة أو كثرة، لكن شيوعها في الفرج أكثر من غيرها، قال صلى الله عليه وسلم «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» وقال أيضا «اتقوا فتنة النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء» وقال أيضا «لكل ابن آدم حظ من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان، وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القبلة، والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه».

فالمريد إذا غلبت عليه الشهوة، وجب أن يكسرها بالجوع والصوم، فإن فعل ولم يستطع، دخل تحت طاعة الزواج. قيل عن شاب: غلبتعلي شهوتي بما لا أطيق، فأكثرت الضجيج إلى الله، فرأيت شخصا في المنام يقول لي: ما بك؟ فشكوت إليه، فطلبني أن أتقدم إليه، فتقدمت، فوضع يده على صدري، فوجدت بردها عم فؤادي وجميع جسدي، فلما أصبحت زال ما بي، فبقيت معافى سنة؛ ثم عاودتني الشهوة الجامحة فأكثرت الاستغاثة بالله، فجاءني شخص في المنام وقال: أتحب أن تذهب عنك الشهوة وأضرب عنقك بهذا السيف؟ فقلت نعم، فقال هات عنقك، فمددت فجرد سيفا من نور وضرب به عنقي. فأصبحت وقد زال ما بي، فبقيت معافى سنة، ثم عاودتني الشهوة، فرأيت شخصا في المنام يقول: ويحك كم تسأل الله تعالى رفع مالا يجب رفعه؟ فتزوجت وولدت.

وروي أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها، فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هاربا من منزله وتركها فيه. وفي تلك الليلة رأى في المنام يوسف عليه السلام قائلا له: أأنت يوسف؟ نعم أنا يوسف هممت، وأنت سليمان الذي لم تهم. إشارة إلى قوله تعالى «ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه». إن كسر الشهوة شرط صحة للمريد، فحاول أن تتغلب عليها أولا بالجوع، فهو مفتاح للحد من باقي الشهوات، وهو سر الوصول، وبالله التوفيق.

التـوفيـــق

التوفيق مفتاح السعادة الأبـدية ، والهادي بالعبد إلى سلوك الآثار النبـوية ، والقائد له إلى التخلق بالأخلاق الإلاهية ، وهو نور يضعه اللـه في قلب من اصطفاه ، فتحصل به النجاة ، ويصل به صاحبه إلى أعلى الدرجات .

وإن إرادة العبد وعزمه على السير نحو التـوفيق وجعل أسباب لذلك ، في الواقع ما هي إلا دوافع من العلي الرحمن نحـو ذلك العبد الذي أراد به خيرا ، وقـد يصاحبه في جميع أحوالـه وخواطره وأسراره ومكاشفاته . قال تعالى «وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم» تلك هي الرحمة التي كتبها عز وجل على نفسه قبل إيجاد ذلك العبـد ، فلما أوجده في الـوجود تولاه بلطفـه وتوفيقه ، وبين لـه الطريق الموصل إليه .

والتوفيق بينـه الله لأنبيائه ورسله بـواسطة ملائكته ، ولأوليـائه بواسطة أنبيائه ورسلـه ، والملائكة بالجبلة التي أوجدهم الله عليها ، فـاهتدوا على أوضح منهاج ، فمازال التوفيق يحالفهم ويصاحبهم في كل حـال ، ويقودهم إلى كل عمـل مقرب إلى اللـه من أعمال القلـوب والنفوس حتى انتهى بهم فـوق الهمم ، وأنـزلهم في حضرة الجود والكرم ، فغـرقوا في بحـار المنن من نعيم وجنـان ، وعلى قدر مـا أراده سبحانـه وتعالى لهم من نعمائه ، قال تعـالى «وما أوتيتم من العلم إلا قليـلا» ، وقيل : العجز عن درك الإدراك إدراك .

والتـوفيق يقـــود لكل فضيلـة ، ويهدي إلى كل صفـة منجيـة ، ويجلـب كل خلق رضي ، ويجلـو البصائر ، ويصلح السرائر ، ويخلص الضمائر ، ويفتح أقفال القلوب ، ويهبهـا أسرار الوجود ، ويعرفها بما تجهل من جلال معبودها .

وللتوفيق مبـدأ ومتوسط وغـاية ، فمبـدؤه يعطيك الإسلام ، ومتـوسطه يعطيك الإيمان ، وغـايته يعطيك الإحسان .

فـالإسلام يحفظ الـدماء والأمـوال ، والإيمان يحفظ النفـوس من التضليل والضلال ، والإحسـان يحفظ الأرواح ويهبها المراقبة والحيـاء ، فالنفس تتنعم بشهواتها في الجنان ، والعين تتنعم بلـذة مشاهدة الرحمن ، والروح تتنعم بحقائق الامتنان .

التوفيق مبدؤه يعطيك العلم والعمل، ووسطه يطهر ذاتك من دنس الأعراض والعلل، وغايته تمنحك أسرار الوجود والأزل.

التوفيق مبدؤه يفنيك عن حسك، ووسطه يفنيك عن نفسك، وغايته تجود عليك بشمسك.

التوفيق مبدؤه يعطيك الكرامات، ووسطه يفنيك عن الصفات، وغايته تنعمك بالذات.

التوفيق مبدؤه يشهد لك بالجنان، ووسطه يشهد لك بالعيان، وغايته تشهد لك بفناء الأعيان، فسبحان الله المنان، إنه بعباده رؤوف رحيم.

والتوفيق قسمان، عام وخاص.

فالعام يشترك فيه جميع الناس كافة، وهو ضربين، منه ما يوافق الحكمة، ومنه ما يوافق الأغراض. فالتوفيق الذي يوافق الأغراض كرجل حفر بئرا على قارعة الطريق بأرض لا ماء فيها، فهذا وافق غرض كل مار بذلك الموضع؛ والتوفيق الذي يوافق الحكمة كرجل رأى شخصا يشرب ماء في منخل، ويحاول تصفية الدقيق بالقدح، فيأخذ الدقيق ويلقيه في المنخل، ويأخذ الماء ويجعله في القدح، ويقول إنما جعل هذا لهذا وهذا لهذا، وهكذا في جميع الأشياء العلمية والعملية، فهذه موافقة الحكمة. أما الخاص فهو الذي يخرجك من الظلمات إلى النور وينتهي بك إلى السعادة الأبدية على مراتبها، وهذا أيضا عام وخاص، فالعام كالإيمان بالله ورسوله وما جاء به. والخاص كالعمل بالعلم المشروع، وهو أيضا عام وخاص. فالعام كأداء الفرائض كما قال ضمام بن ثعلبة السعدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله عن الواجبات، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال هل علي غيرها؟ قال لا، إلا أن تطوع. فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، ولم تكن غير الفرائض الخمس. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفلح إن صدق. والخاص هو الذي يؤديك إلى تصفية القلب وتعريفه وتفريغه للرياضيات والمجاهدات. وهذا الضرب أيضا من التوفيق فيه عام وخاص. فالعام هو الذي يثمر لك جميع الأخلاق العلوية والأوصاف الربانية القدسية، والخاص هو الذي يثمر لك أسرار الخلق ومعنى التحقيق. وكلاهما على ضربين، عام وخاص. فالعام ما أعطاك جميع ما تتخلق به وبأسراره. والخاص ما أعطاك الغنا عن ملاحظة الغنا.

فالتوفيق يصحب العبد في حركاته وسكناته الظاهرية والباطنية، وهو توفيق العارفين. وكل توفيق يصحب العبد في البعض دون البعض فهو منسوب لذلك البعض في مراتب الصوفي، فيقال هذا توفيق العارفين أو الزاهدين أو العابدين إلى غير ذلك من أصحاب المقامات وأرباب السلوك.

وحصول التوفيق عند المحققين على نوعين، توفيق أوجده الحق سبحانه فيك ومنك، وتوفيق أوجده فيك على يد غيرك. فالتوفيق الذي فيك من غيرك كالإسلام الذي ألقاه عليك أبواك فتربيت عليه، أو شخص وعظك من غير قصد منك إليه فانتبهت من غفلة، فقذف الله عند انتباهك نور التوفيق فقبلتها ونظرت في تخليص نفسك من عيوبك، حتى إذا ما هاجت عليك هذه الخواطر، نهضت بك إلى طريق النجاح والصلاح والفلاح. وأول مقامات التوفيق الاختصاصي، اشتغالك بالعلم المشروع الذي ندبك الشارع إلى الاشتغال به وتحصيله، بعده إلى توحيد الأحد الفرد الصمد.

والتوفيق إذا صح تصحيحه بتحصيل العلم أنتج الإنابة ، والإنابة تنتج التوبة ، والتوبة تنتج الحزن ، والحزن ينتج الخوف ، والخوف ينتج الاستيحاش من الخلق ، والاستيحاش من الخلق ينتج الخلوة ، والخلوة تنتج الفكرة ، والفكرة تنتج الحضور ، والحضور ينتج المراقبة ، والمراقبة تنتج الحياء ، والحياء ينتج الأدب ، والأدب ينتج مراعاة الحدود ، ومراعاة الحدود تنتج القرب ، والقرب ينتج الوصال ، والوصال ينتج الأنس ، والأنس ينتج الإدلال ، والإدلال ينتج السؤال ، والسؤال ينتج الإجابة ، كل هذه المقامات تدخل في باب المعرفة ، ولا يحصل منها شيء إلا بعد تحصيل العلم الرسمي والذوقي .

فالرسمي كعلوم النظر - وهو ما يتعلق باصطلاح العقائد ، وكعلوم الخبر وما يتعلق بك من الأحكام الشرعية .

والذوقي هو علم نتائج المعاملات والأسرار ، وهو نور يقذفه الله تعالى في قلبك تقف به على حقائق المعاني وأسرار الحق في عباده والحِكم المودعة في الأشياء ، وهذا هو علم الحال وفقك الله ، وألهمك من معين توفيقه .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر قطب عظيم من الـدين، إن طوى بسـاطـه فشت الضلالـة وشاعت الجهالة وخربت البلاد وهلك العباد. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب بإجماع الأمة. يقول عـز وجل «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويـأمرون بالمعروف وينهـون عن المنكر وأولائك هم المفلحون».

الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر لايدعو لـه إلا متثبت، قلبه مفعم بالحب والوفـاء لله والعباد، قال تعالى «ليسوا سـواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آنـاء الليل وهـم يسجدون، يؤمنون بـالله واليـوم الآخـر ويأمـرون بـالمعـروف وينهـون عن المنكـر ويسـارعـون في الخيرت، وأولئك من الصالحين»، وقـال تعالى «والمومنـون والمؤمنات بعضهم أوليـاء بعض، يأمـرون بالمعروف وينهـون عن المنكر ويقيمون الصـلاة» فالله عز وجل نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر، بينما الذيـن هجروا ذلك نعتهم سبحـانه وتعالى بقـوله «لعن الـذين كفروا من بني إسرائيـل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصـوا وكانوا يعتـدون، كانوا لا يتنهون عن منكـر فعلوه، لبئس ما كـانوا يفعلـون» فغايـة التشديـد هنـا أن لعنهم الله بترك المنكـر والابتعـاد عنه، وقـال تعالى «كنتم خير أمـة أخرجت للناس تأمرون بـالمعروف وتنهون عن المنكر» وهنا يدل على فضيلـة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال تعالى «فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الـذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب، بئس بما كانـوا يفسقون» وهنـا استفادة النجاة بـالنهي عن السوء، وقـال تعالى «الـذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصـلاة وآتوا الزكاة وأمـروا بالمعروف ونهوا عن المنكر» وهنـا قرن عز وجل الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكـر بـالصلـة والـزكـاة في وصف المؤمنين الصـالحين، وقال تعـالى «وتعـاونـوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» وهنـا جزم وحث عليه مع فتح طرق الخير وسد سبل الشر، وقال تعـالى «لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمـر بصدقـة أو معروف أو إصـلاح بين النـاس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما».

قال صلى الله عليه وسلم «إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا ما لنا بد إنما هي مجالسنا نحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا ذلك فـاعطوا الطريق حقه، قالوا: ومـا حق الطريق؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السـلام والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر»، وقال عليـه السلام «إن اللـه لا يعذب الخاصة بذنـوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهـرهـم وهم قادروق على أن ينكروه فلا ينكـرونه». وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: مـا ساح السواح وخلوا دورهم وأولادهم بمثل ما نزل بنا حين رأوا

الشر قد ظهر والخير قد انـدرس ، ورأوا أنه لا يقبل ممن تكلم ورأوا الفتن ولم يأمنو أن تعتريهم وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فـلا يسلمون منه ، فرأو أن مجاورة السبـاع وأكل البقول خير من مجاورة هؤلاء في نعيمهم ، ثم قرأ قول الله عز وجل « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين» .

وقال أبـو الدرداء رضي اللـه عنه : لتأمرن بـالمعروف ولتنهين عن المنكـر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظـالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو عليه خياركم فـلا يستجاب لهم وتنتصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفـر لكم . وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحيـاء ، فقال : الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه . وقـال حذيفة : يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم . وأوحى الله تعـالى إلى يوشع بن نون عليه السلام : إني مهلك من قـومك أربعين ألفـا من خيرهـم وستين ألفـا من شرارهم ، فقـال : يـارب هـؤلاء الأشرار، فما بل الأخيار، قال إنهم لم يغضبو لغضبي وواكلوهم وشاربـوهم . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أول ما تغلبـون عليه من الجهـاد الجهاد بأيـديكم ، ثم الجهاد بألسنتكم ، ثم الجهـاد بقلوبكم ، فإذ لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله .

الإخــلاص والأمانــة

الإخلاص باب كل عمل، وهو شرط فيها، من حاد عنه حاد عن كل جاد، ومن تمسك به أخذ المفتاح، فعلى العبـد أن يلتزمه مع حضـور النية في جميع أعمالـه وأقواله وأحـواله البارزة والخفيـة، قال تعالى «ومـا أمروا إلا ليعبدو الله مخلصين لـه الذين حنفاء ويقيمـوا الصلاة ويوتوا الـزكاة، وذلك دين القيمة» وقال سبحانه «قل إن تخفوا ما في صـدوركم أو تبدوه يعلمه الله». وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينظـر إلى أجسامكمْ ولا إلى صوركم، ولكن ينظـر إلى قلوبكـم». والإخلاص مصـدره النية الخالصة، كما قال صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيـات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرتـه إلى الله ورسولـه فهجرته إلى اللـه ورسوله، ومن كـانت هجرته لـدنيا يصيبها أو امـرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، أو كما قـال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر فيما رواه عن ربه عز وجل «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملهـا كتبها الله تبارك وتعالى عنـده حسنة كـاملة، وإن هم بها فعملهـا كتبها اللـه عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعـاف كثيرة، وإن هـم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنـده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

إن الإخلاص المصحوب بالنية الخالصة هو منجـاة العبد، ودليل المروءة والاستقامة والمثالية التي يحتذى بها، فعـن عمر رضي الله عنـه قال، سمعت رسـول الله صلى اللـه عليه وسلم يقـول «انطلق ثـلاثة نفـر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غـار فدخلـوه فانحـدرت صخرة من الجبل فسـدت عليهم الغار، فقالـوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو اللـه تعلى بصالح أعمالكم. قال رجل منهم: اللهم كـان لي أبـوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق ــ أي لا أقـدم في الشرب ـ أهـلا ولا مـالا، فنأى بي طلب الشجـر يـوما فلـم أرح ـ أي ارجع ــ عليهما حتى نـامـا، فحلبت لهما غبـوقهم فوجـدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهم أهـلا أو مالا، فلبث والقدح على يـدي أنتظر استيقاظهما حتى بـرق الفجر، والصبية يتضـاغون ـ يصيحون جـوعا ـ عنـد قدمي، فاستيقظـا فشربا غبـوقهما: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغـاء وجهـك ففـرج عنـا مـا نحن فيـه من هـذه الصخـرة. فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه. قال الاخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي ـ وفي روايـة ـ كنت أحبها كأشـد ما يحب الرجـال النساء، فأردتها على نفسهـا فامتنعت مني حتى ألمت بها سنـة من السنين، فجـاءتني فأعطيتهـا عشرين ومـائة دينـار على أن تخلي بيني وبين نفسهـا

ففعلت، حتى إذا قـدرت عليها ــ وفي رواية ــ فلما قعدت بين رجليهـا قالـت : اتق اللـه ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه، فـانصرفت عنها وهي أحب النـاس إلي، وتركت الذهب الـذي أعطيتها. اللهـم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفـرج عنا ما نحن فيـه، فانفرجت الصخـرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثـالث : اللهم استأجرت أُجَرَاء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد تـرك الذي له وذهب، فثمرت أجـره حتى كثرت منه الأمـوال، فجاءني بعد حين فقـال : ياعبد اللـه أد إلي أجري، فقلت : كل ما ترى من أجـرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال : ياعبـد الله لا تستهزيء بي! فقلت : لا أستهزيء بك، فأخذه كله فاستاقه فلـم يترك منه شيئا : اللهـم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

أما الأمـانة فإنها توأمة الإخـلاص، فيها تطهير النفس وزكاتها، وهي سمة الخلق الـرفيع، وعلو الهمة، قـال تعالى «إن الله يـامركم أن تـؤدوا الأمانات إلى أهلهـا» وقلل تعالى «إنـا عرضنا الأمـانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا».

إنه ليس من السهل أن يتحمل كل إنسـان حفظ الأمانة، وإنما يتحملها من فتح اللـه له السمع والبصر والفؤد، وعن بي هريـرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله صلى اللـه عليه وسلـم «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقـوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم صلوات الله عليـه فيقولون : يا أبانـا استفتح لنا الجنة، فيقـول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئـة أبيكم، لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني ابـراهيم خليل الله، قـال : فيأتون إبـراهيم فيقول : لست بصـاحب ذلك، إنما كنت خليلا مَنْ وراء وراء ــ أي لست بتلك الدرجـة ـ اعمـدوا إلى موسى الـذي كلمه اللـه تكليما، فيأتون مـوسى، فيقول : لست بصـاحب ذلك، اذهبـو إلى عيسى كلمة اللـه وروحه، فيقـول عيسى لست بصاحب ذلك، فيأتون محمدا صلى اللـه عليه وسلم فيقوم فيؤذن له وترسل الأمانـة والرحم، فيقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا، فيمر أولكم كـالبرق، قلت : بأبي وأمي أي شيء كمر البرق ؟ قال : ألم تروا كيف يمـر ويرجع في طرفـة عين ثم كمر الـريح ثم كمر الطير، وأشد االـرجال تجري بهم أعمالهم ونبيكم قـائم على الصراط يقـول : رب سلّم سلّم حتـى تعجـز أعمال العبـادو حتى يجيء الـرجل لا يستطيع السير إلا زحفا، وفي حافتي الصراط كلا بيب معلقة مأمـورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكردس في النار، ولـذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خـريفا»، وقال صلى الله عليه وسلـم «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذ وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

إن الإخلاص والأمان صنوان في النفس الآمنة المطمئنـة التي أخذ شعاع نورها من معين الإيمان، وفي هذا القدر كفاية خشية الإطالة.

الحيـــاء والـــورع

الحياء شيمـة المؤمن الصالـح، وعربونـه الواضـح، تندرج تحت ستاره محاسـن الأعمال والأقوال والأفعال، مـر رجل من الأنصار وهـو يعظ أخاه في الحيـاء فقال له رسـول الله صلى اللـه عليه وسلم «دعه فإن الحيـاء من الإيمان»، والحياء قد يجلب على صـاحبه الخير والبركة والاحترام، قـال صلى الله عليه وسلم «الحياء لا يأتي إلا بخير»، وهـو شعبة من الإيمان كما أثبته رسول اللـه صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف «الإيمان بضع وسبعـون أو بضع وستـون شعبـة، فأفضلها قـول لا إلاه إلا اللـه، وأدناها إماطـة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»، وكان رسول اللـه صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء ـ أي البكر ـ في خدرها ـــ أي في سترها ـ فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه. وقال العلماء: حقيقة الحيـاء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، وقال الجنيد: الحياء رؤية الآلاء ـــ ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء.

أما الـورع فهو رتبة عاليـة في النفس، من تمسك به تمسك بالحبل المتين، والقـول المبين، والحجة المثلى، فشرف صـاحبـه وعظم، قال تعـالى «وتحسبه هينا وهـو عند اللـه عظيم» قال النعمان بن بشير، سمعت رسـول الله صلى اللـه عليـه وسلم يقول «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهـات لا يعلمهن كثير من النـاس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لـدينه وعـرضه، ومن وقع في الشبهـات وقع في الحرام، كالـراعي يرعى حـول الحمى يوشك ن يـرتع فيه، ألا وإن لكل ملـك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلـه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». ومـر صلى الله عليـه وسلم فوجـد تمرة في الطـريق فقال «لـولا أني خاف أن تكـون من الصدقـة لأكلتها»، وجاء أحـدهـم إليه عليه الصـلاة والسلام فقـال له «جئت تسأل عن البر؟ قلت نعم، فقـال: استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليـه النفس واطمأن إليـه القلب، والإثم ما حـاك في النفس وتردد الصدر، وإن افتـاك الناس وفأتوك»، وقال أيضـا «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليـه الناس»، وتزوج عقبة بن الحارث ابنـة أبي إهاب بن عزيز. فأتتـه امرأة وقـالت: إني قـد أرضعت عقبـة والتي قـد تـزوج بها، فقـال لها عقبـة، مـا أعلم أنك أرضعتني ولا خبرتني، فذهب إلى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بالمدينة فسألـه، فقال: رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم «كيف وقـد قيل؟» ففارقهـا عقبـة ونكحت زوجا غيره. وقـال الحسن بن علي رضي اللـه

عنهما، حفظت من رسول اللـه صلى الله عليه وسلم «دع ما يـربيك إلى مالا يريبك»، وقالت عـائشة رضي الله عنها : كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنـه غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يـوما بشيء فأكل منه أبوبكر، فقـال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقـال أبو بكر : وما هو ؟ فقال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته، فلقيني وأعطاني لذلك ــ هذا الذي أكلت منه ــ فأدخل أبو بكر يـده فقاء كل شيء في بطنه . وهذا عمـر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف، وفرض لابنه ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فقيل له : هو من المهـاجرين فلم نقصته ؟ فقال : إنما هاجـر به أبوه، ليس هو كمن هاجـر بنفسه، وقال صلى الله عليه وسلـم «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لابأس به، حذرا مما به بأس» .

فيا سعد من جعل الورع لباسه والحياء زينته .

الألفة والمحبة والعشق

الألفة من حسن الخلق، وحسن الخلق لا تخفى فضيلته في الإسلام، قال تعالى مخاطبا نبيه «وإنك لعلى خلق عظيم». وقال صلى الله عليه وسلم «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وما أحسن الألفة إذا كانت رابطتها التقوى وحب الله، قال تعالى «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم»، وقال صلى الله عليه وسلم «إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون» وقال أيضا «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»، قال مجاهد : المتحابون في الله إذا التقوا أَلِفوا بعضهم إلى أن تتحاتَّ عنهم الخطايا كما يتحاتُّ ورق الشجر في الشتاء إذا يبس.

وأما المحبة فهي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، وهي لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى «والذين آمنوا أشد حبا لله». وقال صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين» وفي رواية «ومن نفسه»، وقيل عن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاء لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ؟ فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت الآن فاقبض. ومن دعائه صلى الله عليه وسلم «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب لي من الماء البارد»، وقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى، شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال أبو سليمان الداراني : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه، فكيف يشغلون عنه في الدنيا ؟. ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار. فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة، فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم من نور، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل، فقال : أنتم المقربون أنتم المقربون . وقال يحي بن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده ؟ ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه ؟ ومحبة الله

تعالى لا تتصور إلا بعد معـرفة و إدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه، ومـادام الحب بالإدراك فهو مقسم على مدركـات الحواس، ولكل حاسـة لذة، فلذة العين في الإبصـار و إدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعام وأصنافه، ولذة اللمس في اللين والنعومة. ولما كانت هذه المدركات بالحواس لذة كانت محبوبة ـ أي كان الطبع السليم يميل إليها ـ وقـال صلى الله عليه وسلم «حبب إلي من دنياكم ثلاث. الطيب والنساء وجعلت قـرة عيني في الصلاة» وقد سمى صلى اللـه عليه وسلم. الصلاة قرة عين ــ فجعلها أبلغ المحبـوبات، وهي حس سـادس مسكنه القلب لا يـدرك ذلك إلا أصحـاب القلوب المبصرة، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكا من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، لذلك تكون لذة القلب بما يدركه من المعاني الإلاهية الشريفة أقوى بكثير مما تدركه الحواس.

ومن أحـوال المحبة و الأنس البسط والقبض والمراقبـة والهيبـة والفناء والبقـاء والمشاهـدة إلى غير ذلك، فمقام المحبة تـدخل فيه هذه الأحوال، ولدقة معنى هـذا المقام عن الأفهام، فإني أفضل أن لا أخوض فيه أكثر، وإنما ألمح إليه بأقوال عارفيه.

فالحلاج يقول: المحبة الأنس قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك، لأن كلية المحب تطابق كلية المحبوب، فغيبته غيبة محبوبه ووجوده وجـوده. وقيل: المحبة محو المحب بصفاته، و إثبات المحبوب بذاتـه. وقيل: المحبة أن تهب كليتك لمحبوبك، فـلا يبقى لك منك شيء. وقيل: المحبة معنى من المحبوب، قاهرا للغلب، تعجز العقول عن إدراكه، وتمتنع الألسنة عن العبارة عنه.

وأما العشق فهـو أقصى درجات المحبـة ومجاوزة الحد فيها، وقيل «كل عـاشق محب، وليس كل محب عـاشقا»، وحـد هذا المقـام يعجز اللسـان عن وصفـه، كما عجز عن حـد المحبة، وسئل عنـه الحكماء فقيل: دق عن الأفهام مسلكه، وخفي عن الإدراك موقعه، وحارت العقول في كيفية تمكنه. وقـال بعض العلماء حد العشق امتـزاج ظل الجمال بملكوتيـة الأوصـال. وقالـوا أيضا «العشق شـدة الشوق إلى الاتحاد، وقيل «العشق جنون إلهي» ـ أي لا يدبـر بعقل ولا تجري فيه أمور العشق ـ والعشق مصدر جميع النسب العلـوية والسفلية، فكل جوهـر نوراني في العالم العلوي إما عـاشق أو معشوق، وكذا مقابله في جميع الكائنات حتى الأحجار فقد تجدها إلى بعضها.

والعشق مغناطيس النفوس وشعاع نور الجمال، فـالأرواح تنجذب إلى بعضها حتى تتحد وتمتزج أجزاؤها حتى يستحيل تمييزها كامتزاج الماء أو النور بالنور عند أصحاب الذوق.

ومقام العشق هـو أقصى مقامات الـذهول والغيبة عن الحس والاتصـال بالعالم الـروحاني، فإذا وصل العبد إلى هذا المقـام اطلع على أسرار الغيب وأخبر معانيه وانكشف له الغطـاء، وهذا الاتصال يختلف، فإن كان بالأنوار القدسية كان الإخبار بالغيب الكلي، وإن كان بالنفوس الجزئية كان الإخبار عن الغيب الجزئي، وهو غيب المحجوب لاتصال النفس.

والنفس إذا صفت ارتقت ونقشت فيها أمثلة الكائنات، واطلعت على الغيبات، وأثرت في السلفيات على قدر تشبهها بالعالم العلوي حسب حظوتها الربانية. وعند هذا الحد يعاين الجمال الكلي الذي هو معدن كل جمال، فيتلاشى في مشاهداته إلى أن يصير من جملة المقربين، ويتولى عليه إشراق نورالحق وتستعد ذاته لتقبلها، وبذلك تزداد صفاء إلى أن ترفع لها حجب الرحمن، فترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فتفنى عن رؤية فنائها، وتصل إلى بقائها السرمدي الذي هو البقاء بربها لا بذاتها، وتسمع نداء الحق لها «ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»، وفي نفس السياق تسمع أيضا نداء الحق قائلا «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين».

قيـــام الليـــل

قال تعالى «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل» ، وقوله عز وجل «والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما» ، وقـال صلى الله عليه وسلم «يعقد الشيطان على قافية رأس أحـدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقـدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلانـا» ، وقال أيضـا : إن من الليل ساعـة لا يوافقهـا عبد مسلم يسأل اللـه تعالى خيرا إلا أعطاه إياه» . وكان صلى الله عليه وسلم يقوم الله حتى تتفطـر قدماه ، فقيل له : أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ومـا تأخر ؟ فقال «أفلا أكون عبدا شكورا» ، وقـال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليـه وسلـم : نعم الرجل ابن عمر لو كـان يصلي بالليل ، فأخبره صلى الله عليـه وسلم بذلك ، فكان يداوم بعده على قيام الليل ، وقال نافع : كـان يصلي الليل ثم يقول : يانافع أسحرنا ؟ فأقول : لا ، فيقوم لصلاته ثم يقول : يا نافع أسحـرنا ؟ فأقول : نعم ، فيقعد ، فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر. وقـال علي بن أبي طالب : شبع يحيى بن زكـرياء عليهما السلام من خبـز شعير فنام عن ورده حتى أصبح ، فأوحى اللـه تعالى إليه ؛ يـا يحيى ، أوجدت دارا خيرا لك من داري ؟ أم وجـدت جوارا خيرا لك من جـواري ؟ فوعـزتي وجـلالي يا يحيـى لو اطلعت إلى الفـردوس إطـلاعة لـذاب شحمك ولـزهقت نفسك اشتيـاقا ، ولـو اطلعت إلى جهنم إطـلاعـة لـذاب شحمك ولبكيت الصديـد بعـد الدموع ، ولبست الجلـد بعد المسوح . وقال صلى الله عليـه وسلـم «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكـرات» ، وقال أيضا «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل» . وقدم بعض الصالحين من سفـره ، فمهد له بفراش فنام عليـه حتى فاته ورده ، فحلف أن لا ينام بعدها على فـراش أبدا . وكان ابن أبي رواد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمـر يده عليه ويقول : إنك للين ، ووالله إن في الجنة لألين منك ، ولا يزال يصلي الليل كله . وقال الفضيل : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم ، وقد كثرت خطيئتك ، وقال الربيع : بت في منزل الشافعي رضي الله عنه ليال كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا . وقال أبو الجويريه : لقد صحبت أبا حنيفة رضي الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلـة وضع جنبه على الأرض ، وكان أبو حنيفة يحيى نصف الليل فمر بقوم فقالوا : إن هذا يحي الليل كله ، فقال : إني استحي أن أوصف بها لا أفعل ، فكان بعد ذلك يحي الليل كله ، ويروى أنه ما كان له فراش بالليل . ولقيام الليل شروط أربعة :

ـ أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب، فيغلبه النوم، ومن خلاله يثقل عليه القيام .

ـ أن لا يتعب نفسه بالنهار حتى لا تضعف الجوارح والأعصاب لتكون سببا في جلب النوم .

ـ أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها حسنة تساعد على قيام الليل .

ـ أن لا يرتكب الأوزار بالنهار حتى يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة . فيبتعد عن قيام الليل .

دخل بعضهم على كرز بن وبرة وهو يبكي، فقلت : أتاك نعي بعض أهلك ؟ فقال : أشد، فقلت : وجع يؤلمك ؟ فقال : أشد، قلت فما ذاك ؟ قال : بابي مغلق وستري مسبل ولم اقرأ حزبي البارحة، وماذاك إلا بذنب أحدثته، وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشر يدعو إلى الشر، والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير. إن الذنوب تقسي القلب، فتمنعه عن قيام الليل، خاصة إذا كانت فيه لقمة حرام، بينما لقمة الحلال تصفي القلب وتحركه إلى الخير.

وهناك مسيرات باطنة تساعد على قيام الليل يمكن حصرها في أربعة :

ـ سلامة القلب من الحقد وهموم الدنيا من مال وغيره .

ـ خوف يلزم القلب من أهوال الآخرة ودركات جهنم .

ـ السماع إلى الآيات والأخبار والآثار التي يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى الثواب .

حب الله وقوة الإيمان، وذلك ما يدفعه إلى حب الخلوة، وفي الخلوة لا محالة يتلذذ بالمناجاة، فتنتهي به المناجاة إلى حب الحبيب بطول القيام .

قال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتي بربي، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس علي . وقال ابن المنكدر : ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث : قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في الجماعة . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارا، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافي إلى قلوب الغافلين . وقال بعض العلماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين، إن لي عبادا من عبادي أحبهم ويحبونني ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إلي وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك، قال يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمة، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلي أقدامهم وأفرشوا إلي وجوههم، وناجوني بكلامي وتملقوا إلي بإنعامي، فبين صارخ وباكي وبين متأوه وشاكي بعيني ما يتحملون من أجلي وبسمعي ما يشتكون من حبي، أول ما أعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه، أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ . وقال

صلى الله عليه وسلم «إن من الليل ساعة لا يوافقهـا عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه» . ولمقدار قيام الليل مراتب سبعة :

ـ إحيـاء كل الليل ، وهذا شأن الأقويـاء الذين تجردوا لعبـادة الله ، فصار ذلك حيـاة لقلوبهم ، وردوا النوم إلى النهار.

ــ القيـام نصف الليل ، وأحسن طـريق فيه ، نـوم الثلث الأول من الليل والسـدس الأخير منـه ليتمكن من القيام في جوف الليل ووسطه .

ـ أن يقوم ثلث الليل ، وينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير.

ـ أن يقوم سدس الليل أو خمسه ، وأفضله النصف الأخير، وقبل السدس الأخير منه .

ـ أن لا يراعي التقدير، وتلك طريقة أولي العـزم من الصحابة والتابعين ، وقيام الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن على تـرتيب واحد ، ربما قـام نصف الليل أو ثلثه أو سـدسه ، قـال تعالى «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه» .

ـ أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين ، وهذا أقل قيام الليل .

هذه مقـادير القسمـة لقيام الليل ، فإن تعـذر على المريد ، فليختر مـا هو أيسر، فإن تعـذر قيام وسط الليل مثلا فـلا ينبغي أن يهمل إحياء ما بين العشـاءين والورد الذي بعد العشـاء ، والقيام وقت السحر قبل أن يدركه الصبح نائما ، وهذه هي المرتبة السابعة .

وهناك ليالي مخصوصة عن غيرها بمـزيد الفضل يستحب إحياؤها ولا ينبغي إغفالها . خمس ليال من أوتـار العشر الأواخر من رمضـان ، وفيها تطلب ليلـة القدر. وليلـة السابع عشر من رمضـان وفي صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، فيها كانت وقعة بدر، وقيل عن الزبير إنها ليلة القدر. وليلة المحرم وليلـة عاشـوراء . وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف منـه ، وليلة السبع والعشرين منـه . وليلة المعراج ، وليلة النصف من شعبان . وليلة عرفة ، وليلة العيدين .

ثم هناك أيام فاضلة يستحب فيها مواصلة الأوراد ، وهي :

يوم عرفة ، ويوم عاشـوراء ، ويوم السابع والعشرين من رجب . ويوم السابع عشر من رمضان . ويـوم النصف من شعبان . ويـوم الجمعة ، ويـومـا العيدين . والأيـام العشر من ذي الحجة . والأيـام المعدودات ـ وهي أيـام التشريق ـ . ومن فواضل أيام الأسبوع ، يـوم الخميس ويوم الاثنين ، فيهما ترفع الأعمال إلى الله تعالى .

الصـــوم

الصوم حصن الأولياء، ومفتاح الجنة، به تصبح النفس مطمئنة، وهو كما قال صلى اللـه عليه وسلم «الصـــوم نصف الصبر» والصبر نصف ثـان كما قـال صلى اللـــه عليـــه وسلم «الصبر نصف الإيمان»، وقد ميز الله الصوم من بين سائر الأركان، إذ قال فيه سبحانه فيما حكاه عنه النبي صلى الله عليه وسلم «كـل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيـام فإنه لي وأنـا أجزي بـه»، وما دام الصوم نصف الصبر فقد جـاوز ثوابه، وعنه يقول صلى الله عليه وسلـم «والذي نفسي بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»، وقال صلى الله عليـه وسلـم «للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصـائمون، وهو موعـود بلقاء الله تعالى في جزاء صومه»، وقال صلى اللـه عليه وسلم «للصائم فرحتان، فرحة عند إفطاره وفرحة عنـد لقاء ربه»، وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل انظروا يا ملائكتي إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي».

والصوم سر ليس فيه عمل يشـاهد، لذا لا يراه إلا الله عز وجل، لأنـه عمل في الباطن بالصبر المجرد، ثم هو قهر لعدو الله الشيطان، لأن الشيطان يتسرب عن طريق الشهوات، والشهوات تقوى عن طريق الأكل والشرب، قال صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم». فالصوم يقمع الشيطـان ويسد مسالكه ويضيق عليه الخناق، ومن ضيق الخنـاق على عدو الله نصره اللـه، قال تعـالى «إن تنصروا الله ينصركـم ويثبت أقدامكم»، فـالبدايـة بـالجهد من العبد، والجزاء بالهداية من الله عز وجل، قال سبحانه وتعالى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، وقد قـال صلى اللـــه عليـه وسلم «لـولا أن الشيـــاطين يحومـون على قلـوب بني آدم لنظـــروا إلى ملكـوت السموات»، فمن هذا الوجه كان الصوم باب العبادة، وجنة من الشيطان.

وللصوم ست واجبات ظاهرة هي :

- رؤية الهلال أو استكمال الثلاثين من شهر شعبان.
- النية لكل ليلة، ومصدرها القلب.
- الإمساك عن إيصال الطعام إلى الجوف عمدا. من الفجر إلى غروب الشمس.
- الإمساك عن الجماع من الفجر إلى غروب الشمس.

ـ الإمساك عن الاستمناء، وهو إخراج المني قصدا بجماع أو بغير جماع .

ـ الإمساك عن إخراج القيء .

وسننه ستة وهي :

تأخير السحور، وتعجيل الفطور بتمر أوماء قبل الصلاة، وترك السواك بعد الزوال، والجود في شهر رمضان، ومدارسة القرءان، والاعتكاف في المسجد لا سيما في العشر الأخيرة .

والصوم ثلاث درجات كما قسمها الإمام الغزالي في الإحياء، صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص .

فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج .

وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وكل الجوارح عن الآثام .

وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن كل دنية ودنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في الدنيا التي يراد بها الدين باعتبار أن ذلك من زاد الآخرة .

بينما صوم الخصوص الذي هو صوم الصالحين، فيه كف الجوارح كغض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره ويلهي عن ذكر الله، كما قال صلى الله عليه وسلم «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنهُ الله، فمن تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يجد حلاوته في قلبه»، وكذلك حفظ اللسان من الكذب والغيبة والنميمة والفحشاء والمراء والخصومة إلى غير ذلك، وإشغاله بذكر الله عز وجل، قال صلى الله عليه وسلم «إنما الصوم جنة، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث، ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم»، وكذلك السمع عن كل مكروه وحرام، وكف بقية الجوارح عن الآثام من يد ورجل وبطن، قال صلى الله عليه وسلم «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش»، وعلى الصائم أن لا يكثر من الطعام وقت الإفطار، علما بأن الصوم هدفه كسر الهوى لتقوى النفس على تقوى الله، وكسر الشهوة التي هي من وسائل الشيطان للعود إلى الشرور، ومن الآداب أن لا يكثر الصائم النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو قلبه وينظر إلى ملكوت السماء، فخلو المعدة يدفعه لرفع الحجاب إذا استمر في تهجده وورده، خاصة إذا كان قلبه معلقا بالله وهو بين الخوف والرجاء في صومه أو بعد إفطاره .

والصوفية يفهمون من مقصود الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بمجاهدته، فكلما انهمك الإنسان في الشهوات انحط إلى أسفل والتحق بغمار البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة، والملائكة مقربون من الله، فالذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم .

وقد رأى بعضهم من يصوم الدهر كله، مع أنه سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، فالإنسان إذا رأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل إذا لم يكن فيه مجلبة ضرر كما فعل

جماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، كما قال صلى الله عليه وسلم «من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم . . . وعقد تسعين» معناه لم يكن له فيها موضع .

وقد كره بعض السالكين صيام الدهر، والغزالي يقول في الإحياء : والصحيح أنه إنما يكره لشيئين : أحدهما : أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله . ومن الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر قوله صلى الله عليه وسلم «لا صام من صام الأبد» ، وفي حديث أبي قتادة «قيل يارسول الله كيف بمن صام الدهر ؟ قال : لاصام ولا أفطر» .

وهناك درجة أخرى من الصوم وهو نصف الدهر، بأن يصوم يوما ويفطر يوما ، وهذا أشد على النفس وأقوى في قهرها ، والعبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم ، وفيه قال صلى الله عليه وسلم **«أفضل** الصيام صوم أخي داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما» وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان .

ومن لم يقدر على صوم نصف الدهر فليصم يوما ويفطر يومين ، ومن لم يقدر فليصم الثلث ـ أي صيام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من وسطه ، وثلاثة من آخره ، أو أن يصوم الاثنين والخميس والجمعة ، فذلك قريب من الثلث .

وبصفة عامة أن يفهم الإنسان معنى الصوم ، فإن مقصوده تصفية القلب من الشوائب وتفريغ الهمة لله تعالى ، والمتفطن لدقائق الباطن ينظر إلى أحواله ، فقد يقتضي حاله دوام الصوم ، أو دوام الفطر ، أو مزج الإفطار بالصوم ، فإذا فهم المعنى وتحقق وحده بالسلوك السوي في مراقبة القلب ، فإن ذلك لا يوجب ترتيبا .

الرياضة والاعتكاف والخلوة

إن الإنسان مطبوع على سبعة :

الغفلة والشك والشرك والرغبة والرهبة والشهوة والغضب ، فإن حلت به عناية الرحمن عرف ربه ، فتنصرف عنه الغفلة والشك والشرك ، حيث يعلم ربه يقينا ، وكلما ازداد معرفة وعلما بربه استنار قلبه ونقصت باقي الخصال ، إلى أن يمتلىء صدره بعظمة الله فعندها ينكشف الغطاء .

فيجب رياضة النفس التي اعتادت الشهوة والهوى في كل شيء ، ويجب فطمها حتى يصير القلب حرا .

وأصحاب الفهم راضوا أنفسهم وتدبروا أمرهم ، وقطعوا أسباب الشهوات فخمدت نيران شهواتهم وفاقوا الهوى بمجاهتهم إياه وسلموا أنفسهم لربهم وانقادوا لحكمته فعاشوا في الدنيا بأرفع درجة وأكرم منزلة عند أنفسهم وقروا عينا بهذا الدين الأحمدي وفي الآخرة قربهم ربهم«أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون» وأولئك «أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون» ، وكلما حل بهم أمر كان عسرا أو يسرا أو ذلا أو عزا أو بلاء أو نعمة تلقوا ذلك بهشاشة وطلاقة نفس وبشر.

والرياضة مشتقة من الرضّ ـــ بمعنى الكسر ـ بحيث أن النفس اعتادت اللذة والشهوة والهوى ، فهي متحيرة ، لذلك محتاجة إلى انفطامها وكسرها ومنازعتها في أمور شتى حتى تأخذ طريقها نحو الله عز وجل وتصل إلى اليقين ، واليقين نبعه الطهارة ، والطهارة مسكنها القلب ، فالقلب إذن يتطهر من الشهوات ، فيصقل ويصير كالمرآة ، حتى إذا تأملت شيئا من الآخرة تجلى لك ذلك في مرآتك معاينة ، وتجلى لك أمر السموات ، تبصر ذلك بعيني قلبك كأنك تنظر إليه .

والعبد إذا اشتاقت نفسه إلى التطهير فعليه أن يبتدىء أولا بالرياضة ، وذلك أن يصوم شهرين متتابعين من الله عز وجل ، بعدها ينتقل من الصوم إلى الإفطار ، فيأكل اليسير من قوته ، وإن كان في اليوم مرارا كسرة كسرة فهو أجود ، بدل أن يملأ بطنه في وقت معين ، ومن المعلوم أن سالك هذا الطريق لا يأكل حتى يتخم ، إنما أشرنا إليه بأن يأكل كسرة كسرة ليداري نفسه على ذلك ، وبين الأيام دسما قليلا حتى لا تهيج عليه الأرياح ويضطرب الجسم ، وعليه أن يقطع كل الشهوات المغرية من أكل وملبس وما يدفع إلى فرح ولذة ومجالسة الإخوان . وباختصار أن يتفقد حال نفسه حتى أنه يحرمها من شربة ماء بارد إن تشوفت إليه ، لكونه لذتها ، فينغص على النفس حتى تسكن فورتها وثورتها ، بعد

أن نغصها هما وأشبعها غما وجعلها في سجن ، فيتقرب إلى الله عز وجل بسبب غمها وهمها وسجنها ، فيجعل الله ثوابه نورا على القلب ، فيزداد القلب نورا وقوة على منع النفس لشهوتها ويستولى عليها إلى أن يصل القلب إلى الأنس بالله والطمأنينة إليه وصفاء الحب إليه . فيمتلأ فرحا وسرورا ويقينا ، فحينذاك إذا مد يده إلى الدنيا أو الآخرة لم يضره ، لأنه حافظ للحدود ومعتصم بخوف الله عز وجل ، ولسانه ذاكر ، وبدنه شاكر صابر ، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مسكنا ، مثله مثل من شرب ترياقا فامتلأت عروقه منه إذا مد يده إلى حية لم يضره سمها ، لأن السم لم يجد مسلكا إلى عروقه ، فيكون إذا أخذ أخذ بحق ، وإذا أعطى أعطى بحق .

ويقال أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام ، بعد أن ملك خزائن الأرض ، وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه ، وكان يركب في زهاء اثنى عشر ألفا من عظماء مملكته : سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له ، وقد قال يوسف عليه السلام ـ كما أخبر الله بذلك في القرآن «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» .

وأما الاعتكاف فهو شرط للسالك تتوقف مدته حسب ما يراه ، وفيه قال تعالى «وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود» ، وقال عز وجل «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد» . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوما . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه ، وأنه أمر بخبائه ، فضُرب . أراد الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان ، فأمرت زينب بخبائها ، فضرب وأمر غيرها من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بخبائه ، فضرب ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر نظر ، فإذا الأخبية ، فقال : «البرَّ تردن ؟» فأمر بخبائه . فقُوض وترك الاعتكاف في رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال .

والخباء ما يعمل من صوف أو شعر أو وبر وينصب على عمودين أو ثلاثة ، فلما نصب الخباء للنبي صلى الله عليه وسلم اقتدى به الزوجات الطاهرات رغبة في المسجد وقربهن من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه خاف تضييق المسجد فأنكر عليهن بقوله «البِّر تردن ؟» بالاستفهام الإنكاري ـ أي أترغبن في الطاعة بهذا ـ وأمر بحل خبائه وترك الاعتكاف حتى اعتكف العشر الأولى من شوال . وأما الاعتكاف فأوله قبيل الغروب لأن الليل سابق النهار ، ويجوز للمعتكف أن يخرج لحاجته كبول أو غائط أو حجامة أو غسل وطهارة . وقالت عائشة رضي الله عنها : السنة على المعتكف ألا يعود مريضا ولا يشهد جنازة ولا يمسّ امرأة ولا يباشرها ولا يخرج لحاجة إلا لما لابد منه ، ولا اعتكاف إلا بصوم ، ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع . وقال صلى الله عليه وسلم في المعتكف «هو يعكف الذنوب ويجري له من الحسنات كعامل الحسنات كلها» فالاعتكاف يحفظ المعتكف من الشرور ، ويكتب له كثواب فاعل الطاعات كلها ، لأنه حبس نفسه في بيت الله تعالى طلبا لرضاه . وقال صلى الله عليه وسلم «من اعتكف عشرا في رمضان كان كحجتين وعمرتين» .

وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، لأنهما دهليز القلب، والقلب كحوض تنصب إليه مياه كدرة من أنهار الحواس، لذلك كانت الرياضة سبب إفراغ تلك المياه ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر عن طريق ضبط الحواس بسبب الخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن مظلما فليلف رأسه، وبعد مدة يشاهد جلال الحق. وهذا التجرد لا يحصل إلا بصدق إرادة واستيلاء حب الله على القلب حتى يكون في صورة عاشق، حيث يشغل لسانه وقلبه بأذكار مثل : الله، الله. أو سبحان الله، وهكذا ولا يزال يواظب على ذلك الذكر حتى يسقط من حركة اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا تزال كذلك حتى تمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرة معه، غالبة عليه. وبذلك يخلو قلبه من كل شيء ولا يبقى إلا ذكر الله، فعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما مضى من أحواله وأحوال غيره، فلا يدع فرصة لذلك، لأنه كلما اشتغل بها في تلك اللحظة إلا خلا قلبه من الذكر، فليجتهد في دفع ذلك، وإذا ما أحاطت به فليفزع إلى ذكر الله ويبتهل إليه بدفع ذلك، قال تعالى «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم» وقال تعالى «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون».

والخلوة لها عدد من الأيام وعدد من الأوراد، فهي إما ثلاثة أيام أو سبعة أو أكثر إلى أربعين أو إلى سبعين، وداخلها يصلي ركعتين ويقرأ سورة يس وآية الكرسي ثم يجلس جلسة الصلاة مستقبلا القبلة مغمضا عينيه ثم يأخذ في ورده، وإن شق عليه في هيأة الجلوس فليروح نفسه على هيأة أخرى، ويلازم الطهارة المائية، وإن كان له عذر فليتيمم، ولا يكون نومه إلا غلبة، ويلزم خلو البطن من الطعام لأن ذلك مدعاة إلى النوم، والجلوس للذكر على هيئة الخضوع لعظمة الله جل جلاله، وإغماض العينين وكف السمع ما أمكن، إذ بذلك يمكن الاستعانة على جمع الفكر، لأن الفكر يتشعب بتشعب الشواغل الواردة عليه من الحواس، كما ينبغي الالتزام بأعداد الورد، وهنا لابأس من استعمال السبحة لحصر العدد وعدم انشغال الفكر مع العد والعدد، وأن لا يقطع ورده بكلام أو غيره.

فلزم أيها الراغب إلى ما ذكرناه، واعلم بأن دقائق علوم الصوفية منح إلاهية، ومواهب اختصاصية : فشمر عن ساعد الجد نحو العمل قدر الاستطاعة، والجأ إلى الله في كل فتح على قدر الهمة. قال الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، والمراء والجدال، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال.

الذكــر والدعــاء والــورد

روي عن أبي هريـرة أن فقراء المهاجرين أتـوا رسول الله صلى الله علي وسلم فقـالوا : ذهب أهل الدثـور ـ أي أصحـاب المال ـ بـالدرجـات والنعيم المقيم ، فقال ومـاذاك ؟ قالـوا : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، ويتصـدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم «أفلا أعلمكم شيئا تـدركون به من سبقكم وتسبقون به بعـدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة» قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ذلك فضل الله يوتيه مـن يشاء» . وزاد أبو داود : وتختمها بلا إلاه إلا اللـه وحده لا شريك له ، له الملـك وله الحمد ، وهـو على كل شيء قديـر . ولفظ الترميذي : قـولوا سبحـان الله ثـلاثا وثـلاثين ، والحمد للـه ثلاثـا وثلاثين ، واللـه أكبر أربعا وثلاثين ، ولا إلاه إلا اللـه عشر مرات . ولمسلم : من سبح اللـه في دبر كل صلاة ثـلاثا وثلاثين ، وحمد اللـه ثلاثا وثلاثين ، وحمد اللـه ثلاثا وثـلاثين ، وكبر الله ثلاثـا وثلاثين ، فتلك تسعة وتسعـون ، وقال تمام المائة لا إلاه إلا الله وحده لا شريـك له ، له الملك وله الحمـد ، وهو على كل شيء قدير ، غفرت خطـاياه وإن كانت مثل زبد البحر . هذا فيما يرجع للـدعاء والذكر عقب الصلاة .

أما صلاة الاستخارة كما روي عن جابر قـال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمـور كلها كما يعلمنـا السـورة من القرآن ، يقـول «إذا هم أحـدكم بالأمـر فليركع ركعتين من غير الفـريضة ثم يقـول : اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقـدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت عـلام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال ـ عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هـذا الأمر شر لي في ديني ومعـاشي وعاقبـة أمري ـ أو قال ـ في عـاجل أمـري وآجله ، فـاصرفه عني واصرفني عنـه ، واقـدُر لي الخير حيث كان ثم ارضني بـه ، قـال : ويسمي حاجتـه» ، وصلاة الاستخارة مستحبة عند كل أمر هام كالاستشارة ، غير أنها لا تصلي وقت الكراهية . وأما صلاة التسبيح فهي كما رواها ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال للعباس بن عبد المطلب : «يـاعباس ياعماه ، ألا أعطيك ، ألا أمنحك ، ألا أحبـوك ، ألا أفعل بك عشر خصال

إذا فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، صغيره وكبيره، سره وعلانيته، عشر خصال أن تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إلاه إلا الله والله أكبر، خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشرا، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرا، ثم تهوي ساجدا فتقولها وأنت ساجد عشرا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا، ثم تسجد فتقولها عشرا، ثم ترفع رأسك فتقولها عشرا، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، ثم تفعل ذلك في أربع ركعات، إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل، ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة. وزيد في رواية : فإنك لو كنت أعظم أهل الأرض ذنبا غفر لك بذلك.

وأما صلاة التوبة، كما قيل عن علي كرم الله وجهه : كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني رجل من الصحابة استحلفته. فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر وهو صادق قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما من رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية ـ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ الآية».

وفي صلاة الحاجة كما روي عن عبدالله بن أوفى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ، فليحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين وليثن على الله وليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يقول : لا إلاه إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد الله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة لك رضا إلا قضيتها، يا أرحم الراحمين».

وقال صلى الله عليه وسلم «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة , هو الله الذي لا إلاه إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدىء المعيد المحي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور».

وفي التسبيح قـال صلى اللـه عليه وسلم «كلمتـان خفيفتـان على اللسـان، ثقيلتان في الميـزان، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال «أمسينـا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لاإله إلا الله وحـده لا شريك له، لـه الملك ولـه الحمد، وهـو على كل شيء قـديـر، رب أسألك خير ما في هـذه الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعـوذ بك من عذاب النـار وعذاب القبر. وإذا أصبح قـال ذلك أيضا : وأصبح الملك لله»، وكان صلى الله عليـه وسلم أكثر دعائه «اللهم ربنا آتنا في الدنيـا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» .

والذكر أو رده الله تعالى في آيات، منها قوله تعـالى «فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكـم»، وفيهـا قولـه تعالى «الذين يـذكرون الله قيـاما وقعودا وعلى جنـوبكم»، وقولـه تعالى «واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القـول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين»، وقال «ولذكـر الله أكبر»، وقال صلى عليه وسلم «يقـول الله عز وجل أنا مع عبـدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بي»، وقـال صلى الله عليه وسلم «مـا عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب اللـه من ذكر الله عـز وجل : قالوا يـا رسول الله ولا الجهـاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهـاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب بـه حتى ينقطع، ثم تضرب به حتى ينقطع»، وقـال صلى الله عليه وسلم «يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه، وإذا تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا، وإذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا، وإذا مشى إلي هرولت إليـه». والذكر لـه سبع درج في الإنسان، إذا انتهى إليهـا كان أقصى الكمال، وكلها ناشئة عن الذكر باللسان، أولها الذكر باللسان، وثـانيها الذكر بالقلب، وثالثها الذكر بالروح، ورابعها الذكر بالسر، وخامسها بالعقل، وسادسها الـذكر بالشعور، وسابعها الذكر بالله وهو الكمال عند المشايـخ، إذا وصل المرء إلى هذا المقام صار من أربـاب المشاهدة. والذكر المطلـوب من العبد أن يذكر الله باللسان وهو حاضر القلب والروح وجميع القوى متوجها إلى ربه تاركا كل الخواطر وأحاديث النفس عنه، فإذا داوم على ذلك انتقل الذكرمن اللسـان إلى القلب، ثم لا يزال كذلك حتى يتجلى له الحق من وراء الأستار فيشرق الباطن وتظهر التجليات، فيفنى العبد في الحق .

وكان أحد المشـايخ من أصحاب القلوب إذا أمر واحدا من مـريديه بالخلوة والذكـر، فكان بعد الأربعين يوما عنـد استكمال مدة الخلوة وحصول التصفيـة التامة يقرأ عليـه الأسماء التسعة والتسعين، ويقول للمريد اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الأسماء، فكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قد قوي وتأثر وعظم شوقه إليه فاعرف أن الله يفتح أبواب رحمته عليك بواسطة المواظبة على ذكر ذلك الاسم .

والمتصوفة يقـولون : إن للذكر بدايـة، وهي التوجه الصادق، وله وسط وهـو النور الخارق، وله نهاية وهو الحال الخارق، وله أصل وهو الصفاء، وفرع وهو الوفاء، وشرط وهو الحضور، وبساط وهو العمل الصالح، وخـاصية وهو الفتح المبين. وقـال أبو سعيد الخراز رضي الله عنـه : إذا أراد الله أن

يوالي عبدا فتح له بـاب الذكر، فإذا استلذ بالذكر فتح عليـه باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس، ثم أجلسـه على كـرسي التـوحيـد، ثم رفع عنـه الحجب وأدخلـه دار الفـردانيـة وكشف عنـه الجلال والعظمة، فإذا نظر الجلال والعظمة بقي بلا هو، فيصير فانيا محفـوظا لله. وقال غيره : الذكر ترياق المذنبين وأنس المنقطعين وكنز المتوكلين وغذاء الموقنين وحلية الواصلين ومبدأ العارفين وبساط المقربين وشراب المحبين. وقال بعض المفسرين لقـوله تعالى « فمنهم ظالم لنفسـه» هو الذاكر بلسـانه «ومنهم مقتصد» هو الذاكر بقلبه «ومنهم سابق بالخيرات» هو الذي لا ينسى ربه.

وفضيلة الدعاء يكفي ما قالـه عز وجل «وقال ربكم أدعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيد خلون جهنم داخلين» وقال عز وجل «قل ادعوا اللـه أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى»، وقـال صلى الله عليـه وسلم «إن الدعـاء هو العبـادة، ثم قرأ : «ادعـوني استجب لكم». وقال أيضا «ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء».

وللدعاء آداب، منها أن يترصد لدعائه الأوقـات الشريفة كعرفة ورمضان والجمعة ووقت السحر من الليل. وأن يغتنم الأحوال الشريفة كالزحف عن الصف وعند إقامة الصلاة وعند أول الغيث وبين الآذان والإقامة وعند السجود، وأن يستقبل القبلـة وقت الدعاء مع رفع اليدين من غير أن ترفع بصرك نحو السماء. وخفض الصوت بين الجهر والخافتة. وعدم تكلف السجع في الدعاء. فعلى الداعي أن يكـون حالـه حال متضرع. والتضرع والخشـوع والرغبـة والرهبـة. وأن يجزم الدعـاء ويوقن بـالإجابـة ويصدق الرجـاء. وأن يلح في الدعاء ويكرره ثـلاثا. وأن يفتح الدعاء بـذكر الله فلا يبـدأ بالسؤال. وأدب الباطن وهـو الأصل في الإجابـة كالتوبـة ورد المظالم والإقبال على اللـه. والطريق إلى اللـه تعالى مراقبة الأوقات، وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام، قال تعالى «إن لك في النهار سبحا طويلا، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتـلا»، وقال عز وجل «واذكر اسـم ربك بكرة وأصيلا، ومن الليل فاسجـد له وسبحه ليلا طويلا»، وقال عـز من قائل «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود»، وقال تعالى «أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، وقال صلى الله عليه وسلم «أحب عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لـذكر الله تعالى» والأوراد في مجموعها أحد عشر وردا، منها ستة بالنهار وأربعة بالليل :

فأما أوراد النهار السبعـة فهي ورد ما بين طلوع الصبح إلى طلوع قـرص الشمس، وورادن ما بين طلوع الشمس إلى الزوال، ووردان ما بين الزوال إلى وقت العصر، ووردان ما بين العصر إلى المغرب.

وأمـا أوراد الليل الأربعـة فهي : وردان بين المغـرب إلى وقـت نـوم النـاس، ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر.

فأما الـورد الأول ما بين طلوع الصبح إلى طلوع قـرص الشمس، فهو ما كان أوفق بحـاله وأخف على لسانه، وأقل ما ينبغي أن يكرر بعد أدعيتـه الخاصة أن يكرر ورده ثلاثا أو سبعا أو مائة أو أقل أو أكثر بقدر فراغـه وسعة وقته كثر ديده : لا إلاه إلا الله وحده لا شريك لـه، له الملك وله الحمد يحيي

ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. أو لا إله إلا الله الملك الحق المبين. . . وهكذا، أو قراءة آيات مثل سورة الفاتحة أو آية الكرسي أو لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها . . . وهكذا.

والورد الثاني ما بين طلوع الشمس إلى صحوة النهار ـ أي بعد مضي ثلاث ساعات من النهار ـ وفيه وظيفتان، الأولى بعد صلاة الضحى، والثانية من منتصف النهار إلى قبيل الظهر. والورد الرابع ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر، وراتبه أقصر أوقات النهار. والورد الخامس ما بعد ذلك إلى العصر، ويستحب أن يكون فيه الاعتكاف في المسجد مشتغلا بالذكر والصلاة، وإن كان في بيته فهو أسلم لاقتداء أهل بيته.

الورد السادس وقت دخول العصر إلى اصفرار الشمس. والورد السابع من اصفرار الشمس إلى أن تقرب من الأرض وقت غروبها، وفي هذا الوقت يستحب الاستغفار، كأن تقول «أستغفر الله إنه كان غفارا» أو «رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين»، كما يستحب قراءة سور الشمس والضحى والليل والمعوذتين؛ وبغروب الشمس انتهت أوراد النهار التي أشرنا إلى اتخاذها حسب الطاقة والاستطاعة من غير أن يغفل طريقة معاشه اليومية التي يجب أن تكون من الحلال الطيب.

وأما أوراد الليل، فأولها إذا غربت الشمس إلى غيبوبة الشفق ــ أعني الحمرة ودخول العتمة. والورد الثاني بدخول وقت العشاء إلى حد نوم الناس ـ وهو وقت استحكام الظلام، ووقت النوم ينام أيضا على ورده وأذكاره مع الطهارة. والورد الثالث يدخل بمضي النصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه، فعندها يقوم للتهجد. والورد الرابع من السدس الأخير إلى وقت السحر.

والأوراد تختلف باختلاف الأحوال عند المريد، فهو إما عابد أو عالم أو متعلم أو محترف أو موحد مستغرق في حب الله.

فالعابد قد تجرد للعبادة لا شغل له غيرها، فترتيبه لأوراده كما ذكرنا لا بأس بذلك، فقد تختلف وظائفه بين القلة والكثرة وبين النوافل والتسبيح، فكان من ورده ثلاثون ألفا أوصلاته ثلاثمائة ركعة بين الليل والنهار، وكان بعضهم ورده القرءان فيختمه بين الليل والنهار، وللمريد أن يختار ما هو أشد تأثيرا على قلبه فيواظبه. فإذا أحس بملل روّح بالآخر، والأنسب أن يوزع الخيرات على أوقاته.

وأما العالم من ينفع الناس بعلمه، فترتيبه للأوراد يخالف العابد لا محالة، فهو يحتاج إلى مطالعة كتب وإلى تصنيف وإفادة، وعمله هذا يدخل أيضا في باب العبادة، إذا كان هذا العلم يعين على سلوك طريق الآخرة، وله الاختيار في تقسيم أوقاته حسب ما ذكرنا وما يراه ملائما.

وأما المتعلم فالأفضل له الاشتغال بالعلم أفضل من اشتغاله بالأذكار والنوافل، فحكمه حكم العالم في ترتيب الأوراد.

وأما المحترف الذي يتوقف على كسب عياله، فلا يمكن أن يستغرق في أوقات العبادة، بل يكون حضور قلبه كمواظبته على الذكر والتسبيح وقراءة القرءان إن لم يكن ذلك يسبب له عجزا، وفي وقت فراغه يمكنه ترتيب أوراده حسب استطاعته وما يراه ملائما بالإضافة إلى تصدقه.

وأما إن كان واليا كإمام أو قاض إلى غير ذلك، ينظر في شؤون المسلمين وفق الشرع، فذلك أفضل من الأوراد المذكورة، فحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهارا ويقتصر على المكتوبة ويقيم أوراده بالليل.

وأما الموحد المستغرق قلبه في حب الله الذي أصبح همه، لا يحب غيره ولا يخاف إلا منه ولا ينظر إلى شيء إلا يراه فيه، فالذي ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنويع الأولاد واختلافها، بل كان ورده واحد، وهو حضور القلب معه سبحانه في كل حال، لا يقرع سمعه قارع، بل فر إلى الله بكليته وقال «إني ذاهب إلى ربي سيهدين» وتلك هي درجة الصديقين، ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب أوراد ومواظبة وصبر طويل.

فما ذكرناه كله طرق إلى الله تعالى، وصدق وهو أصدق القائلين «قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا».

المعـــاش

الناس في الدنيا ثلاث : رجل شغله معاده عن معاشه، فهو من الفائزين، ورجل شغله معاشه عن معاده، فهو من الخاسرين. ورجل شغله معاشه لمعاده، فهو من المقصدين.

قال تعالى «فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» وقال تعالى «وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكـرون». وقال صلى الله عليـه وسلـم «أحل ما أكل العبد كسب يـد الصانع إذا نصح»، وروي عن عيسى عليه السلام . أنه رأى رجلا، فقال : ما تصنع ؟ قال : أتَعبَّدُ. قال : من يعولك ؟ قال : أخي . قال : أخـوك أعبد منك، وقال صلى اللـه عليه وسلـم «لأن يأخذ أحـدكم حبله فيحطب على ظهره خير من يـأتي رجلا أعطاه اللـه من فضله فيسألـه أعطاه أو منعـه». وقال لقمان لابنـه : يابني، استعن بالكسب الحلال عن الفقـر، فإنه ما افتقـر أحد قط إلا أصابـه ثلاث خصال : رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهـاب مروءته، وأعظم من هذه الثـلاث استخفاف الناس به. وقـال عمر رضي الله عنـه : لا يقعد أحـدكم عن طلب الرزق، ويقـول اللهم ارزقني، فقد علمتـم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. وقيل لأحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ؟ فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم، أما سمع قـول النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي».

والمؤمن الحق عليه أن يحترس بـوائق الربـا والاحتكار، فالـربا حرام والاحتكـار ظلم وإثم، فعن بعض السلف أنه كان قد جهز سفينة حنطـة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد. فوافق سعة في السعر فقال له التجار : لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه، فأخره جمعة فربح فيـه أضعافه، وكتب إلى صاحبه بذلك. فكتب إليه صاحب الطعـام : ياهذا، إنا كنا قنعنا بـربح يسير مع سلامة ديننا، وإنك قد خـالفت، وما نحب أن نربح أضعافـه بذهاب شيء من الدين، فقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله وتصدق به على فقراء البصرة، وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافا لا علي ولا لي.

وبقـدر ما يحترس من الـربـا والاحتكار يحترس أيضـا من الغش والكـذب والاحتيال في المكيـال والميزان إلى غير ذلك من البـوائق، والإحسان في التجارة والصنـاعة والمعاملة يجري مجرى الـربح، فلا ينبغي للمتـدين أن يقتصر في عمله على العـدل واجتناب الظلم ويـدع أبواب الإحسـان. قال تعـالى

«وأحسن كما أحسن الله إليك» وقال تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين» . ومما يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان، ضرب قيمة كل حلة منها أربعمائة، وضرب كل حلة قيمتها مائتان، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة، فعرض عليه من حلل المائتين، فاستحسنها ورضيها، فاشتراها ومضى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس فعرف حلته، فقال للأعرابي، بكم اشتريتها ؟ فقال : بأربعمائة . فقال : لا تساوي أكثر من مائتين، فارجع حتى تردها فقال : هذه تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها، فقال له يونس : انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها، ثم رده إلى الدكان وردعليه مائتي درهم، وخاصم ابن أخيه في ذلك .

وعن سري السقطي أنه اشترى بضع كيل من اللوز بستين دينار، وكتب عليه ثلاثة دنانير ربحه، فصار اللوز بتسعين، فأتاه دلال وطلب اللوز، فقال خذه. قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين . فقال الدلال . وكان من الصالحين ـ فقد صار اللوز بتسعين . فقال السقطي، قد عقدت عقدا لا أحله، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين . فقال الدلال : وأنا عقدت بيني وبين الله أن لا أغش مسلما، لست آخذة منك إلا بتسعين . قال : فلا الدلال اشتراه ولا السقطي باعه . فهذا محض إحسان بين الطرفين .

الزهـــــد

الزهـد من مقـامات السـالكين ، وهو انصراف الرغبـة عن الشيء إلى مـا هو خير منـه ، و بعبارة أصح ، هو بيع الدنيا بالأخرة ، وحب الله ، والانصراف عما سواه ، فالتوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحاة ، قيل يوما لابن مبارك : يازاهد ، فقال ، الزاهد هو عمر بن عيد العزيز الذي جاءتـه الدنيا راغمة فتركهـا ! ، وأما أنا ، ففيما زهدت؟ . قـال تعالى «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» وأكد للصالحين الزاهدين ربحهم في قوله عز وجل «فاستبشروا ببيعكم الذي با يعتم به» وهي الدار الآخرة التي هي خير وأبقى ، وقـد يعلم هذا من لايقدر على ترك الدنيا إما لضعف يقينه أو استيلاء الشهوة عليه التي أوقعتـه في حبل الشيطان فتصرف تحت قهره وغره ، حتى إذا اختطفتـه المنية لا يبقى في جعبتـه إلا الحسرة والفوت ، قـال تعـالى «إنا جعلنـا ما على الأرض زينـة لها [illegible]م أيهم أحسن عملا» قيل ، معناه أيهم أزهد فيها ، ووصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال ، وقال تعالى «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب» ، وقيل أن من زهـد في الدنيـا أربعين يومـا أجرى الله ينـابيع الحكمة في قلبـه وانطلق بها لسانه ، وعن بعض الصحابة قال : قلنا يارسول الله ، أي الناس خير ؟ قال «كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان» قلنـا يا رسول الله ، وما محموم القلب ؟ قـال «التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد» ، وعن عائشـة رضي الله عنها قالت : أذكر الحال التي فارق رسـول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها ، والله ما شبع مـن خبز ولحم مرتين في اليوم ، وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمـر الآخرة أبلغ من زهد الدنيا ، وقيل عن عمر رضي الله عنه : الزهد في الدنيا راحة القلب والجسد ، وقال رجل لسفيان : أشتهي أن أرى عالما زاهدا ، فقال : ويحك ، تلك ضالة لا تـوجد ، وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجـوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فقـال له بنوه ، قـد قبل الفقهاء وأنت ترد على حـالتك هذه ؟ فبكى الفضيل وقال : أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها ، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني ، موتوا يا أهلي جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا ! وقيل أن المسيح عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد أينما أدركه المساء نام .

وقال إبراهيم بن أدهم : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب ، والعجب يحبط العمل . وقال الثوري : الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء .

والزهد يتفاوت بحسب تفاوت قوته إلى ثلاث درجات :

الأولى وهي السفلى ، أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ، ولكنه مع ذلك يجاهدها ، وربما جذبته شهوته فعاد للدنيا ، واستراح لها قليلا أو أكثر.

الثانية ، وهي أعلى من الأولى ، أن يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها ، وهذا الصنف يرى لا محالة زهده ويلفت إليه ، فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ، فيظن أنه ترك شيئا له قدر مقابل شيء هو أعظم منه قدرا ، وفي هذا شيء من النقصان .

والثالثة ، وهي العليا ، أن يزهد طوعا ، ويزهد في زهده حتى لا يرى زهده ، فلا يرى في ذلك معارضة ، وهذا هو الكمال في الزهد بسبب كمال المعرفة .

والدنيا عند أهل المعرفة وأرباب المشاهدة والمكاشفة ، مثل تركها كمثل من منعه عند باب الملك كلب ، فألقى إليه لقمة فشغله بها ودخل الباب ، فنال القرب عند الملك ، فالشيطان كلب يقف بين العبد وبين باب الله فيمنعه من الدخول علما بأن الباب مفتوح على مصراعيه ، والدنيا كلقمة خبز لها لذة مضغ تنتهي حينا إلى نتن وإفراغ .

إن حظوظ النفس في الدنيا كثيرة ، ورغباتها لا حصر لها ، وقد أجمل الله ذلك في سبعة تتجلى في قوله تعالى «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا» ولخص ذلك في خمسة عند قوله تعالى «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد» ، ثم لخص ذلك في اثنين عند قوله تعالى : «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو» ، ثم لخص ذلك في واحدة عند قوله تعالى «ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى» ، فالهوى جمع حظوظ النفس وطمعها في الدنيا . وإذا كان الزهد هو ترك ما سوى الله عز وجل فإن ذلك ينبغي فيه صيانة البدن من الجوع والعطش المهلك ، ومن الحر والبرد المهلك ، بل الاقتصاد فيما هو ضروري . قالت عائشة رضي الله عنها : كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار ، قيل لها : فبم كنتم تعيشون ؟ قال : بالأسودين ــ أي التمر والماء ــ . وقال يحيى بن معاذ الرازي : الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه والاعتبار فكرته ، والقرءان حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياة شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى .

الخوف والرجاء

الخوف والرجاء جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع العقبات والمراحل ويطوي المسافات.

فالرجاء مقام ضمن مقامات السالكين، ويعني ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده لأجل حصول أكثر أسبابه، قال تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله»، فالرجاء محمود لأنه باعث بطريق الرغبة، وحاله يورث طول المجاهدة والمواظبة على الطاعات كيفما تقلب في الحال، وقد يتلذذ السالك به، لأنه يقبل على الله بمناجاته والتلطف بين يديه.

والرجاء أعلى من الخوف، مثل ذلك كمثل من يخدم ملكا خوفا منه والآخر يخدمه رجاء لثوابه، قال صلى الله عليه وسلم «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»، ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل في النزع فقال: «كيف تجدك؟ فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي. فقال صلى الله عليه وسلم «مااجتمعتا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما خاف».

وأسباب الرجاء اثنان، اعتباري واستقرائي.

فالاعتباري هو التأمل في أوصاف النعم، حتى إذا ما علم العبد لطائف نعم الله لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي رعاها في فطرة الإنسان، ونظر في حكمة الشريعة وسننها في مصالح الدنيا والعباد ووجوه رحمتها إلى غير ذلك، فإن كل ذلك مدعاة لتقوية أسباب الرجاء.

وأما الاستقرائي، فهو استقراء آيات وأخبار وآثار واردة في الرجاء لا حصر لها، فمثلا قوله عز وجل «قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم»، وقال عز وجل «وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم»، وروي في تفسير قوله تعالى «يوم لا يخزي الله النبيء والذين آمنوا معه» أن الله تعالى أوحى إلى نبيه السلام: أني أجعل حساب أمتك إليك، قال «يارب، أنت أرحم بهم مني» فقال: «إذن لا نخزيك فيهم». وقال صلى الله عليه وسلم: «ياابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك»، ومن الآثار قول علي كرم الله وجهه: من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة، وفي حديث ربعي بن حراس عن أخيه ـ وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت ـ

قال، لما مات أخي ألقينا ثوبه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال، إني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح وريحان وربي غير غضبان، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت، فحملناه ودفناه. وروي أن لصا كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين عاما، فمر عيسى عليه الصلاة والسلام وخلفه عابد من بني إسرائيل من الحواريين، فقال اللص في نفسه، هذا نبي الله يمر والي جنبه حواريه، لو نزلت فكنت معهما ثالثا، قال فنزل وهو يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري ويقول في نفسه، مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد. قال: وأحس الحواري به فقال في نفسه، هذا يمشي إلى جانبي، فضم نفسه ومشى إلي عيسى عليه الصلاة والسلام، فمشى بجنبه، فبقي اللص خلفه، فأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام: قل لهما ليستأنفا العمل، فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما، فأما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما أزدرى على نفسه، فأخبرهما بذلك، وضم اللص إليه في سياحته مع الحواريين. وروي في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة، قال: فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه، فيقول: يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته علي في عليين، فيقول الله سبحانه: إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى، وأنت كنت تسألني النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سُؤله... فهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل، لأن المحبة أغلب على الرجاء منها على الخائف. وأما الخوف فهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وعنه قال الواسطي: الخوف حجاب بين الله وبين العبد. وحال الخوف ينتظم من علم وحال وعمل. فالعلم هو إدراك السبب المفضي إلى المكروه، مثل من جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف عقوبته لكن يجوز العفو عنه والافلات منه، فيتألم قلبه بالخوف نتيجة علمه بالأسباب المفضية إلى عقوبته حسب ضعفها أو قوتها. أما إذا اكتمل إلى حال معرفته كما قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» فإن ذلك يورث جلال الخوف واحتراق القلب، فيفيض أثر حرقة القلب على كل الجوارح، فينحل الجسم ويكثر البكاء. فيكون عمله الكف عن المعاصي مع تقييد النفس كي يستعد للمستقبل.

والخوف في حد ذاته سوط الله يسوق به عباده، وهو محمود، وكلما كان أكثر كان أحمد به ينال قربه من الله، فإذا كان للخوف قصور أو إفراط أو اعتدال، فالمحمود فيه الاعتدال، وأما القاصر ما فاضت عينه بكاء بسبب ترتيل آية أو سماعها أو مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك عاد القلب إلى غفلته، فمثل هذا ضعيف النفع، وأما خوف العارفين فهو كف الجوارح عن المعاصي وتقييدها بالطاعات، وفيه قال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت، فإن قلت لا، كفرت، وإن قلت نعم كذبت. وأما الإفراط في الخوف فهو مجاوزة الاعتدال والخروج إلى اليأس وهذا مذموم، لأنه يمنع عن العمل، وربما يدفع إلى المرض والضعف والدهشة، وربما إلى زوال العقل. فالمراد من الخوف ما حمل إلى العمل على أسباب التوبة والإقلاع عن المعاصي، وحمل إلى الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله عز وجل.

الصبـــر والشكـــر

الإيمان نصفـان، نصف صبر ونصف شكـر، وهما من أسماء الله الحسنى، إذ وصـف سبحانـه نفسه بالصبور والشكور، فجعلهما جهل بشطري الإيمان، وما أحوجنا إلى الاتصاف بهما.

فالصبر فضيلة عظمى، وقد وصف سبحانه الصابرين بأوصاف كثيرة وردت في القرآن من ذلك قوله تعالى: «ولنجـزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعلمون» وقـال: «أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا» وقال أيضـا: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»، وقـال صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان»، وقـال علي كـرم اللـه وجهـه: بني الإيمان على أربع دعـائم، اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال أيضا: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له، وكـان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ قـول الله تعالى «إنـا وجدناه صـابرا، نعم العبد، إنـه أواب» بكى وقال: واعجبـاه أعطى وأثنى ـ أي هـو المعطي للصبر وهو المثني. وقـال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر.

والصبر منزلة من منازل السالكين، وعبارة عن باعث الدين في مقاومة باعث الهوى، وهو ينقسم بحسب اليسر والعسر، فما يشق على النفس لا يمكن الـدوام عليـه إلا بجهـد جهيد وتعب شـديـد، فيسمى ذلك تصبرا. ومـا يكـون عن غير شـدة فيحصل بأدنـى تحامل على النفس يسمى صبرا، فإن دامت التقوى وقـوي التصديق بما في العـاقبة من حسنى تيسر الصبر مصـداقا لقـوله تعالى «فـأما من أعطى واتقى وصـــدق بـالحسنى فسنيسره لليسرى»، قـال بعض العـــارفين، أهل الصبر على ثـلاث مقامـات، أولها ترك الشهوة وهـذه درجة التائبين. وثـانيها الـرضا بالمقـدور، وهذه درجة الـزاهدين، وثالثها المحبـة لما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصديقين. وقـال بعضهـم: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليهـا إلا التصديق. وقال سهـل: الصبر على العافية أشـد من الصبر على البلاء. ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر، وقد حذر الله من فتنة المال والزوج والولد فقال «ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله»، وقال عز وجل «إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم».

فما أحوج العبـد إلى الصبر عن المعاصي، وقـد جمعها الله في قـوله «وينهى عن الفحشـاء والمنكر والبغي» وقال صلى الله عليه وسلم «المهاجر من هجر السـوء، والمجاهد من جامد هواه» فأشد أنواع

الصبر هو الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة للعبد بالعادة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان، فيكون الصبر أثقل على النفس، كالصبر على معاصي اللسان من غيبة وكذب ومراء وثناء على النفس وازدراء واستحقار وقدح، فتكون للنفس شهوتان، إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه، وبهما يثبت ربوبية التي هي في طبعه، وذلك ضد ما أمر به من العبودية، فيكون الصبر عليه أعسر. والصبر على بلاء الله تعالى أشد، فلا يقدر عليه إلا الأنبياء، وقيل أن الشبلي حبس في المارستان فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟ قالوا: أحِبَّاؤك جاءوك زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة، فأخذوا يهربون، فقال: لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي. وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة يطالعها، وقد كتب عليها قول الله عز وجل «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا». ويقال أن امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. والصبر يمكن الدربة عليه وتقويته في النفس المصابة عن طريق الصوم مع الزهد في الطعام، وقطع الأسباب المهيجة عن طريق النظر، لأن النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة. وطبعها هذا يحصل بالعزلة والاحتراز من وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية، وأخيرا تسلية النفس بالذكر والاطمئنان إلى ذلك، قال تعالى: «اصبروا وصابروا ورابطوا» فالصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء.

وأما الشكر فقد قرنه الله تعالى بالذكر حيث قال «فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» وأثبته بالمزيد حيث قال سبحانه «لئن شكرتم لأزيدنكم» وقال صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصابر»، وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان.

والشكر مقامات السالكين، وهو علم وحال وعمل. فالعلم يورث الحال، والحال يورث العمل.

فأما العلم فهو المعرفة للنعمة من المنعم، والحال هو الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه.

إن من فهم حكمة الله في موجوداته فقد يقدر على القيام بمهمة الشكر ويعلم صدق قوله تعالى «وقليل من عبادي الشكور»، وفرح إبليس لعنه الله في قوله «ولا تجد أكثرهم شاكرين».

وإن أشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه، ومنهم الملائكة أولا، وقد رتبوا، وما منهم إلا وله مقام معلوم، وأعلاهم رتبة ملكه إسرافيل عليه السلام، وقد أصلح الله بهم الرسل والأنبياء، وهم أشرف الخلق على وجه الأرض، هدى الله بهم سائر الخلق، وأعلاهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي ختم به الأنبياء، ثم بعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فهم في أنفسهم صالحون، وقد أصلح الله بهم خلقه، فدرجة كل واحد بدرجة الإصلاح، ثم يليهم الحكام الذين وفقوا إلى العدل، ثم بعدهم الصالحون الذين أصلحوا دينهم وصلحت أنفسهم.

وإن أفضل علاج للقلوب الغافلة عن الشكر أن تبصر في أمرها، فإن كانت بصيرة فالأفضل لها التأمل في أصناف نعم الله، وإن كانت بليدة فسبيلها النظر إلى ما دونها، فعلى العاصي أن يتدارك،

وعلى المطيع الزيادة في الطاعة، والعادة أن النعمة إذا لم يكن الشكر عليها زالت، كان الفضيل بن عياض يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف : النعمة وحشية فقيّدها بالشكر، قال تعالى : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

إن الصبر والشكر سيان، فهما عنوان الطاعة، ولكل منهما مقام، قيل عن شيخ طاعن في السن سألوه عن حاله فقال : كنت في بداية عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك، فاتفق أن تزوجتها، وفي ليلة زفافنا قلت لها : علينا أن نحيي الليلة شكرا لله أن جمعنا، فصلينا تلك الليلة ولم يفرغ أحدنا، فلما كانت الليلة الثانية فعلنا مثل ذلك، وها نحن الآن في السبعين أو الثمانين ونحن على تلك الحالة كل ليلة. إن صبر الفرقة لهذين الزوجين نوع من الشكر فقد يقرنان في جل الأحوال، وإن كان الصبر أسبق في أحواله.

ولنا في قصة أيوب عليه السلام أقوى برهان على اقتران الصبر بالشكر، إذا ابتلاه بالفقر بعد الغنى وبالمرض بعد الصحة، ومع هذا كان صابرا شاكرا.

يروي علماء التاريخ والتفسير أن نبي الله أيوب عليه السلام كان كثير المال والأنعام والأراضي، وكان له أولاد وأهل كثير، فسلب من ذلك كله، وابتلي في جسده بأنواع الأمراض، حتى قيل أنه لم يسلم إلا قلبه ولسانه، وفي كل ذلك كان صابرا شاكرا رغم طول مرضه وانقطاع الناس عنه إلا زوجته الصالحة واختلف العلماء في بلواه، قيل ثلاث سنوات، وقيل أكثر، وكانت زوجته تخاطبه قائلة : لو دعوت ربك لفرج عنك، فيقول عشت سبعين سنة صحيحا فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة، وكان عليه السلام يقول في دعائه «اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت»، والقرءان يصرح لنا بذلك في قوله تعالى : «وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين».

ورغم أن الشيطان كان يوسوس له وقت مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط والجزع، فقد كان يلجأ إلى ربه وسلاحه الشكر والصبر الحميل، إلى أن أمره الله أن يضرب برجله ليتفح له عينا باردة من الماء فيشرب منها ويغتسل، فأذهب الله عنه الضر ظاهره وباطنه، وذلك ما جاء في قوله عز وجل «واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب، وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث، إنا وجدناه صابرا، نعم العبد، إنه أواب»

إنه سبحانه وتعالى أعطى لأيوب ما فقده من رزق وولد أضعافا مضاعفة، وإن أيوب بحق كان قدوة الصابرين الشاكرين.

إشـــراق القلـــب

إن النفس إذا ماتت عن الشهوات، أشرق القلب بـالأنوار، وجلب لها الخوف والخشية والحياء، فالنفس كلما تأدبت نـال القلب ولايته وسلطانـه، لأن النفس مركب القلب، وللقلب عساكر، وهو مخلوق لعمل الآخرة راجيـا سعادته، وسعادته معرفـة ربه، ومعرفة ربه تحصل من ولايتـه لأنه من جملة عالمه، ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا عن طريق حواسه، وحواسه من الجسم المركب، والجسم المركب لا يقـوم إلا على الطعـام والشراب والحرارة والـرطوبـة، وهـو على خطـر من الجوع والعطش في الباطن، وعلى خطـر من الماء والنار في الظـاهر، زيادة على مقـابلة أعـداء كثيرة. فإذن عسكر القلب الظاهـر يتجلى في الشهوة والغضب ومقـامهم في اليدين والـرجلين والأذنين والعينين وجميع الأعضاء، وأما عساكـره الباطنة فمقامها الدمـاغ الذي هو قوى الخيال والتفكير والحفظ والتـذكر والوهم. فكل هذه الجنود تحت إمرة القلب، منهـا يحصد الزاد للآخرة، فإن رادها على فعل الخير كـانت طريقا نحو السعادة والإشراق.

والقلب مع جنـده أحـوال، وأحـوالـه أربعة، إمـا أن يتصف بأخـلاق الشيـاطين، أو أخـلاق البهائم، أو أخلاق السيباع، أو أخلاق الملائكة.

فالمكر والحيلة والخداع والغش من خلق الشيـاطين، والشرب والنوم والنكاح من خلق البهائم، والضرب والقتل والخصام من خلق السباع، والرحمة والخير والعلم من خلق الملائكة.

والقلب هدف يصـاب على الدوام بتأثر وتغير، فـإذا نزل به الشيطـان دعاه للهوى، وإن نـزل به الملك صرفه عنه، وبذلك يشير قوله عز وجل «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم» وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالـوا: أو تخاف يا رسول الله؟ قال: «ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»، وقدمثله صلى الله عليه وسلم بقوله «مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الريـاح ظهرا وباطنا». والحق أن تقلبات القلب حيرت العارفين إلا أصحاب المراقبة الذين يراعون أحوالهم مع الله عز وجل.

والقلوب ثلاثة: قلب مليء بالتقـوى تصب فيه قداح الخير من ينابيع الغيب والملكوت، فيطلع على الأسرار، وتنكشف للعقل بنور البصيرة، فينظر الملك إلى القلب حيث يجده طيبا في جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمرا بأنوار المعرفة ممدا بجنود لا ترى ترشده إلى الخيرات، فتتيسر الأحوال

كما جاء في قوله تعالى «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى» وهكذا يشرق فيه النور الإلهي حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة، فلم يبق للشيطان كيد ولا قيد.

ثم هناك قلب مخذول مشحون بالهوى مدنس بأخلاق الخبث والمذمة، مفتوح للشيطان مغلق عن الملائكة، لف بالهوى نور العقل حتى أنس بذلك، حينذاك تساعد النفس عليه فتغمره الظلمات فيقوى سلطان الشيطان حيث يوحي بزخرف القول والغرور، فيصير العقل كالعين التي ملئت دخانا لا تقوى على النظر، فتعمى البصيرة، ويصم السمع وتهيج الشهوة، وتتحرك الجوارح على المعصية، فيحق عليه قول الله عز وجل «لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون».

وأخيرا، هناك قلب تبدو فيه خواطر الهوى تدفعه إلى الشر، فيتصدى له خاطر الإيمان فيدفعه إلى الخير، ومع الخاطرين تتحرك النفس فتناصر هذا أو ذاك، وبينهما يداعب الشيطان العقل ويغمزه ويلمزه، فيحدث الصراع بين الملك والشيطان، ولا يزال الصراع على أشده حتى ينحاز إلى جانب الشيطان أو يدخل في حزب الله، غير أن الاستقرار من الجانبين نادر.

إن الله سبحانه وتعالى أعلم بخلقه، فمن تيسر للجنة تيسرت له أسباب الطاعات، ومن كان للنار عبدا أسيرا تيسرت له أسباب المعاصي وتسلطت عليه أقران السوء، فيؤخر توبته إلى أن يباغته الأجل فيجري عليه قول الله تعالى «يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا»، وصدق عز وجل إذ قال «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء».

العقـــل

قسم ابن سينا العقل إلى أربعة .

ـ العقل الهيـولي : وهو عقل الإنسان في طوره الأول ، لم يقبل أي إدراك ، لكنـه يستطيع الحصول على الإدراكات ، فهو بمثابة الهيولي في انتظار الصور.

ـ العقل بالملكة : وهو العقل الهيولاني ، الذي قبل المعقولات الأولى من العقل الفعال ، والتي يقع التصديق بها لكل واحـد ، مثل اعتقادنـا أن الكل أكبر من الجزء . . وهكذا . وهـذه المعقولات الأولى هي البديهيات التـي نعتمد عليها في التفكير والتحصيل . ومن خصائص العقل بـالمكلة الاعتقاد بأن الأشياء هي كما هي :

ـ العقل بـالفعل ، هو العقل بـالملكة الـذي فاضت عليـه المعقولات الثواني مـن العقل الفعال ، والمعقولات الثواني هي مـاهيات الأشياء كفكرة الجماد والنبات والحيوان والعـدالة والانصاف . . . إلى غير ذلك ، فهي الأنواع التي لا تقابلها الأشياء المحسوسة الجزئية المعنية ، بل هي متحققة في الجزئي ، مثل فكـرة النبـات متحققـة في الشجرة بـالـذات ، وفكـرة الحيـوان كـالحصان متحققـة في الحصـان بالذات . . .

ـ العقل المستفاد : هو الذي تكون الصورة المعقولة حاضرة فيه يعقلها .

إن هذه المراتب الأربع ليست متشابهة في كل العقول ، فقد يـوجد استعداد شديد لبعض العقول في المرحلة الهيولانية يجعلها تتقبل من العقل الفعـال مباشرة دون أن تمر من المراتب الأخرى ، ومثل هذه العقول عند ابن سينا هي عقول رفيعة قدسية من ضرب النبوة .

والعقل منبع العلم وأسـاسـه ، والعلم يجري فيـه مجرى الثمـرة من الشجـرة ، ومجرى النـور من الشمس ، والله تبارك وتعالى أسمى العقل بالنور في قـوله تعالى «الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة» ، وقال صلى الله عليه وسلم «ما خلق الله عز وجل خلقا اكرم عليه من العقل» .

والناس اختلفوا في تفـاوت العقل باختلاف تفـاوت الأحوال ، فقد يكون تـارة في تفاوت الشهوة كالشاب الذي يعجز عن ترك الزنا ، فإذا كبر وتم عقله قدر على ترك ذلك ، والرئاسة مثلا تزداد قوة في الكبير نظرا لتفاوت العلم المعرف لتلك الغائلة من الشهوة للرئاسة ، وقد يقدر الطبيب على ترك بعض

الأطعمة المضرة، ولا يقـدر عليها من يساويه في العقل إذ أنـه ليس طبيبا، وقد يكون العـالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقـوة علم العالم بضرر المعاصي. فكل مثل هذه الحالات تزيد من قـوة غريزة العقل وتلعب دورها في تفـاوته. والناس أيضا يتفـاوتون عقلا من خلال التجـارب عن طريق الإدراك والممارسة، فغـريزتـه عند النمـو تزداد بـالازدياد التـدريجي للنمو الي أن يتكامل الجسـم قرب الأربعين سنة، مثل ذلك مثل نور الصبح يزداد وضـوحا بعدما يشق إدراك الرؤيا فيـه، فيتم إدراك الرؤيا جيدا باكتمال قرص الشمس. ومثل هذا يجري أيضا على تفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر.

النفـــس

عرف ابن سينـا النفس بأنها جوهـر قائم بـذاته وصـورة في آن واحد من حيث صلتهـا بالجسم، جوهر روحـاني وهو أصل القوى المدركة والمحـركة والمحافظة للمـزاج الذي يتصرف في أجزاء الجسم، فهي غير محتاجـة إلى الجسم بقدر ما هـو محتاج إليها، وهي مصدر حيـاته، وقد تعيش بمعـزل عنه، بدليل أنها متى انفصلت عنه تغير وأصبح شبحا بينهما هي تصعد إلى العالم العلوي لتحيا حياة البهجة والسرور، فإذن هي جوهر قائم بذاته.

واتصالها بالجسم اتصال عرضي كما قال أفلاطون، وباتحادها مع الجسم تقوم بوظيفتين، بسياسة الجسم من جهة، وبإدراك المعلومات من جهة أخرى.

بالنسبة لكونها تسوس البدن، فقد يوجد بينها وبين القوة الحيوانية النزوعية شبه كالخجل والحياء والضحك والبكاء والتخيل والتوهم وما شابه ذلك، وتستعمل قوتها في استنباط الأمور، فتوجه الجسم وترشده.

أما وظيفتهـا الثانية، فهـو إدراكها للمعقولات ممـا يدل على تحررهـا عن الجسم، ومن شأن هذه القوة طبع الصور الكلية المجردة عن المادة، فإن كـانت مجردة بذاتها فذلك، وإن لم تكن فإنها تصيرها مجردة بتجريدها إياها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء.

وقد قسم ابن سينا الأنفس إلى ثلاثة :

ـ إما أن تكون النفس كاملة في العلم والعمل ـ والمقصود بالعلم إدراك الفلسفة الفيضية.

ـ إما أن تكون النفس ناقصة في العلم والعمل.

ـ إما أن تكـون النفس كاملة في أحدهما ـ أي عـالمة بالحقيقة غير عاملة بمقتضاهـا، أو ميالة إلى الخير دون أن تدرك الفلسفـة الفيضية ـ. وقد ورد في القـرآن الكريم «وكنتم أزواجا ثلاثـة، فأصحاب الميمنة مـا أصحاب الميمنة، وأصحـاب المشأمة ما أصحاب المشأمـة، والسابقون السـابقون، أولئك المقربون».

ويوضح ابن سينا تقسيم الآية هكذا :

ـ أما الكاملون في العلم والعمل فهم السابقون، ولهم الدرجة القسوى في جنات النعيم.

ـــ أما الكـاملـون في العمل، النـاقصون في العلـم، فهم في المرتبة الـوسطى بين السـابقين وأهل المشأمة، فهم يتصلـون بنفوس الأفلاك ويتطهرون مـن دنس عالم العناصر، ويشاهـدون النعيم الذي خلقه اللـه. فهؤلاء هم أصحاب الميمنـة. سيلحقون بـالسابقين بعد مـدة. وقد قال صلى اللـه عليه وسلـم «أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر».

ـ أمـا أصحاب الشمال، فهم النـاقصون في العلم والعمل، أو الكـاملون في العلم النـاقصون في العمل، وهم في المرتبـة السفلى، المنغمسـون في بحـور الظلمات الطبيعيـة. والنفس تعـرج من عـالم العنـاصر مجتـازة عالم الطبيعـة والنفـوس والعقـول إلى أن تبلغ عرش الـواحـد القـديم، حيث الحسن حجاب للحسن، والنور حجاب النور، ولو هم أحد أن يتأمل الأول حسر طرفه وكاد تختطف بصره، لأن شدة حسنه تحجب حسنه، ونوره يحول دون مشاهدة نوره حيث السر الأزلي، فهو فوق كل وصف وتمثيل، وهنا غاية سعادة الإنسان.

العلوم المرتبطة بالسعادة الأبدية

العلوم كثيرة، منها علم النظر وعلم الخبر وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الأرصاد وعلم الفيزياء والكيمياء وعلم الطب . . . إلى آخره.

ولكل من هذه العلوم وأمثالها فصول تقومها وتقسمها، فلننظر ما نحتاج إليه وما نراه ضروريا في دنيانا وآخرتنا. ونعني بذلك علم النظر ـ وهو علم الكلام ـ وعلم الخبر ـ وهو الشرع والمعاملات. وقد يندرج تحت هذين النوعين في تحصيل السعادة ثمانية. وهي: الواجب والجائز والمستحيل والذات والصفات والأفعال وعلم السعادة وعلم الشقاء.

فهذه الثمانية يجب طلبها لطالب النجاة. وعلم السعادة والشقاء موقوف على معرفة ثمانية أشياء، منها خمسة أحكام وهي: الواجب والمحظور والمندوب والمكروه والمباح. وأصول هذه الأحكام ثلاثة لابد منها، الكتاب والسنة المتواترة والإجماع؛ والناس في تحصيلها على مرتبتين، عالم ومقلد، فإذا علمها الطالب وصح نظره فيها وجبت عليه وظائف التكليف، فاختصت منه بثمانية أعضاء: العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب. والعلم بتكليف هذه الأعضاء هو العلم بالأعمال التي تقود نحو السعادة. إذا عمل بها، وهذه العلوم تحتمل أن تكون هي الأنوار التي قال الله سبحانه فيها «فهو على نور من ربه» وقال سبحانه فيها أيضا «نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم».

وهذه الأنوار لها ثمانية ألقاب، ولكل لقب رجال، وهم ثمانية أصناف، ولهم ثمانية مقامات، ولها ثمانية ظلم. فأصحاب هذه الشهوات في هذه الظلمات تائهون كما قال تعالى «ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون»، وأصحاب الحضور والعناية في الأنوار ينعمون، فهم على نور من ربهم، وطائفة أخرى وهم أهل الخلط تارة مع النور وتارة مع الظلمة، وهم المعترفون بالذنوب كما قال تعالى «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم»، وهذه الأنوار تسبح في ثمانية أفلاك ولها ثمان حركات وثمانية مشارق وثمانية مغارب وثمانية مواسط حيث نقطة الاستواء وتقابلها نقطة الحضيض، وألقابها الشمس والهلال والقمر والبدر والكوكب الثابت والبرق والسراج والنار، ورجالها ومقاماتها ثمانية، فالنور الشمسي لأهل المعرفة، والهلا لأهل المراقبة، والقمري لأهل الاعتبار، والبدري لأهل المسامرة، والكوكبي لأهل المراعاة، والسراجي لأهل الخلوات، والناري لأهل المجاهدات، والبرقي لأهل العلم أهل الاختصاص الجامعين للمقامات ـ وهم أهل الذات ـ

وهو لهم أرفع الأنوار وأعلاها، وهو لمح يخطر للعالم يثبت لقوته، لكن فائدته عظيمة، ففي رعده الهيبة وفي أمطاره الأسرار، وفي تجليه الخلب، فهؤلاء هم رجال هذه الأنوار وأحوالهم.

فأما المقامات الثمانية وتعني المدلول لهذه الأنوار. فمدلول البدر الدنيا الكبرى والواسعة، ومدلول الكوكب الثابت الدنيا الصغرى، ومدلول السراج الجنة الكبرى، ومدلول النار الجنة الصغرى، ومدلول القمر جهنم الكبرى، ومدلول الهلال جهنم الصغرى، ومدلول الشمس صفات المعنى، ومدلول البرق صفات النفس. وظلمات هذه الأنوار ثمانية : فنور الشمس يزيل ظلمة النفس، ونور الهلال يزيل ظلمة الشك، ونور القمر يزيل ظلمة الغفلة، ونور البدر يزيل ظلمة الخيانة، ونور الكوكب يزيل ظلمة الجهل، ونر السراج يزيل ظلمة الوسوسة، ونور النار يزيل ظلمة الرعونة، ونور البرق يزيل ظلمة التنزيه، وهذا الأخير لا يمكن وصفه لعجز الإثنين من أصحابه لوصفه والخوض فيه والتعبير عنه، ومثل ذلك من ذاق العسل، فلا يعرف إحساسا للعسل، لأنه ينظر إلى ذات العسل.

التحقيــق بعـمـل الأعضـاء

إن التحقيق بعمل الأعضاء طبق الشرع لهي العلامة على سلوك الطـريق السوي ، فالبصر علامته الغض عن المحـرمـات والنظـر إلى ما وافـق الشرع ، والسمع يراعـي فيه التكليفـات مع صـدق الآيـة الكريمة عليه «الـذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» كسماع العلم ومواظبـة مجالس الذكر، والعمل بها سمع حسب الاستطاعة ، واللسـان علامته قلة الكلام إلا فيما يقدمـه من نصح وتبليغ وذكر وتلاوة قـرآن ، واليد عـلامتها أن لا تبطش أو تلـمس مـالا يحل أو تقتل أو تسرق أو تلطم ، أو تلمس الذكـر باليمين عنـد البول أو الاستنجاء . . . إلى غير ذلك ، ويكـون أكله من الحلال الخالص ، وإذا أكل لا يمتليء من الطعـام والشراب خـوفـا من كسـل الجوارح عن الطـاعـة ، والفـرج يجب حفظـه من غير الحلال ، والرجل من علاماتها تسعى إلى مصـالح العباد وتسعى السعي الحسن على العيال والخطا إلى المسجد والثبات في الزحف إن كان في سبيل اللـه . . . إلى غير ذلك ، والقلب علامته الانتباه واليقظة والفكر والهيبة ، وترك الغل والحسد والتفويض والتسليم والفرح بالقضاء والقدر والمراقبة والتنزه ، وإن الفعل الحسن هو من حسن القلب وصفاته .

وإن هذه المباديء وهـذا السلوك لا يقبل الزوال عن الشخص إلا بالموت ، وكل من عـدمها فهو مخدوع ، وأما الواصل فلن يتركها أصلا .

والواصل من حارب رعونة النفس وكدورتها ، وقد قال أبو سليمان الداراني . لو وصلوا ما رجعوا ، وإنما حرموا الـوصول لتضييعهم الأصول ، فمن لم يتخلق لم يتحقق ، وعلامـة من صح وصوله الخروج عن الطبع والأدب مع الشرع ، واتبـاعـه حيث سلك . . . . وإن الـدواء الشافي لهذا الـداء هـو العلم وشرط التوفيق ، فإن اجتمعا فلا حائل للوصول ، وكل من تحققت فيه هذه الأعمال ورسخت فيه وصح اتصافه بها ، فإن الله سبحانه وتعالى يهبه أسرار الاختصـاص ـ وتدعى بشواهد الحالات الغيبية ـ وهو السر الخفي المرموز إليه في قـوله تعالى لنبيه الكـريم في قوله صلى الله عليـه وسلم « . . . ولا يزال العبد يتقرب إلى بـالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتـه كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الـذي يبصر به . . . » الحديث ، وينزله سبحانه وتعالى المنازل العالية ، ويوقفه عليها ، ويكرمه بكرامات .

والإنسان إذا وصل لـدرجة تزكية الخواطـر والأحوال ، وطابت أقـواله وحسنت أفعاله وصـار هذا حاله إلى أن يقبضـه الله إليه ، فذلك هـو الموفق السعيد ، وله بعض الكرامـات ليس بكرامات ، وإنما

هي خرق عادة في ظواهر الكون ، فالإعراض عنها أولى مادامت غير موافقة لحدود الشرع ، فاشكر الله وادعه بأن يجعلها حظ عملك ، وأن يجعلها منبهة لك إلى الجادة وإلى طريق مستقيم ، وأما خرق العادة فهي ظواهر زائلة .

وأما الكرامات الربانية فإنها جود من الله على عبده يشهده من عجائبها ويريه من آياته ما يزيده رغبة في مقامه وقوة فيما هو بسبيله .

ومن الكرامات مشاهدة مسافة بعيدة أو من خلف حجاب أو رؤية الكعبة عند الصلاة أو مشاهدة العالم الملكوتي الروحاني كالملائكة أو الروحاني الجبروتي كالجن أو الروحاني الترابي كالأبدال والأوتاد . . . إلى غير ذلك .

الأطباق والعروق

إن الشكل اللحمي الصنوبري الذي هو المعدن الروحي لكل حيوان من إنسان وغيره لهو اللطيفة الربانية من العالم الروحاني والعالم العارف المدرك، إنه القلب أصل الثواب والعقاب، والفصل والخطاب، إليه أشار عز وجل بقوله «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها».

والمراد بالقلب عند المتصوفة هو الروح والسر، وهذا طبق أول.

أما الطبق الثاني فهو الروح، ويراد به جسم لطيف بخاري منبعه من أيسر تجويفي القلب، وهو مركب السر الإلاهي الأمري، وقد استعد لقبوله لاعتداله وقربه من العوالم السماوية، ومنه ـ أي القلب ـ ينتشر بواسطة العروق إلى سائر أجزاء الجسم فيعطيه الحياة ويفيض عليه بالأنوار، وفيه يمكن الروح الثاني الذي يقول فيه صاحب «روضة التعريف بالحب الشريف» لسان الدين بن الخطيب ما نصه :

«والثاني : الروح المتقرر العلاقة بهذا الروح الأول وحده. لطيفة ربانية عالمة مدركة من الإنسان، وإذا ركبت الروح المذكورة وسرت في البدن، كانت في العين بصرا وفي اللسان ذوقا وفي الأذن سمعا وفي الأنف شما وفي الجلد لمسا، ظاهرة عليها صفات المبدأ الإلاهي الذي هو كل شيء بصورة ذلك الشيء، وليس له صورة تقيده، ولو كانت له صورة تقيده لكان مع تلك الصورة فقط».

وهذه اللطيفة هي الأمر العجيب الذي تعجز العقول والأفهام عن إدراك حقيقته، وباب البحث مسدود عنه شرعا، قال الله عز وجل «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». ومن الناس من عد ذلك جوابا كالإمام أبي حامد الغزالي. فالروح الأول هو الروح الحيواني، والثاني هو الروح الأمري».

أما الطبق الثالث فهو العقل، وفيه يقول لسان الدين بن الخطيب في كتابه «روضة التعريف بالحب الشريف».

«العقل ينطق بالاشتراك على معان، فلا يشمل الحد الواحد جميع معانيه. أما بحسب اللسان، فعلى تعقل الأشياء، وبمعنى إدراكها وضبطها، وأصله من عقل الناقة ـ إذ كان يعقل العلوم. وقيل يعقل النفس عن الشهوات. وأما بحسب استعمال أهل الصنائع العلمية والأنظار الحكمية فيطلقونه على أنحاء، منها العقل الفعال، وهو أول موجود أوجده الله. وقال بعض الشيوخ المتأخرين : فيه

شعاع الحقيقة وحده بـ « جوهر بسيط روحاني يحيط بالأشياء كلها إحاطة روحانية» ، وهو عندهم الكلمة المرددة ، والآنية المنفصلة ، وولد النفس ، وصاحب الوجهين إذا أفاد أو استفاد . أي بنظره إلى الباري وإلى الأشياء» .

وقال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى «الله نور السماوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقظ من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار» ، قال بعضهم «المشكاة» هي النفس الكبرى التي أشرقت بنور الله سبحانه وتعالى ، و العقل الكلي المبدع هو «المصباح» و «الزجاجة» الهيولي الأولى الشفافة ، و«الكوكب الدري» هو الصورة المجردة ، و «الشجرة المباركة» نفس الكل ذات الفرع «لا شرقية ولا غربية» لا مؤلفة ولا مركبة ولا ذات حية .

يقول لسان الدين بن الخطيب في كتابه المذكور «يقال لقوى كثيرة من العقل النظري عقل ، فمن ذلك العقل الهيولاني ، وهو قوة للنفس مستعدة لقبول الأشياء مجردة عن المادة . والعقل بالملكة ، وهو استكمال هذه القوى حتى تصير قوة قريبة من العقل . ومنها العقل بالفعل ، وهو استكمال النفس بصورة ما . ومنها العقل المستفاد ، وهو ماهية مجردة عن المادة مر تسمية في النفس على سبيل الحصول من خارج . والعقل الذي يطلق على العقول الفعالة ، وهي كل ماهية مجردة عن المادة ، والذي نجلبه إلى هذا الغرض هو الوصف الذي تميز به الإنسان من البهيمية» .

وأما الطبق الرابع فهو النفس ، وفيها يقول ابن الخطيب «فقد قيل إن العقل والروح والنفس والقلب بمعنى واحد» .

ويقول فيها يندرج تحت ذلك «وما مثال النفس والعقل والقلب والروح إلا كملك مدينة سكن ـ لأول استيلائه عليها وتدبيره إياها ــ دارا فتوسطها ، كثيرة الحجب والأصونة والمسالك المفضية إلى نواحيها ، وله بأعلاها قلة سامية جامعة لمعاني الملك ، وبها الخزائن والحفاظ والكتاب ، وإليها تقصد البرد بالاخبار ، وأمره ونهيه بها قائم ، وقد عمر أمره المكانين ، وأفرد الزمانين ، وصار في الكل عين العين ، وله بأعلى رتبتها وأشرف مستشرفاتها وأصونتها مرآة يبصر بها وجهه ، ويدرك ماخفي عنه ، فوجوده في القلب يسمى روحا ، وفي الدماغ يسمى نفسا ، وفي المرآة المائلة بألطف أبهائه عقلا ، ومجموع هذه المعاني المتعددة من قلب وروح ونفس وعقل هو «الملك» ــ وهو السر الذي ينزل بأمر الله سبحانه . . .

فإذا أفاد الحياة ونفذت في أقطار المدينة طاعته ، وجرت أفعاله فيها تامة من غير عائق ، سمي «روحا» . وإذا أدت إليه الطلائع والبرد فنقشها وتأملها واستحفظ الحفظة والخزائن بعضها ، وكلف الآخرين تعاهدها ، وحرك الحراسة والجيوش من أجلها سمي «نفسا» . فإذا انفرد بها مجردة وحلل في معانيها وركب واتحد بها في مرآة نصحه وميزان عدله ، سمي «عقلا» . . .

ويقول أيضا في فقرة أخرى من كتابه روضة التعريف :

«النفس لفظ مشترك يقال على أشياء، كما تقال العين على الذهب والماء والجارحة، وهي في اللسان حقيقة الشيء وعين ذاته . . تقول جاءني زيد نفسه .

وفي استعمال أهل التصوف الخلقي : الأصل الجامع للصفات الذميمة من الإنسان، ولذلك قالوا : مجاهدة النفس، وفي الحديث «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» . وفي استعمال القدماء والمتأخرين من الحكماء : جوهر نوراني حي إلهي لا تبيد قواها ولا تنقطع، وهي كلية وجزئية على خلاف بينهم فيه»

ويقول لسان الدين في الفصل الثاني من كتابه :

«وللنفس رتب متعددة، منها ما فتح لها الباب في اكتسابه، ومنها ما وقع المنع من طور جنباته .

فالنفس قبل أن تكسب العلوم الضرورية والقضايا الوجدانية، تسمى نفسا بسيطة سادجة .

وعقلا غريزيا إذا حصل لها كمال التمييز وتمام الحواس، واستقامت فكرتها ورويتها، وحققت المعاني الكلية، وعقلا بالملكة إذا حصل لها التصرف في الموجودات على اختلافها علما وربطت الأسباب بمسبباتها، وفصلت القبيح من ضده، ونظمت القياس البرهاني، واقتنصت النتائج من الحدود الوسطى، وخلصت من البرهان .

وعقلا مكتسبا إذا تعشقت بالحكمة وكلفت بالكمال وقهرت بالطباع، وحصلت على استيفاء معنى الإنسانية .

وعقلا بالفعل إذا حصلت لها المعلومات الإلاهية الكلية وتوحدت بها ولم يتميز علمها من معلوماتها، وتصورت الأمور الروحانية والجواهر المفارقة وأحاطت بذلك كله» .

ولننتقل إلى العروق وشعبها الباطنة الكامنة، وقد تشتمل على عدة قوى منها الحواس الخمس، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس وقوة الخيال وقوة الفكر وقوة الحفظ وقوة الصنع وقوة الوهم وقوة النزوع . وفي هذا يقول لسان الدين في كتاب الروض :

«أما حاسة اللمس : فقوة تدرك من الملموسات سطوحها من خشانة وملامسة، وكيفيتها من حر أو برد، ومثل ذلك . والملموسات مثيرة وأجناسها محصورة، وبحاسة اللمس وحصولها يكون الحيوان حيوانا، وهي له بالإضافة إلى القوى الأخرى قوة مقومة لوجوده، إن فقدت ارتفع عنه معنى الحيوانية، إذ بها يصير حساسا، وهو فصله من الجماد، ومحل هذه القوة الجلد وأعدله جلد الراحة .

وأما حاسة الذوق : فهي تدرك المطعومات، وموضوع الطعم الرطوبة، ولذلك متى فقدت الرطوبة إذا يبست المطعومات فقدت، ومحلها اللسان، وأجناس مدركات هذه الحاسة من الطعوم على الأكثر الحلاوة، والمرارة، والملوحة، والدسومة والحموضة والحرافة والعفوصة والعذوبة والقبوضة، وهي موجودة في أكثر الحيوان أو كله، وضرورية في معناه .

وأما حاسة الشم ففي أكثر الحيوان أو كله، وضرورية في معناه.

وأما حاسة الشم ففي أكثر الحيوان ذي الاستنشاق والرئة، ومحلها الخياشم والأنف. فإن وافق المحسوس مزاج الحاس قيل للرائحة طيبة، وبالعكس قيل خبيثة، وهذه الحاسة في بعض الحيوان هي لمعاشه كالنملة فإن طريق غذائها من حاسة الشم، وهي في غير الناطق أقوى، وهي تقوم له مقام التمييز فينا.

وكتب الحكيم إلى الاسكندر: عليك يا إسكندر باللباس الحسن والأكل المتوسط، والمشموم الطيب، فاللباس الحسن يحفظ بدنك ويزينك ويقيم جاهك، والأكل المعتدل يدبر بدنك، وهو الطبيب لك، والرائحة الطيبة تقوى نفسك وتشوفك لعالمك كما يفعل المسموع الحسن.

وأما حاسة البصر: فالبصر الكمال الأول للعين الباصرة، وكما لها الأخير الإبصار، ومحلها الرطوبة الجلدية، ويدرك من الموجودات الألوان وسطوح الأجسام بذواتها، وشكل كل جسم على صورته، والأبعاد والنور والظلمة وحركات الجسم وسكونه، وهيآته ووضعها، والمدرك الحقيقي الذي يظهر بذاته، وتظهر به الأشياء هو النور لا غير، ولا تدرك الحاسة إلا بواسطة الهواء، والمبصر: المدرك من خارج بانطباع الشكل في العين.

وأما حاسة السمع ففعلها إدراك التغيير الحادث في الهواء عن تصادم جسمين وتموجهما ومحلها الصماخ من الأذنين، ومدركات هذه الحاسة أصوات ذوات أرواح، وتصادم جمادات وهذه الحاسة.

وحاسة البصر تفارق مدركها، وسائرها تدركه بمماسه، وهي المفيدة للحيوان العاقل تعلم العلوم.

وما من حاسة من هذه الحواس إلا ولها من نفسها على مبدعها الحق الواجب الوجود دلالة، سيما السمع والبصر، إذ لا تتزاحم فيها المدركات - وإن ملأت الآفاق - في خروت - أي ثقوب - ضيقة، ومنافذ حرجة، وإدراك ما قرب منها ونآى في غير زمان «وهو الذي خلق لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون».

والقوى الباطنة: أولها الحس المشترك المسمى «فنطاسياً» وهي قوة مرتبة في التجويف الأول من الدماغ - تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة في الحواس الخمس متأدية إليها.

والقوة الخيالية والمصورة: وهي قوة مرتبة أيضا في آخر التجويف المقدم. لحفظ ما قبله الحس المشترك من الحواس الجزئية، وتبقى فيه بعد غيبة المحسوسات، فكأن الخيال باطن الحس المشترك، وهي لكثير من الحيوان غير الناطق، وللنطق متممة وشأنها أن تدفع الموجود الذي أدته إليها الحواس في العصبات المتصلة من مقدم الدماغ بأصول الحواس إلى القوة المفكرة.

والقوة المفكرة: قوة من قوى النفس الناطقة، تجول في الأشياء، وتمحض الوجود من حيز الإجمال، وتحققه في النفس، ومنها يقع الانفعال في القوة النزوعية. والقوة المفكرة هي العلة الفاعلة لصورة المعلوم في نفس العالم.

والقوة الخيالية : وهي الباحثة المتممة والمقومة للشيء هي أسبابه .

والقوة الذاكرة : تذكر الأشياء الكامنة في النفس بالبحث والطلب ، والتذكر ـ طلب القوة المفكرة ـ اجتلاب الأشياء المغيبة بانبعاث في القوة المفكرة ، والقوة الذاكرة خادمة للقوة المفكرة ومتأخرة عنها وجودا ، ومحلها في مقدم الدماغ .

والقوة الحافظة : هي ثبوت الصورة في النفس على ما هي عليه في الخارج من الذهن وداخله ، ومحلها في المؤخر ، وكأنها والذاكرة من المتلائمات .

والقوة الصانعة : أثر النفس المتأخرة عن غيرها من القوى ، كما تريد النفس الناطقة أن تعلم بالعلوم التي تحصلت لها نفسا أخرى ، فتؤلف الألفاظ من الحروف التي تتوصل بها إلى الأشياء بواسطة الصوت ، ثم ترى أن حقائقها لا تثبت ، فتجعل تلك الألفاظ في موضوع يقيدها ، وهي صناعة الكتابة ، فقيل لها صانعة ، لأنها صنعت لها من الحروف أشكالا تبقى ، وكذلك الحكم في كل صناعة تحتاج أن يعلم الغير.

والقوة الوهمية : قوة مرتبة في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ ، تدرك المعاني غير المحسوسة ، الموجودة في المحسوسات الجزئية ، كالقوة الموجودة في النشأة الحاكمة بأن الذنب مهروب منه ، والخروف معطوف عليه ، وجعلها هؤلاء الإلاهيون في الترتيب تالية لقوة الخيال .

والقوة النزوعية الشوقية : هي القوة التي ارتسمت في التخيل صورة معطوب أو مهروب عنه حملت القوة المتحركة على التحريك بتشنيج العضلات ، وإرسال الأعضاء ، فرارا أو التماسا ، ولها شعبتان : شعبة تسمى قوة شهوانية ، وشعبة تسمى قوة غضبية .

فالقوة الشهوانية تبعث على تحريك يقرب من الأشياء المتخيلة ضارة كانت أو نافعة طلبا للذة .

والقوة الغضبية تبعث على تحريك يدفع به الشيء المتخيل ضارا كان أو نافعا ، طلبا للغلبة . . .

والفرق بين الحواس وبين هذه القوى : أن الحواس لا تدرك المحسوسات إلا في الهيولي ، وإدراك هذه القوى رسوم المعلومات يكون إدراكا روحانيا من غير هيولي .

ومنزلة الجميع من القوة المفكرة بمنزلة الملك من خدامه ، فالحواس أرباب الأخبار ، وخدام البريد في نواحي المملكة ، يؤدون ما وردوا به من الكتب إلى صاحب الخريطة ومستقر الرقاع ـ وهو الخيال ـ ثم يطالع بها القوة المفكرة ـ وهي الملك ـ ، فيدفعها إلى القوة الحافظة ـ وهي الخازن ـ ويطلبها إذا احتاج إليها فيجلبها إليه من الخزانة خادم الذكر ـ وهي القوة الذاكرة ـ ويحكم سائر القوى . فسبحان الحكيم العليم» .

ويشوقنا لسان الدين إلى الاستماع له في الفصل الرابع من كتاب الروض حيث يقول :

«العالم الكوني كله من البداية البشرية إلى النهاية الترابية مجموع أمرين : من ظاهر وباطن .

أما الباطن فيعبر عنه بالأمر ، وأما الظاهر فيعبر عنه بالخلق ، قال الله سبحانه وتعالى «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» .

فعالم الأمر مجموع خمسة عوالم : عالم السر، وعالم العقل، وعالم الروح، وعالم الصورة. وانتهى الأمر إلى باطن العرش المجيد.

وعالم الخلق أيضا مجموع خمسة عوالم : عالم الطبيعة، وعالم الأفلاك، وعالم الكرسي، وعالم اللوح، وعالم القلم، وانتهى الخلق إلى ظاهر العرش المجيد.

فأما عوالم الأمر فهي روحانيات، وأما عوالم الخلق فهي جسمانيات. والعرش روحاني من حيث باطنه المتصل بالروحانيات، وجسمانيا من حيث ظاهره المتصل بالجسمانيات، وتفاصيل كل عالم منها لا يعلمها إلا الله.

وإن الله عز وجل خاطب هذه العوالم بخطاب يليق بكل جزء من أجزائها بصلاح حالها ودوام بقائها، فخاطب عالم السر بخاصية العلم «إنه يعلم السر وأخفى» وخاطب العقل بالأمر والنهي «أقبل وأدبر»، وخاطب عالم الروح «قل الروح من أمر ربي» وخاطب النفس بالوعد والوعيد «ياأيتها النفس المطمئنة» و «إن النفس لأمارة بالسوء»، وخاطب الصورة بما تسعه الإحاطة «وسعني قلب عبدي المؤمن»، وخاطب العرش بالتوحيد «إذا قال العبد لا إلا إلا الله اهتز له العرش»، وخاطب القلم بحقيقة العلم«اكتب علمي في خلقي»، وخاطب اللوح بالحفظ «في لوح محفوظ»، وخاطب عالم الكرسي«وسع كرسيه السموات والأرض»، وخاطب الأفلاك بالتصرف «كل في فلك يسبحون»، وخاطب الطبيعة بالكون والفساد «كل من عليها فان».

فما من عالم علوي أو سفلي إلا والله عز وجل يخاطبه بخطاب على الجملة، وخطاب على التفصيل، والإنسان يخاطب بهذه المخاطبات كلها، فإذا كان العالم جملة من تفاصيل الإنسان فهو العلة، وما سواه معلول له، والنور الآدمي حقيقة الإنسان، والنور المحمدي علة هذه الحقيقة، وبه صارت حقيقة، وهذا النور هو حقيقة الرسالة، وسر القرآن، والرحمة المنزلة، وهي العناية في الدنيا، وسر الإيجاد، ومقتضى الإرادة العلية، ومعنى الكون، ومميز الشهادة من الغيب «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين».

ونزيد المطلب إيضاحا وتفسيرا فنقول : الكون المعتنى به عالمان : كبير وصغير جزئي، والجزئي في قوة الكلي.

أما العالم الكلي فهو ذات يطلق عليها الوجود، ومجموعها أرواح مجردة وأنوار مجسمة، وأجسام منورة، وأجسام مظلمة.

أما الأرواح المجردة فأربعة : عالم العقل الفعال، وعالم الروح الكلي، وعالم النفس المطلقة، وعالم الصورة الفياضة.

وأما الأنوار المجسمة فأربعة : العرش المجيد، والكرسي الوسيع، والقلم الرفيع، واللوح المحفوظ.

والأجسام المنورة والأفلاك السبعة، والفلك المكوكب الثامن . . . وهي عالم الجنان عندهم .

وأما الأجسام المظلمة، فعالم الطبيعة والنار والهواء والماء والتراب. فهذه العوالم عشرون .

ونرجع إلى العالم الجزئي فنقول : هو ذات يطلق عليها الإنسان، مجموعها، عقل وروح ونفس وفكر وتصور وذكر وضغط وحس ودماغ وطحال ومرارة ومعي ورئة وكليتان وكبد وصفراء ودم وسوداء وبلغم. عشرون عالما وفقا للعوالم المتقدمة يجمعها الجسم والروح، وتطبيق ذلك هو المقصود. أما العقل فجزء من العقل الفعال، وهذا الجزء هو المقصود من الخطاب الأول بأقبل وأدبر.

وأما الروح فجزء من الروح الكلي، وهذا الجزء هو محل الفهم عن الله بالمحل الأمري الإلاهي الاختصاصي «قل الروح من أمر ربي» .

وأما النفس فجزء من النفس المطلقة، وهذا الجزء هو المخاطب بيأيتها النفس .

وأما القلب فهو فيض من الصورة الفياضة، وهذا الفيض هو القابل لفيض العقل والروح والنفس .

وأما محل الفكر وهي الخزانة في مقدم الدماغ، وسلطانه في الطبقة القبلية، وهي البضعة المعبر عنها ـ إذا صلحت صلح الجسد ـ وفيها السر القلبي، فذلك المحل يشبه العرش المجيد .

وأما محل التصور وهي الخزانة الوسطى من الدماغ وسلطانه في الطبقة الفؤادية الوسطى من البضعة التي فيها السر الفؤادي، وذلك المحل يشبه الكرسي الواسع .

وأما محل الذكر فهو الخزانة المؤخرة من الدماغ وسلطانه في الطبقة السويدائية، من البضعة المذكورة وهي السفلى التي فيها السويدائية وذلك المحل شبه القلم. وأما محل الحفظ، وهو برزخ بين خزانتي الفكر والتصوير من الدماغ وسلطانه في البرزخ الذي بين الطبقة القلبية والفؤادية، وذلك المحل يشبه اللوح المحفوظ. وأما محل الحس، وهو الجوارح الخمس، وهو توليد ما تقدم من الخزائن والطبقات، فيشبه الفلك الثامن المكوكب. والطحال يشبه فلك زحل. والدماغ يشبه فلك المشتري. والكبد يشبه فلك المريخ. والقلب يشبه فلك الشمس، والكلية تشبه فلك الزهرة. والمرارة تشبه فلك عطارد. والرئة تشبه فلك القمر، والصفراء تشبه كرة النار. والدم يشبه كرة الهواء، والبلغم يشبه كرة الماء، والسوداء تشبه كرة الأرض .

فهذه النسبة الثانية هي المقصود من العالم، وهي علته الأولى، ولا تفارق معلولها، وهذه العلة الثانية معلولة بمحمد صلوات الله وسلامه عليه، أصل الوجود وسبب الكون، وعين الرحمة المنزلة من المائة ـ يعنى بها الحديث «إن لله مائة رحمة، جعل عنده تسعا وتسعين رحمة وجعل في الأرض رحمة واحدة ـ قال تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .

الظلام الذي يدخل ذوات العباد

إن المشاهدة لأسرار الكون توجب الطاعة المثلى لله العلي القدير، والطاعة توجب محبته جل وعلا، ومحبته توجب الانقطاع إليه سبحانه، وفي الانقطاع يكون الأجر منه عز وجل.

وعدم المشاهدة يوجب الغفلة عنه سبحانه، والغفلة توجب الانقطاع، والانقطاع يوجب أن يكون الأجر على قدر العبد.

إنك ترى رجلين كل منهما يعبد، فيكون للأول ضعف وعدم استجابة بينما الثاني أجره لا يحصى واستجابته واضحة «ولا يظلم ربك أحدا».

وهكذا عمل العبد بينه وبين ربه، فإذا كان المحرك له هو عظمة الله سبحانه وتعالى وجلاله وعلوه في كبريائه، فالأجر على قدر عظمة العظيم سبحانه. وإذا كان المحرك له والحامل عليه مجرد غرض العبد وما يرجع لذاته فالأجر على قدر ذلك. إن الأعمال لها أجر، وللأجر أنوار، وللأنوار اتصال بالذات، فإن كانت الأعمال خالصة لله سبحانه وسرت على سر حقيقة الذات، فإن أنوار أجورها تسطع على الذات الإنسانية، فتشعر بذلك ويحصل لها خشوع وقشعريرة وبكاء مما تقتضه تلك الأنوار الساطعة، فيعلم صاحب البصيرة ذلك ويتقين بقبول العمل فيبلغ من الأجر مايبلغ.

وقد يظن بعض الناس أن الأجر لا يعلم إلا في الآخرة — وهذا في حق المحجوبين — أما غير المحجوبين فذلك مكشوف لهم. أما الأعمال لغير الله والتي لم تجر على حقيقة الذات فكلها عناء وتعب، ولا يستطع بها ذات الإنسان نور. فعلى العامل أن يختبر قلبه عند العمل، والعادة أن لكل عمل أجر، فإن كان القلب عند العمل معمورا بالشواغل فليعلم أن الله قد حرمه الأجر، من أجل ذلك ملأ قلبه بالشواغل، وإن كان القلب فارغا من الشواغل منقطعا إلى الله عز وجل، فليعلم أنه سبحانه قد أعطاه أجرا وأفاض عليه ذكرا.

ومثال على ذلك كطالب سافر من بلد إلى آخر أو من قطر إلى قطر طلبا للعلم بنية إن يدرك العز والجاه والدنيا إلى غير ذلك من الأغراض الظاهرة الباطلة، وبقي على تلك النية سنين عددا، فمثل هذا يحرمه الله من نور العلم. فلم يكن من الراسخين فيه أبدا، لأنه لا يدرك حقيقة العلم إلا من ظاهره، وخفي عليه باطنه، لأن باطن ذاته مغمورة بأغراضه وشواغله، بينما العلم سر من الأسرار لا يدركه الظاهر أبدا، فكذلك أجور الأعمال التي ليست خالصة لا يدركها العبد أبدا، لأن الأجور من أسرار الله تعالى، والظاهر بدون باطن لا يدرك الأسرار أبدا.

وإن زيادة الظلام في ذوات العباد كثيرة لا يمكن حصرها، وقد قال عنها سيدي عبدالعزيز الدباغ دفين فاس، أن الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل، والطارئة على الإنسان من غير شعور هي ثلاثمائة وستة وستون سببا، فسألوه عن ذكر بعضها مما حضر، فذكر منها عشرين، ملخصها :

- الهدية للصالحين .
- التوسل إليهم بقضاء الحاجة .
- زيارتهم والزائر لازال على ذمته فرضا من فرائض الصلاة .
- الخوف من الظالم على العمر والرزق .
- الطمع في الظالم والتقرب منه لينال منه رزقا .
- نصرة الكافر .
- عدم النصيحة للمسلمين .
- استحلاء التعب والمشقة في طلب الدنيا على عبادة الله عز وجل .
- طلب الدنيا بما هو أهون منها وأذل وأحقر .
- أن تكون الأعمال بقصد النفع الشخصي لا بقصد وجه الله الكريم .
- المعاصي في حرمات الله تعالى كالمساجد ونحوها .
- اللواط .
- ضرب الرجل امرأته من غير ذنب .
- المنة على العيال والأهل بالنفقة .
- الحسد .
- الإقدام على المعصية مع معرفتها .
- جمع الدنيا من الحرام .
- عقوق الوالدين .
- مخالطة المحجوبين .
- التفريق بين الخلفاء الأربعة .

وقد أفاض رحمه الله في شرح هذه النقط التي لخصتها عن كتاب «الإبريز، من كلام سيدي عبدالعزيز» تأليف سيدي أحمد بن مبارك .

ويحكي صاحب الكتاب عنه رحمه الله قائلا :

«وسمعته رضي الله عنه يقول : أتدري من أشد الناس عذابا يوم القيامة ؟

فقلت له : قل يا سيدي، فقال : هو رجل أعطاه الله ذاتا كاملة، وعقلا كاملا وصحة كاملة، ومهد لـه في العيش وأسباب الـرزق، ثم يبقى هذا الرجل اليـوم واليومين والأكثـر ولا يخطر ببالـه ربه سبحانه، وإذا أمكنته المعصيـة أقبل عليها بذاته الكاملة وعقلـه الكامل، واستلذ بها واستحسنها من غير فكر يشوش عليه من نـاحية ربه تعالى، فتجده متصلا بالمعصية غايـة الاتصال، منقطعا عن ربه تعالى كل الانقطاع، يميل بكليته للمعصية ويستحليها غاية الاستحلاء، فيكون جزاء هذا يوم القيامة أن ينقطع إلى العذاب بجميـع جوارحه، ويتشـوف إليه بـالكلية، ويقع فيـه المرة الواحـدة ويستحليه استحلاء المجروب للحك، وعلى قدر ما حك يكون وباله».

وفي فقرة أخرى يقول صاحب كتاب الإبريز :

وسمعتـه رضي الله عنـه ـ أي سيـدي عبدالعـزيز ـ يحكي في استحضار الخالق سبحـانه حـال المعصية، حكاية عجيبة عن سيدي عمـر بن محمد الهواري. قال سيدي عمر: جاء رجل مسرف على نفسـه مرتكب للمعـاصي إلى شيخي وأنا حـاضر، فقـال له : يـاسيدي أنـا مرتكب للمعـاصي مصر عليها، لا أقدر على تركها، فكيف الحيلة في الخلاص ؟ فقال له الشيخ : ويحك أتعصى ربك ؟ اترك المعاصي ولا تعد إليها. فقال لا أقدر. فقال الشيخ: ويحك تب إلى ربك. فقال لا أقدر. فتغافل عنه الشيخ وأقام عنده يوما أو يومين. فلما أراد وداعـه قال : سيدي كيف الخلاص ؟ فقال له الشيخ : إذا أردت أن تعصي ربك فاستحضر ثـلاثة أمور وافعل مـاشئت : استحضر المعصية وقبحها ومـا توصل إليه من غضب الرب، واسحضر ذاتك ونفسك وخسـاستك وإعراضك عن ربك، واستحضر ربك وسطـوتـه وقهـره وقـدرتـه عليك متى أرادك، ثم عفـوه عنك ومـا أسبلـه عليك من جميل ستره، فإذا استحضرت هذه الأمـور كما ينبغي فافعل ما بـدا لك. قال : فذهـب الرجل ثم بعد مـدة لقيته فسلم علي وقال : أو ما تعرفني ؟ فقلـت له، من أنت ؟ فقال : أنا صاحب المعاصي، وقـد أخذ الله بيدي ببركة كلام الشيخ ؛ وذلك أني أردت المعصية فـاستحضرت الأمور التي أوصاني بها، فما قدرت عليها، فكانت ذلك سبب توبتي». وفي فقرة أخرى يسرد الإبريز :

«وسمعته رضي اللـه عنه يقول : عندي أن الكبيرة مـا فعلت حال انقطاع القلب عن اللـه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر باطنا، وإن تعلق العبد بذلك ظاهرا فلا ينفعه.

وإنما كانت المعصيـة في هذه الحالة كبيرة، لأنـه في حالة الانقطـاع يكون العبد واقعـا في المعصية بقلبه وقالبه، وبحبه ولبه، وبيديه ورجليه، وبكل ذاتـه، فلا يزجره من قلبه زاجر، ولا يذكره من ربه ذاكر.

والصغيرة ما فعلت حال تعلق القلب بالرب سبحانه، وبـالأمور الموصلة إليه من رسله وملائكته وكتبه، فإن العبـد إذا وقع في المعصية حينئذ يقع فيها على غير نيـة مع شائبة بغض فيهـا لأجل المزاجر التي في قلبه، فهو في حالة ارتكابها في حياء من ربه تعالى.

فقلت : يشكل هذا التفريق عده صلى الله عليه وسلم الكبائر في الحديث مع إطلاقها ولم يقيدها بحالة الانقطاع عن الله عز وجل، فقال صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين «الكبائر الإشراك بالله، والسحر، وعقوق الوالدين، وقتل النفس» وزاد البخاري «واليمين الغموس» وزاد مسلم بدلها «وقول الزور» وفي حديث أيضا «اجتنبوا السبع الموبقات، الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المومنات».

فقال رضي الله عنه : هذه المعاصي لا تصدر من العبد إلا إذا كان مقطوعا عن ربه عز وجل، فإذا كان القلب متعلقا بالرب سبحانه لا يشرك ولا يتعاطى سحرا ولا شيئا مما هو مذكور في هذين الحديثين.

ثم قال رضي الله عنه : ألا ترى إلى فلان فإنه سيكون من أولياء الله تعالى وهو الآن محجوب من جملة المحجوبين، وقلبه متعلق بربه تعالى، فما باله لا يستطيع أن يفعل شيئا من هذه المعاصي ويخاف منها خوفه من النار. وإلى فلان فإنه ليس من المفتوح عليهم، وقلبه منقطع عن الله عز وجل، ومجرد ذكر اللسان لا ينفع، وانظر إلى ما يرتكبه من القبائح».

إن طاعة الله هي فتح باب نور الحق على الذوات، والنهي عن المعاصي عبارة عن سد الأبواب الذي يدخل منها ظلام الباطل عليها، فمن كان في الطاعة فتح الله على ذاته الأنوار وسد عنه ظلام الباطل، ومن ترك الطاعات وارتكب المخالفات فتح على ذاته ظلام الباطل وسد الأنوار، ومن أطاع وعصى فتح على نفسه البابين معا.

فلينظر العبد في أي مقام هو، وأي باب فتحه على نفسه قبل فوات الأوان.

وقد يظن بعض العباد أن القيام بالطاعات ظاهرا يكفي لفتح أبواب أنوار الحق، كما أن البعض يظن أن فعل المخالفات في الظاهر يكفي لفتح أبواب الشر. والواقع ليس كذلك، فلابد أن يوافق الظاهر الباطن، لذا فإن الناس أربعة : نوع ظاهره وباطنه مع الله، حيث أن ظاهره مع الله لامتثال أوامره، وباطنه مع الله لزوال الغفلة حال فعل الطاعة واستحضار المراقبة والمشاهدة، فهذا محبوب عند الله عز وجل.

ونوع ظاهره وباطنه مع غير الله، فظاهره في المخالفات وباطنه مغمور بها وهذا بالطبع مذموم.

ونوع ظاهره مع الله وباطنه مع غير الله، فظاهره في الطاعات، وباطنه في غفلة، فعبادته صارت عادية له، وذاته استأنست بذلك، فصار يفعلها بحكم وازع الطبع، لا بحكم وازع الشرع.

ونوع ظاهره مع غير الله وباطنه مع الله، فظاهره في المخالفات، وباطنه في مراقبة الحق، فتراه يعصي وربه بين عينيه لا يغيب عنه، فتكبر عليه المعصية كالجبل، فتراه حزينا كئيبا، وهذا أفضل ممن ظاهره مع الله وباطنه مع غير الله.

فرحم اللـه سيدي عبـدالعزيـز الدبـاغ إذ يقول : الـروح ثلاثمائة وستة وستـون سرا ، فمن تلك الأسرار سر لو أمدت الروح به الذات لبكت دائما ، ومنهـا سر لو أمدتها به لضحكت دائما ، ومنها سر لو أمدتها به لصاحت دائما ، ولكنها لا تمدها إلا بما سبق به القدر.

وصدق عز وجل إذ يقول «وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب» .

الفتح النوراني والظلماني

إن اللـه تبارك وتعـالى خلق الحق والنـور وجعل لهما أهلا، وخلـق الظلام والبـاطل، وجعل لهما أهلا، فأهل الظـلام يفتح لهم في الظلام وجميع ما يتعلق بـه، وأهل الحق يفتح لهم في الحق وما يتعلق به، والحق هـو الإيمان باللـه عز وجل وبملائكتـه وكتبه ورسلـه، والظلام يعني الكفـر وكل ما يقطع الصلة باللـه من اشتغال بالدنيا والأمور الفـانية. أما الحق فهو نور من أنـوار المولى عز وجل يسقي به عباده المخلصين فتشع عليهم أنوار المعارف.

والحق عند أهـل الباطل بمنـزلة شيء في طي العدم، لـذلك يفتح عليهم بمشـاهدة هـذا العالم وسمائه وأرضه وقفا على الأمـور الفانية من أجرام وهيـآت وفلك . . . إلى غير ذلك، بينما النور المستمد من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى البرزخ وذوات الأولياء العارفين وأرواح المؤمنين والحفظة الكرام الكاتبين والملائكـة الذين يتعاقبـون . . . إلى غير ذلك من أسرار الحق الموصلة إلى اللـه عز وجل التي وضعها في أرضه، فلا يفتح فيها على أهل الباطل ولا تقع في عقولهم، فتحجب عنهم أسرار الحق التي وضعها في سمائه وأرضه، فلا يسمعون تسبيحا ولا حسيسا للأنوار ولا يخشون خالقهم.

وأهل الحق لهم الفتح الأول الـذي هو لأهل الظـلام أيضا، والفتح الثـاني مشاهـدة ما في الأرض والسماء وأفعال العباد، وقـد لا يرى ذلك ببصره، وإنما ببصيرته التي لا يحجبها ستر ولا يـردها جدار، كما يشاهد أيضا أمور المستقبل.

وقـد قلنـا أن صـاحب الكشف الأول متسـاوي مع أهل الظـلام، لـذا يقـال «الكشف أضعف درجات الولايـة» لأنه يوجد عند أهل الحق وأهل البـاطل على السواء. فصاحب الكشف لا يأمن عن نفسه من القطيعة واللحوق بأهل الظلام، إلى أن يقطع مقامه إلى مقام السالكين ويتجاوزه.

أمـا الفتح الـذي بعد هـذا الكشف هـو مشـاهـدة أسرار الحق، كمشـاهدة الأوليـاء العـارفين والتحدث إليهم ومناجاتهم على الـرغم من بعد المسافة مناجاة الجليس لجليسـه، وكذا مشاهدة أرواح المؤمنين فوق القبـور، والكرام الكاتبين، والملائكة والبرزخ والأرواح التـي فيه، ومشاهدة قبر الـرسول صلى الله عليه وسلـم وعمود النور الممتد منه إلى قبـة البرزخ، فإن حصلت له مشاهـدة الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة حصل له الأمان من كيد الشيطان.

والاجتماع بالذات الشريفة للنبي صلى الله عليه وسلم سبب إلى المعرفة بالحق سبحانه، ومشاهدة ذاته الأزلية، لأنه يجد الذات الشريفة غائبة في الحق هائمة في مشاهدته سبحانه، فلا يزال الولي ببركة الذات الشريفة للنبي يتعلق بالحق سبحانه، ويترقى في معرفته شيئا فشيئا إلى أن تقع للسالك المشاهدة وأسرار المعرفة وأنوار المحبة. هذا هو الفتح الثاني، وهو الفاصل بين أهل الحق وأهل الباطل،

وقد أشرنا إلى أن الكشف الأول يشترك مع أصحاب الباطل، والمقصود به أن أهل الظلام قد صدوا على سبيل الهدى وأضلتهم أعمالهم تعلق قلبهم بغير الله عز وجل، فأمد لهم في خوارقهم واستدرجهم ليحسبوا أنهم على شيء. أما أهل الحق فيزداد محبة فيه عز وجل ويرتقوا من درجة إلى درجة بين جنبات الكشوفات ورفع الحجاب إلى أن يمدهم بالخوارق فتقوى بصيرتهم وتتأكد معرفتهم بالله، فيدخلوا في الدرجة الثانية، وقد صدق عز وجل إذ يقول «فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون».

وعن «كتاب الإبريز من كلام سيدي عبدالعزيز» يقول مؤلفه سيدي أحمد بن مبارك: «قال رضي الله عنه - سيدي عبدالعزيز الدباغ -: وعلامة إدراك العبد لمشاهدة ربه عز وجل أن يقع في فكره بعد مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم التعلق بربه. بحيث يغيب فكره في ذلك مثل الغيبة السابقة في البني صلى الله عليه وسلم، ثم لا يزال كذلك إلى أن يقع له الفتح في مشاهدة الحق سبحانه، فيقع على ثمرة الفؤاد ونتيجة الفكر، وإذا كانت ذاته تسقى جميع أنواع نعيم أهل الجنة عند مشاهدته النبي صلى الله عليه وسلم، فما ظنك بما يحصل له عند مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، الذي هو خالق النبي صلى الله عليه وسلم وخالق الجنة وكل شيء.

قال رضي الله عنه: ثم بعد الفتح في مشاهدة الحق سبحانه انقسم الناس إلى قسمين. فقسم غابوا في مشاهدة الحق سبحانه عما سواه، وقسم وهم -أكمل- غابت أرواحهم في مشاهدة الحق سبحانه وبقيت ذواتهم في مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا مشاهدة أرواحهم تغلب مشاهدة ذواتهم، ولا مشاهدة ذواتهم تغلب مشاهدة أرواحهم. قال رضي الله عنه: وإنما كان هذا القسم أكمل لأن مشاهدتهم في الحق سبحانه أكمل من مشاهدتهم القسم الأول، وإنما كانت مشاهدتهم في الحق سبحانه أكمل لأنهم لم ينقطعوا عن مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي سبب في الارتقاء في مشاهدة الحق سبحانه، فمن زاد في مشاهدته عليه السلام زيد له في مشاهدة الحق سبحانه ومن نقص منها نقص له. قال: ولو كان الاختيار للعبد وكان عمره تسعين سنة مثلا لاختار في جميع هذه المدة أن لا يشاهد إلا النبي صلى الله عليه وسلم، وقبل موته بيوم يفتح له في مشاهدة الحق سبحانه، فإنه يحصل له في هذا اليوم من الفتح في مشاهدة الحق سبحانه لأجل رسوخ قدمه في مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم أكثر مما يحصل لمن فتح له في المشاهدتين معا في تلك المدة من أولها إلى آخرها.

ثم جعل رضي الله عنه مرآة بين عينيه وجعل ينظر في الحروف، فقال: أليس أن الذي يظهر في الحروف وصفائها في النظر يتبع صفاء المرآة وحسن مائها فقلت: نعم.

فقال رضي الله عنه : فمشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة المرآة، ومشاهدة الحق بمنزلة الحروف، فعلى قدر الصفاء في المشاهدة النبوية يحصل الصفاء ويزول الغمام في المشاهدة للذات الأزلية».

ثم سمعت منه رضي الله عنه في مشاهدة الحق سبحانه والنظر بنور الله تعالى وارتفاع الزمان في ذلك النظر، وأنه لا ماضي ولا حال ولا مستقبل، وكيف مشاهدة الذات العلية وصفاته السنية، وكيف تسقى الذات بأنوار الأسماء وانقسام مراتب الولاية على عدد الأسماء، وفي فتح الروح إلى أسرار أخرى مالا تحيط به العبارة ولا تفيد به الإشارة.

وسمعته رضي الله عنه يقول :

إذا أراد الله تعالى رحمة عبده ونقله من حالة الحجب إلى حالة الفتح حصل للأولياء رضي الله عنهم خوف عليه، لأنهم لا يدرون هلا يموت بالفتح لكونه لا يطيقه أو يموت، وإذا لم يمت فهل يسلب عقله أو يبقى عليه عقله، ومعنى سلب العقل أن يذهب العقل مع الأمور العظام التي يشاهدها وينقطع عن الذات بالكلية بحيث لا يرجع لها، ومعنى عدم سلبه أن يذهب شيء من نوره مع ما شاهد ويبقى شيء منه مع الذات يحفظ عليها أكلها وشربها، وكيف تلبس ثوبها وكيف تنظر في مصالحها !.

قال رضي الله عنه : ولا يعلم أحد كيف يصير أمر هذا الذي أراد الله رحمته إلا شيخه.

قلت : ولم يقع لدى الفتح الخروج عن مركزه حتى يموت أو يزول عقله ؟

فقال رضي الله عنه : إذا فتح على العبد شاهد مالا يطيق من عالم الملائكة والجن والشياطين، ورأى من الصور الفظيعة، وسمع من الأصوات الهائلة ما تنفلق به كبده.

قال رضي الله عنه : وكم رجل يكون في حانوته يبيع فيها فيفتح الله عليه فيرى مالا يطيق فيموت من حينه، فيظن الناس أنه مات فجأة من غير سبب، وهو إنما مات من الفتح.

وذكر لنا رضي عنه مرة أنه بينما هو يمشي في سوق العطارين بفاس، فنظر إلى رجل في حانوته يبيع الحناء، ففتح الله عليه فصعق لحينه ومات، فظن الناس أنه مات فجأة وهو مات على الولاية».

وقال رضي الله عنه : والمفتوح عليه إذا جلس إليه شخصان زال عقلهما واحدهما ولي والآخر غير ولي، وجعلا يتكلمان، فإنه يميز الولي منهما لكلامه، لأنه وإن كان لا يدري ما يقول، إلا أنه قد تبدو منه أسرار من أسرار الحق سبحانه يعرفها أربابها عند سماعها، بخلاف غير الولي منهما، فإنه لا يسمع منه شيء من ذلك أبدا، ويميز الولي منهما أيضا بأمر آخر، وهو أن يرى روحه منبسطة أبدا، ذات فرح وسرور، ويرى روح الآخر فيه على هيئة الرجل المنقبض المنكمش رأسه، الذي يفكر في أمر نزل به وأغمه وأهمه».

تلكم إشارات عن الفتح النوراني والفتح الظلماني.

الظاهر والباطن

الكشف الباطني شغل حياة الصوفية، بل هو علم الصوفية الذي لا ينازعهم فيه أحد، وهو علم فتح باب الجدل بين أهل الفقه وعلم الكلام.

فالصوفية يؤمنون قطعا بأن المعارف الإنسانية وسائل باطنية، وليست هي الحواس الخمس التي تصل بين النفس والعالم الروحاني.

إن المجاهدة والمحبة والفناء في معاني المحبة والعبادة هي التي تعد الروح للتدوق والتلقي إلى العلوم والمعارف. فالمعارف في نظر الصوفية كامنة في الروح أصيلة في مادتها، فالتغلب على الجسد وإعلاء مكانة الروح يعين جيدا على تمزق تلك الحجب، وترفع الظلمة بين الروح والنور.

فالطاعة تستوجب المحبة لله، والمحبة لله يصاحبها الفيض والإشراق والإلهام. وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: «ليس العلم بكثرة التلقين والرواية، وإنما هو نور يقذفه الله في قلوب من أطاعوه فأحبهم»، قال تعالى «واتقوا الله ويعلمكم الله».

إن الصوفية يجعلون من إلهامات القلب وكشوف الروح علما أساسيا شاملا للحياة، وهو العلم الباطني، ولعل قصة الخضر مع موسى عليهما السلام خير دليل إذ ركبا سفينة فأغرقها الخضر، ووجد غلاما فقتله، وجلس تحت جدار يكاد ينقض فأقامه دون أن يأخذ عنه أجرا.

فعل الخضر كل هذا صحبة موسى، وقد يوحي ظاهرهُ بالظلم والعدوان، وموسى عليه السلام ثائرا لا يستطيع صبرا، بل يجادل ويعارض، والخضر عليه السلام يجيبه «ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا»، وأخيرا يشرح أسرار تلك الأحداث ـ وهي من الأسرار الباطنية الربانية. «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءها ملك يأخذ كل سفينة غصبا، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشيا أن يرهقهما طغيانا وكفرا، فأردنا أن يبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك. وما فعلته عن أمري، ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا».

وفي قوله تعالى «وأسبغ عليكم نعمهُ ظاهرة وباطنة» يشرح الصوفية ذلك بأن النعمة الظاهرة مثل الطاعات، والباطنة هي الخواطر القلبية وكشوفاتها.

ويشرح الإمام محيي الدين قول الله عز وجل «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» أي أطلعناهم على العلوم المتعلقة بالعلويات والسفليات وأسرار الجبروت وأنوار الملكوت.

إن الخلاف بين الفقهاء والصوفية إنما هو في طريقة التفكير، فالصوفية يحكمون الذوق ويدركون الأشياء بعين القلب، ويجعلون التقوى والطاعة شرطا للعلم الرباني، بينما الفقهاء جمدوا على ظاهر علمهم وأبوا أن يقبلوا التأويل، وتمسكوا بحقية الألفاظ. والصوفي أولا كان فقيها، بل ربما إماما في العلوم الفقهية والكلامية، ولكن التصوف يكسب أربابه رقة وذوقا. والصلة بين التصوف والفقه وثيقة جدا، حتى قيل: من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق.

والمتصوفة يقولون أيضا «الشريعة هي الشجرة، والحقيقة ثمارها».

وقد أكد المتصوفة ما مرة بأن الحب أساس الوجود، فالكون قد أوجدته المحبة الإلاهية، ومن ثم نجد في أعماق كل شيء تلهف وتطلع واشتياق إلى مبدعه وخالقه، فالكون كله ظاهره وباطنه يتحرك مسبحا بجلال الخالق العظيم، متلهفا إلى بلوغ كماله بالتقديس والطاعة، قال تعالى «وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليما غفورا»، وقال تعالى «ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه».

والواقع أن الكون بيننا وبينه تناسق ومشاركة معنوية في الرسالة والغاية، فبنا يكمل وجوده، وبه تتم رسالتنا. فنحن نغمة في لحن سر الوجود الأعظم، تحركه الإرادة العليا في تناسق ليصل إلى أهدافه المقدرة.

والوجود الكوني في رأي المتصوفة، هو رسالة من الله كتبت بحروف نورانية، والمخاطب فيها هو الإنسان بأن يفقه تلك الرسالة حرفا حرفا، وأن يقوم بدوره فيها مع روح من التعبد والمحبة إلى أن يصل إلى أوج القوى الكونية وإلى مفاتيح أسرار الوجود، من غير أن تطيش إنسانيته أو يفقد روحانيته.

قال تعالى «الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها»، إن الصوفي صديق الكون كله.

وخلاصة القول، فإن الفقهاء والمتكلمين وغيرهم، إنهم يحومون حول رواق الوجود من غير أن يدخلوه لأنهم لا يعرفون الحب. والحب هو المنهج عند المتصوفة في المعرفة، فتركوا جدل الحوار، وأشعلوا الحب في قلوبهم، وأيقظوا أحاسيسهم بالوجد، فأدركوا المحبة والحقيقة الخالدة من أقرب الطرق الموصلة، وألقوا بتلك الظواهر والصور، فرأوا الله عز وجل وحده الحي القيوم الذي لا يعزب عنه شيء، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن.

قال الحلاج : حججت فرأيت الكعبة ولم أر رب الكعبة ، ثم حججت ثانية فرأيت الكعبة ورب الكعبة ، ثم حججت ثالثة فرأيت رب الكعبة وما رأيت الكعبة .

وقال الجنيد : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله معه .

وقال الشبلي : مارأيت شيئا إلا الله .

حكـــم وأســـرار

قال سهل : لا أعرف معصية أقبح من نسيان هذا الرب، وإذا تمكن الذكر من القلب ثم دنا منه الشيطان صرُع كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان ، فتجتمع عليـه الشياطين فتقول ما هذا ، فيقال مسه الإنس .

وقال : لكل شيء عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن الذكر.

إن الذكر ركن قوي نحو الوصول، وسيف قـاطع للمريد من الآفات، يربط القلب ويلينه ، فإذا خلا الـذاكر عن الذكر أصـابته حرارة النفس ونار الشهـوات . فقسي وامتنعت الأعضاء وتعطلت عن الطـاعة . قـال أبـو مديـن التلمساني : من دامت أذكـاره صفت أسراره ، ومن صفت أسراره كـان في حضرة الله قـراره . وقال الشبلي : من تسـاهل بالغفلـة ولم تكن عليـه أشد من ضرب السيـوف ، فهو كاذب. وقال الشاذلي : إذا ترك العارف الذكر نفسا أو نفسين قيض الله له شيطانا فهو قرين .

وقال الشيخ فضل الدين : لو كشف لأحدكم لرأى إبليس يركبه كما يركب أحنا الدابة ، ويصرفها كيف شاء طول الليل والنهار كلما غفل ، وينزل عنه كلما ذكر.

وقـد أجمع القوم من الصـوفيـة على أن الـذكر مفتـاح الغيب ، وجـاذب الخير، وأنيس الموحش ، وجامع شتـات صاحبه. وأجمعـوا على أن الذاكر جليس حضرة الحق ، لايـرد عليه أحد فيفـارقه ، ولا يقـرب عبـد حضرة الحق إلا واستحيـا حق الحيـاء ، ولا يستحتي إلا من حصل لـه الكشف ورفع الحجاب، ولا يصح لـه رفع الحجاب إلا بالـذكر. والـذكر يشفي الأمراض البـاطنية من كبر وعجب ورياء ، ويخمد الخواطر الشيطانية والنفسانية والهم والغم ، وبالتالي يرتقي بصاحبه نحو المقامات . قال النووي : الذكر هو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده مالم يفعله العبد بغفلة .

والذكر أولـه «لا إلاه إلا الله» في حق المريد، فإذا فنيت إرادتـه وأهويته كلها كـان ذكر الجلالة في حقه أكمل .

والمريد إذا ذكر ربه بشـدة وعزم مع جهر طويت له المقامـات بسرعة من غير بطء ، فربما قطع في ساعة مالا يقطعه غيره في شهر أو سنة أو أكثر.

وفي وصية سيدي علي الخواص : ينبغي للمريـد أن يذكر بقوة تامة مع الجهـر فإنه أشد تأثيرا في دفع الخواطر الرديئـة عند الذكر سرا وجهرا ، ومع الجماعة ، فإن ذكـر الجماعة أكثر تأثيرا في رفع حجب

النفس من ذكر الإنسان وحده، كون ذكر الجماعة أكثر تأثيرا في رفع حجاب النفس. وكون الحق شبه القلوب بالحجارة، والحجارة لا تنكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين عليه، وكذلك القلب لا ينكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين على قلب واحد، إذ قوة الجماعة أشد من شخص واحد، وأما من حيث الثواب فلكل واحد ثواب نفسه وثواب سماع رفقته.

والجهر بالذكر ينبغي أن يكون برفق حتى لا يزعج أو يضر البدن فيعطل جهره بالكلية. وقد اختلف الشيوخ في السر والجهر وكلاهما أحلى وأنفع.

والمبتديء لابد له من شيخ، وأن لا يختلف بينهم حتى لا يكون مذبذبا بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، غير مستقل بالاختيار، لأنه غير مستخن عنه، ومع هذا يمكن أن نقول أن هناك من سلك الطريق بغير شيخ، وأخذ السند مباشرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ هو الداعي إلى الله تعالى، والشيخ نائبه.

وعلى المريد أن لا يتسرب إليه الملل، فالشيطان يترقبه عن كتب ليملي له بالخواطر الهادفة نحو الشبهة، فيلوي له الطريق نحو أخرى ليستدرجه نحو الزلل. وربما فتح عليه فيحصل الإعجاب والاعتقاد أنه وصل نحو الكمال، لأن بعض التجليات كثيرا ما تلتبس، فيظن أنه وصل المقصود الأقصى فينقطع، ومن هنا جاء دور الشيخ الواصل الكامل الذي يمد يد الإنقاذ من غير معارضة المريد. وقيل : الاعتراض سبب الانقراض. وقد يتساءل البعض عن الشيوخ من المتصوفة، فأقول هذا المثل : يقال أن ثلاثة لا يعرفون بثلاثة، الجليل جل جلاله لا يعرف بالعقل، لأن كل ما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك. والدار الآخرة لا تعرف بعوائد الدنيا، لأن الموت وما بعده خرق عادة. والأولياء لا يعرفون بالبشريات لأنهم متلوثون بها آناء الليل وأطراف النهار، إلا أن من أرادهم بالروحانيات والمغيبات شاهد منهم العجب العجاب، ووجد بشرياتهم كلها رواحانية ربانية بلا ارتياب لا سيما الكُمّل بالأحرى الأقطاب، لأن القطب لا يبقى لباس للبشر إلا وتلبس به أو ألبسه، أحب أم كره، أحب غيره أم كره، إلا أن من نظره ربانيا وجد ربانيا، ووجده في كل أفعاله في مقام.

والمريد عادة ترد على قلبه أربعة أوجه :

الأولى حديث النفس، والدليل عليه طلبها للشهوات.

والثاني وسوسة الشيطان، والدليل عليه طلبه المعاصي.

والثالث إلهام الملك، والدليل عليه طلبه الهداية.

والرابع إلهام من الله بلا واسطة، والدليل عليه انشراح الصدر وخمود الغواية، وهذا الإلهام لا يطلع عليه ملك ولا شيطان إلا القلب وحده، وهو ضرب من الوحي، - أي وحي الإلهام - والوحي ضربان :

وحي ينزل به جبريل عليه السلام على الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم.

ووحي ينزل بلا واسطة وهو الإلهام . وكلاهما نور من أنوار العزة الإلاهية . والوحي الذي ينزل على قلوب الصديقين والأولياء وما إلى ذلك قد يمكن توارثه ، بينما الوحي الذي ينز به جبريل على الأنبياء والرسل لا يتوارث ، بحيث اختصوا به دون غيرهم .

والإلهام الرباني إذا أشرق على قلب بلا واسطة أضاء القلب ، وهزم الشيطان ، ورفع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .

والذكر والدعاء مفتاحان للقلب من أجل استقبال العطاءات الربانية ، والفيوضات الأحمدية «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم» ، والدعاء الخالص الموفق والخالي من شوائب الغفلة هو حسم بين الحق والباطل ، وسد منيع على ما سوى الله ، قال صلى الله عليه وسلم «الدعاء مفتاح الرحمة ، والوضوء مفتاح الصلاة ، والصلاة مفتاح الجنة» والدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض . والدعاء ينفع ما نزل ومالم ينزل . والدعاء يرد البلاء .

والزيادة في الخير مطلوبة ومحبوبة ، لأن كل زيادة خير هي زيارة في الإيمان ، فتربط الظاهر بالباطن ، وكلما زاد الإيمان زاد العبد في الأعمال حتى تلتقي حافظة الدماغ بحافظة القلب ، ويسري نور الأعمال والإيمان في الجسم سريان الماء في العود ، حتى لا تبقى منه باقية ، ذلك هو الوصول الذي لا وصول بعده ، فتتجلى المحبة الإلاهية ، ولاشيء أعظم من هذا ، فيظهر وضوح المسير والمصير.

عالـم المثـال والحفظـة الكرام

الكشوفات الباطنية تشغل حيزا مهما من حياة الصوفية، وتشغل بال الفقهاء وأصحاب الكلام. فالصوفية يـؤمنون إيمانا قطعيـا بالكشوفـات، بناء على أن المعـارف الإنسانية لها وسـائل باطنيـة فوق الحواس الخمس، تصل بين النفس والعالم الروحاني، وطريق ذلك المجـاهدة والمحبة الإلاهية والتفاني فيها عن طريق العبادة، كل ذلك يعد الـروح للتذوق والتلقي لتطلع على المعارف السامية، لأن ذلك كامن في الروح البشرية وأصيلة فيه، فالتغلب على الجسد يعني إعلاء مكانة الروح، لتمزق الحجب، وترفع الظلمة، ليظهر النور الأعلى.

وقد يجعلون من إلهامات القلب وكشوفات الروح علما أساسيا ما يدعى بعلم الباطن.

وبجانب المجاهـدة قد يصل الواصل إما عن طـريق العلم والعرفان الذي منـه يبدأ، فيصل من طريق الشهـادة إلى الغيب. وإما أن يتجلى لـه الحق عن طريق الجذب الإلاهي، فيبـدأ من الغيب ثم ينكشف له عالم الشهادة.

فالكـرامات عنـد الصوفيين شيء طبيعي، فهي منح إلاهية، قـد منحها اللـه لعباده، وهي من خرق العـادات التي لم يتعودها الكل، وهي ليست مـوقوفة على الأنبيـاء والرسل فقط. فأهل الكهف الذين مكثوا ثـلاثمائة وازداد واتسعا لم يكونوا أنبياء، ومـريم حين جاءها المخاض وخـاطبها عز وجل «وهزي إليك بجذع النخلـة تساقط عليك رطبا جنيا» فهي لم تكن في زمرة الأنبيـاء، وآصف بن برخيا الذي أحضر لسليمان عليه السلام عرش بلقيس في طرفة عين من مسافة بعيدة لم يكن نبيا . . . إلى غير ذلك من الكرامـات وخرق العادات. والكـرامات عنـد الصوفية لم تكن منتهى ذروة المقـامات، وإنما يختص بها بعضهم لمزية خـاصة أو لاختبار. قال الجنيد : مشى رجل على الماء ومـات بالعطش أفضل منهم.

وعالم المثال عند الصوفية هو عالم وسط بين عالمي الأجساد والأرواح، وقد يطلقون عليه أيضا عالم الخيال، بدليل قولـه تعالى «فتمثل لها بشرا سويا»، وقد تمثل جبريل حينما كان يهبط بـالوحي للرسول صلى اللـه عليه وسلم في عـدة صور، مـرة بشكل بدوي ومـرة في صورة دحيـة الكلبي إلى غير ذلك. والجن أيضا تتمثل في صور بشتى الأحجام والألوان والأوزان.

أما الإنسان التقي النقي الطاهر وهو أفضل المخلوقات ــ إذا وصل إلى درجة من الإيمان والتعبد والطاعة والفناء في ذات الله عز وجل، عظمت روحه عظمة تتيح لها أن تهيمن على جسدها هيمنة تامة، حيث تحيله إلى ما تريد من صور وألوان.

فالروح لها تفوقها وسيادتها على البدن، فهي لا ريب تؤثر في الجسد تأثيرا كاملا، وكلما زادت قوتها زاد أثرها وسلطانها، وكمثال بسيط على ذلك، فإن الإنسان إذا حزن أو خاف أو غضب ـ وهي أشياء روحية ـ تأثر الجسد بذلك أيما تأثر، فيصاب بنحولة وضعف، وهذا ما يقرب الفكرة في تصورها
أما عن الحفظة الكرام فقد قال فيهم عز وجل.

«وهو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة».

والحفظة هم ملائكة كرام يكتبون أعمالنا، ويدونونها سواء كانت خيرا أم شرا، والحكمة في ذلك أن المكلف تكتب أعماله لتعرض على رؤوس الأشهاد كي تكون زجرا عن المعاصي، ولكي يتق العبد بلطف سيده، واعتماده على عفوه وستره. وقد ورد في الخبر أن على كل واحد منا ملكين بالليل وملكين بالنهار، واحد يكتب الحسنات، والثاني يكتب السيئات، والذي في اليمين أمير على الذي في اليسار، فإذا هم الإنسان بحسنة كتبها له بعشر، وإذا هم بسيئة وأراد أن يكتبها صاحب الشمال منعه صاحب اليمين بضع ساعات، فإن استغفر ربه وتاب إليه لم تكتب عليه، وإن لم يستغفر كتبت عليه واحدة. وهذه الملائكة تعرف الباطن مثلما تعرف الظاهر، لأن الحفظة تنتسخ من السفرة ـ وهم من الخزنة التي وكلت باللوح ـ وقد كتب في هذا اللوح أحوال العوالم كلها ظاهرا وباطنا. فبعد وقوفهم على ذلك يكتبون ثانيا من أول اليوم إلى آخره، ومن أول الليل إلى آخره حسبما يصدر عن الإنسان. وقيل إذا فاح من فيه ريح نتن يعلمون أنه هم بسيئة.

وقيل أن هذه الملائكة تجلس عند فم الإنسان. وليس بغريب أن توكل بالعبد ملائكة أخرى تحفظه من الأذى كما جاء في الروايات.

نسأل الله أن يوفقنا للصالحات، ويبعدنا عن كل الطالحات، ويقينا شر المكروهات.

فتـــن إبليـــس

آيــات قرآنيـــة

قـــال تعـــالى :

ـ «إذ قـال ربك للمـلائكة إني خـالق بشرا من طين، فإذا سـويتـه ونفخت فيه مـن روحي فقعوا لـه ساجـدين ، فسجد الملائكـة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكـان من الكافـرين ، قال يـا إبليس ما منعك أن تسجـد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العـالين ، قال أنـا خير منه خلقتني من نـار وخلقتنه من طين ، قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ، قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون ، قـال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعـزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين» .

ـ «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ، وإذ قلنـا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يـا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فـلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعـرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، فـوسوس إليـه الشيطان ، قال يـاآدم هل أدلك على الخلد وملك لا يبلى ، فأكـلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفـان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهـدى ، قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني هـدى ، فمن اتبع هـداي فـلا يضل ولا يشقى ، ومن أعـرض عن ذكري فإن لـه معيشـة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلـك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يـؤمن بآيات ربه ، ولعـذاب الآخرة أشد وأبقى» .

ـ «يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنـة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون» .

ـ «ألم أعهد إليكم يـا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطـان إنـه لكم عـدو مبين وأن اعبدوني ، هـذا صراط مستقيم» .

ـ «يأأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا، ولكن الله يزكي من يشاء، والله سميع عليم».

ـ «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها، وذلك جزاء الظالمين».

ـ «وإما ينزعك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه سميع عليم، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون».

ـ «فإذا قرأت القرءان فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون».

ومن الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم.

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن عفريتا من الجن تفلّت البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم. فذكرت دعوة أخي سليمان: رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي. فرددته خاسئا. رواه الشيخان.

ـ عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم. رواه مسلم.

ـ عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول: ما صنعت شيئا، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال: فيدنيه ويقول: نِعْم أنت. رواه مسلم.

ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبي صلى الله عليه وسلم من عندي ليلا فغرت عليه، فجاء فرآى ما أصنع، فقال: مالك ياعائشة، أغرت؟ قلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك. فقال: أقد جاءك شيطانك؟ قالت: يارسول الله أو معي شيطان؟ قال: نعم. قلت: ومع كل إنسان؟ قال نعم. قلت: ومعك يارسول الله؟ قال: نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم. رواه مسلم.

ـ عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مامنكم من أحد إلا وقد وكل الله به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يارسول الله؟ قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير. رواه مسلم. بعد هذا التقديم البياني من كتاب الله عز وجل وأحاديث نبيه المختار صلى الله عليه وسلم من فتن إبليس لعنه الله، نزيد الموضوع أيضاحا، حيث نبين أن الإنسان

لما خلق جعلت فيه الشهوة والهوى والغضب، للجلب والدفع، وأعطي العقل كمؤدب بين الجلب والدفع، فكان الشيطان محرضا عليهما بكل إسراف.

فالعاقل يأخذ حذره من هذا العدو الذي كشف عن عدواته جهرا، فجعل حياته وقفا على فساد حياة الإنسان وحاله، والله تبارك وتعالى حذرنا منه غير ما مرة في كتابه المبين، وبين لنا غروره وكبرياءه بعدما اشتبه عليه الأمر، فأعرض عن السجود، وأخذ يفاضل نفسه قائلا : خلقتني من نار وخلقته من طين، ويعترض قائلا : لم كرمته علي حتى قال أنا خير منه، فامتنع عن السجود، فأهان نفسه وأخذ اللعنة والعتاب والعقاب. ومن ذلك المنطلق صار عدوا لبني الإنسان، يدخل بينهم ويزيد من تمكنه على قدر الغفلة والجهل.

والقلب من الإنسان كالحصن، وعلى الحصن سور، وللسور أبواب فيه غرف، تتردد على الحصن الملائكة، وساكنه العقل، وإلى جانب الحصن ربض، أي مكان تأوي إليه الشياطين، والحرب قائم بين أهل الحصن وبين أهل الربض الذي تأويه الشياطين، فهي لا تزال تدور حول الحصن تنشد غفلة الحراس للعبور من أبوابه، فينبغي أن لا يفتر عن الحراسة لحظة، وهذا الحصن تنير بيوته بالإيمان والذكر، وفيه مرآة صقيلة تترآى فيها صور ما يمر به، فتجد الشيطان أول ما يفعل في ربضه، أن يكثر الدخان لتسود جدران الحصن، وتصدأ المرآة، لكن كمال العقل يرد الدخان، والإيمان والذكر يجلو المرآة لتبقى مصقولة، فيبقى العدو يشن حملاته، فإن دخل أفسد واسودت حيطان الحصن وصدأت المرآة، وربما أصبح فيه فقيه الشر. قيل لأحدهم كان يكلم الجن، قالوا ليس علينا ممن يتبع السنة، وأما أصحاب الأهواء فإنا نلعب بهم لعبا. والشيطان يلعب بالأغنياء والأذكياء على السواء، كل على شاكلته، فكم من ذكي يلعب بذكائه بين النظريات والمذاهب في شتى النحل والملل، يوحي لهم زخرف القول وبنات الأفكار التائهة، فهذا مذهب السوفسطائية والدهرية والطبيعيين والثنوية، وذاك مذهب الفلاسفة وأصحاب الهياكل والكواكب والأصنام إلى غير ذلك.

وقد دخل أيضا لعقيدتنا من طريقين، أحدهما التقليد، وثانيهما فيما لا يدرك غوره، ويعجز الخائض عن الوصول إليه.

فالتقليد نجد إبليس قد زين لهم صوابهم المبني عن جهل، وجعلهم يعتقدون أن الأدلة تتشابه، فاليهود والنصارى قلدوا فضلوا وأضلوا، ونحن أيضا قلدنا عادات ما أنزل الله بها من سلطان، فسار في هذا الضلال خلق كثير. وأما الذي لا يدرك غوره، فإن إبليس أدرك أن هناك خلقا فيهم الفطنة والذكاء، عكس أصحاب التقليد، فأغواهم حسب تمكنه منهم، فأوحى لبعضهم أن الوقوف على ظواهر الشرائع عجز، فساقهم إلى المذاهب، فلم يزل بهم حتى أخرجهم عن الإسلام، ومنهم من استهواه إلى الخوض في علم الكلام والنظر إلى الفلاسفة ليخرج بزعمه عن غمرة العوام، فأفضى بهم الحال إلى الشك أو الشرك.

والشيطان دخل أيضا قلوب الفقهاء، فزين لهم مخالطة الملوك ومداهنتهم، فسكتوا عن أشياء أو أنكروا، وربما رخصوا مالا رخصة له لينالوا درهما، وربما استغل الظروف فتحرك فيه العجب والكبر.

وقـد أرسل الشيطان حبلـه على الـوعاظ، فـاستغل بعضهـم مـركزه بين النـاس، وزاد ونقص في الشرح والتأويل، وأصبح في زمرة من قـال فيهم صلى الله عليه وسلم « من كذب علي متعمـدا فليتبوأ مقعده من النـار»، وقد يـدفع البعض منهم إلى السكوت والامتناع والانقطـاع، والمقصود بـذلك سد باب الخير على الناس. وهنـاك علماء حصلوا على علوم شرعية من القـرآن والحديث والفقه والأدب إلى غير ذلك فأتاهـم يستفزهم بما يقابل ذلك من إغراءات، فحسن لهم اللذات مقابل تعبهـم، وزين لهم الزلات حتى أهلكـوا بالذات الفانيـة. واندرجوا تحت الحديث « أشد النـاس عذابا يوم القيـامة عالم لم ينفعه اللـه بعلمه». أمـا أصحاب الزعـامة والـرئاسة من ملوك ورؤسـاء وولات، فقد أخـذ الشيطان سمعهـم وأبصارهم، فغرر بعضهـم بزينة الحياة والجاه ونفوذ السلطة فصموا وعموا وتسلطوا على الرقاب فحل عليهم قول الله عز وجل «إنما نملي لهم ليزدادوا إثما».

ولم يترك إبليس الزهاد والعباد، فقد يسمع العامي ذم الدنيا في القرآن والأحاديث فيرى أن النجاة تركها من غير أن يدري مـا الدنيا المذمومة، فينزوي إلى رأس الجبل مبتعـدا عن صلاة الجمعة والجماعة والعلم وأهله، فيصير كـالوحش وفي وهمه أنه سيصبح يومـا كفلان وفلان غير هياب بعـائلته وولده، وربما لم يعرف من أركـان الصلاة إلا النزر القليل، فالشيطـان تمكن منه لقلة علمه وجهلـه، وقد قال بعض السلف: خرجنا إلى جبل نتعبد فجـاءنا سفيان الثوري فردنا. وقد قال مـالك بن دينار: قولوا لمن لم يكن صادقا لا يتعب.

ومن الزهـاد من يرى عملـه فيعجبه، حتى لـو قيل له أنت من الأوتاد أعجبـه ذلك، ومنهم من يترصد لأجل ظهـور كرامة، فإذا عـرض له أمر ودعا لم يستجب لـه تذمر وانقلب على عقبيـه، فكأنه أجير يطلب أجر عمله.

وعلى كل حال، فإن كيـد الشيطان لا يمكن عـده أو حصره في هذا البـاب أو غيره، وإنما لمحنا لـذلك في إيجاز، فكيف يمكن عده أو حصره وهـو يجري في الإنسـان مجرى الدم، غير أننـا نؤكـد أن الوقاية منه تكمن في قوة الإيمان بالله عز وجل، هذا الإيمان الذي يشع نوره من خلال كتاب الله وسنة رسول الهدى ودين الحق، محمد صلى الله عليه وسلم.

آدم وتكريمه

قال تعالى «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال : إني أعلم ما لا تعلمون» .

انطلاقا من هذا الحوار بين الملائكة ورب الملائكة والأكوان، بدأت قصة خلق آدم، فالله تبارك وتعالى يخبر الملائكة بأنه سيجعل خليفة في هذه الأرض وهو آدم وذريته، وأنه سبحانه وتعالى سيمكنهم فيها ويجعلهم أصحاب سلطان . أما الملائكة فإنها تتعجب لهذا النبأ، متسائلة عما يؤول إليه خلق هذا البشر الذي لم يستطع أن يقيم ملكوتا يساوي ملكوت السماء، فتطرح الرأي قائلة «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك»، وبهذا القول جعلوا أنفسهم أفضل من هذا المخلوق الذي سيجعله الله خليفة، ولكن الله عز وجل أجابهم - وهو يعلم السر وأخفى - بأن خلق آدم فيه حكمة، وأنه يعلم مالا يعلمون .

وخلق الله آدم عليه السلام، وعلمه الأسماء وحقائقها وخواصها ليتمكن في الأرض وأراد سبحانه وتعالى أن ترى الملائكة رأي العين أن هذا البشر الجديد هو أكثر منهم علما ومعرفة، فسألهم سبحانه عن أسماء فلم يستطيعوا الإجابة، ويدعو سبحانه آدم ويسأله بما سأل الملائكة، فيجيبهم ويكون لهم بمثابة المعلم، وهنا تعتذر الملائكة في خشوع، فيصدق عليها قول الله عز وجل «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» . والمراد بالأسماء التي علمها الله لآدم هي المسميات ــ الأشياء من غير تحديد ــ فالله سبحانه خلق في الإنسان بموجب استعداده علما ضروريا بحقائق الأشياء وسنن الله التي تحكمها .

وخلق الله آدم من طين كما جاء في القرآن

«وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين» .

«ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون»

«خلق الإنسان من صلصال كالفخار» .

وسواه سبحانه وتعالى من الطين على هيئة إنسان ، ثم نفخ فيه من روحه ، فإذا هو إنسان من لحم وعظم وعصب ، يتحرك بإرادة الخالق الرزاق ويفكر .

فأمر سبحانه ملائكته بتكريم آدم بأن يسجدوا له سجود التكريم ، قال تعالى «وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» . وقد نستخلص من الآية الكريمة أن الله خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر ملائكته بالسجود إليه تكريما واحتراما له . وقد سجدت الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، فسأله سبحانه ـ وهو أعلم به ـ عن امتناعه ، فاحتج بأنه أفضل منه تكوينا ، حيث خلقه سبحانه من نار وخلق آدم من طين ، والنار في رأيه أفضل من الطين ، فكان جزاؤه أن طرد من الجنة وأخذ اللعنة إلى يوم الدين . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى «فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين» .

وطلب إبليس من ربه أن يمهله حيا إلى يوم الدين ، فأجابه الله طلبه ـ لحكمة يعلمها سبحانه ـ فعلل إبليس طلبه هذا بأنه سيسعى جاهدا في تضليل بني آدم وإصرافهم عن الطريق المستقيم ، فيدخلهم من باب الغفلة والضعف إلى إغوائهم ، وقد لعنه الله ونهره وأخرجه من الجنة مذموما مدحورا . وأقسم عز وجل بإدخاله جهنم هو ومن اتبعه . وهذا واضح في قوله عز جلاله «فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ، قال أنظرني إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين ، فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ، قال أخرج منها مذموما مدحورا ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين» .

وكلام الله يصور لنا عزم الشيطان على غواية بني آدم إلا عباد الله المخلصين في قوله تعالى «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلا إبليس قال آسجد لمن خلقت طينا ، قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤهم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا» .

وقد حل آدم الجنة مع زوجته ، هذه الزوجة التي قيل فيها أن الله أخذ ضلعا من الشق الأيسر لآدم بعدما أغرقه في النوم ، وخلق حواء منه ، فحين استيقظ وجد حواء عند رأسه قاعدة ، فلما [illegible] قالت : أنا امرأة خلقت لتسكن إلي . وإلى ذلك يشير القرآن «الذي خلقكم من نفس [illegible] منها زوجها» ، وفي آية أخرى «وجعل منها زوجها ليسكن إليها» .

وما أن حل آدم وزوجه الجنة حتى أغدق الله عليهما من ثمر الجنة، ولم ينههما إلا عن شجرة واحدة، أمرهما أن لا يقرباها، وإن أكلا منها تعرضا لعقوبة.

فوجد إبليس من ذلك منفذا ومدخلا، فأخذ يحثهما ويغريهما للأكل من تلك الشجرة بكل وسائله وكيده ومكره، فأوهمهما أن الأكل من الشجرة تجعلهما من صنف الملائكة والخلود في الجنة. وهذا ما نستخلصه من الآية الكريمة «وياآدم اسكن أنت وزجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما، وقال لهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما من الناصحين».

ونسي آدم وحواء أن إبليس عدوا لهما، فأكلا من الشجرة فانكشفت لهما عورتهما، ومن فرط حياتهما أخذا يجمعان بعض أوراق الشجر لستر عورتهما، وكانا قبل ذلك لا يرى كل منهما عورته ولا عورة الآخر، وناداهما ربهما معاتبا إياهما، فشعر آدم وحواء بمبلغ الخطيئة، فندما وتضرعا إلى الله عز وجل، وفي ذلك يقول سبحانه «فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».

وتقبل الله دعاء آدم وعفا عنه «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم»، ولكن الله أنزلهما من الجنة إلى الأرض، وأخبرهما أنه سيكون لذريتهما عداوة مع الشيطان على هذه البسيطة إلى وقت معلوم، قال تعالى «اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون» وفي آية أخرى «قال اهبطا منها جميعا، بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى».

الـــدنيـــــا

الآيات الواردة في القليل من أهمية الدنيا كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد» وقوله تعالى «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنـاطير المقنطرة من الـذهب والفضة والخيل المسـومة والأنعـام والحرث . ذلك متاع الحاة الدنيـا» ، وقال تعالى اخسئـوا فيها ولا تكلمون ، أولئـك الذن اشتروا الحياة الـدنيا بالآخـرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون» وقال صلى اللـه عليه وسلـم حينما مر على شاة ميتـة «أترون هذه الشاة هينة على أهلهـا ؟ قالوا ، من هوانها ألقوهـا . قال : والذي نفسي بيده للدنيـا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولـو كانت الدنيا تعدل عند اللـه جناح بعوضة ما سقى كافـرا منها شربة ماء» وقال أيضا «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ، وقال أيضا «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها» وزاد ابن باجة «إلا ذكر الله وما والاه وعـالم ومتعلم» ، وقال أيضا «من أحب ديناه أضر بآخرته ، ومن أحب آخـرته أضر بـدنيـاه ، فآثـروا مـا يبقى على ما يفنى» ؛ وقـال أيضـا «حب الدنيـا رأس كل خطيئة» ، وقال عيسى عليه السلام «ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها ، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهـوة ساعة أورثت أهلها حزنـا طويلا» ، وقال أيضـا «الدنيا طالبة ومطلـوبة ، فطالب الآخرة تطلبـه الدنيـا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطـالب الدنيـا تطلبه الآخـرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقـه» ، وروي أن سليمان بن داود علهما السلام مـر في موكبـه والطير تظله والجن والإنس عن يمينـه وشماله ، فمر بعابد من بني إسرائيل سمعه يقول : والله ياابن داود لقد أتاك الله ملكا عظيما . فأجابه «لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن دواد ، فإن ما أعطي ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى» . وقال صلى الله عليه وسلـم «ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصـدقت فأبقيت» ، وقال أيضا «الـدنيا دار من لا دار لـه ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له» .

إن هذه الدنيا يعادي من أجلها الإنسان ، ويسعى نحوها متلهفا من غير علم ، فأصبحت أكبر همه ، فهمه لا ينقطع ، وشغله لا ينتهي ، وفقره فيها لا يبلغ غناه ، وأمله فيها ليس له نهاية .

قال داود بن هـلال : مكتوب في صحف إبـراهيم عليه السـلام . يا دنيـا ما أهـونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم ، إني قذفت في قلـوبهم بغضك ، والصدود عنك ، وما خلقت خلقا أهون

لِي منك ، كل شأنك صغير وإلى الفنـاء يصير، قضيت عليك يـوم خلقتك أن لا تـدومي لأحـد ولا ‍يدوم لك أحـد ، إن بخل بك صاحبك وشح عليك ، طوبى لـلأبرار الذين أطلعـوني من قلوبهم على ‍الرضـا ، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامـة ، طوبى لهم مالهم عنـدي من الجزاء إذا وفدوا إلي من ‍قبورهم إلا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي .

وقيل أن آدم لما أكل من الشجرة الملعـونة تحرك بطنه لخروج الثفل ، ولم يكن ذلك مجعـولا في باقي أطعمة الجنة ، فأخذ يدور بين أيكها ، فأمر الله ملكا يخاطبه في ذلك ، فسأل آدم ، فأجابه بأن يضع ما في بطنه ، فسأله الملك أين يضع ذلك ، وبعد جولة اختار له النزول إلى الدنيا .

وقال صلى الله عليه وسلم في إحدى خطبه «المؤمن بين مخافتين ، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قـد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ؟ فليتـزود العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخـرته ، ومن حيـاته لموتـه ، ومن شبابـه لهرمه ، فإن الـدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم لـلآخرة ، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الـدنيا من دار إلا الجنة أو النار» . وقال عيسى عليه السلام «لا يستقيم حب الـدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنـار في إناء واحد» . وقيل أن جبريل سأل نوحا عليهما السلام : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لها بابـان ، دخلت من أحدهما وخرجت مـن الآخر . ويروى أن عيسى عليـه السلام اشتد عليـه المطر والرعـد والبرق يوما ، فجعل شيئا يلجأ إليـه فوقعت عينه على خيمـة من بعيد ، فأتاها فإذا فيهـا امرأة فحاد عنها ، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال : إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى ، فأوحى الله إليه : مأواك في مستقر رحمتي ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حور خلقتها بيدي ، ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام ، يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن مناديا ينادي أين الزهاد في الدنيا ، زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى بن مريم .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح ، فجاء بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيـدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول اللـه صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ، ثم قال «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء» قالوا أجل يـارسول الله . قال «فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فـوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسـط عليكم الـدنيـا كما بسطت على مـن كـان قبلكم فتتنـا فسـوهـا كما تنافسـوها ، فتهلككم كما أهلكتهم» ، وفي حديث آخـر «إن أكثر ما أخاف عليكم مـا يخرج الله لكم من بركـات الأرض» فقيل ما بركات الأرض ؟ قـال «زهرة الدنيـا» . وقيل عن عمار بن سعيد أن عيسى عليه السلام مر بقرية فإذا أهلها موتـى في الأفنية والطرق ، فقال : يا معشر الحواريين ، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ، فقـالوا : ياروح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم ، فسأل الله تعـالى فأوحى إليه إذا كـان الليل فنادهم يجيبـوك ، فلما كان الليل أشرف على نشر . ثم نـادى : يا أهل القريـة ، فأجابه مجيب لبيك يا روح اللـه ! فقال : ماحـالكم وما قصتكم ؟ قال : بتنا في عـافية وأصبحنا في الهاويـة ، قال : وكيف ذاك . قال : بحبنا الـدنيا وطاعتنا أهل المعـاصي . قال : وكيف

كان حبكم للدنيا ؟ قال : حب الصبي لأمه، إذا أقبلت فرحنا بها، وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها، قال : فما بال أصحابك لم يجيبوني ؟ قال : لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد، قال : فكيف أجبتني أنت من بينهم ؟ قال : لأني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدري أأنجو منها أم أكبكب فيها ؟ فقال المسيح للحواريين : لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عاقبة الدنيا والآخرة. ومر موسى عليه السلام برجل يبكي ورجع وهو يبكي، فقال موسى : يارب إن عبدك يبكي من مخالفتك. فقال : ياابن عمران لو سال دماغه مع دموعه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا، أولها، من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها. وقال الحسن : من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك دنياك فألقها في نحره.

وقال لقمان لابنه : يابني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عز وجل. لذلك تنجو وما أراك ناجيا.

وقال بعض الحكماء : إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغذاء يوم، فلا تهلك في أكله، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار.

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئا فيجيء في طلبه فيأخذك.

وقال ابن العباس : إن الله جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. وقال بعضهم : الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئا فليصبر على معاشرة الكلاب، وقيل إن الله لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم هبت لإبليس جنوده حائرين قائلين : لقد بعث نبي، وأخرجت أمة. فقال إبليس : هل يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم. قال : سأغدوا وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله من هذا نبع.

إن الدنيا ساحرة تسحر قلوب أهلها، وتجر بالعتاب من مانعها، فحلالها حساب، وحرامها عقاب، تحتل القلب منفردة. وتزاحم فيه الآخرة. قال لقمان لابنة : إبني، بع دنياك بآخرتك تربحها جميعا، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا. وقال الفضيل : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي حلالا لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.

وقال بشر : من سأل الله الدنيا فإنما سأله طول الوقوف بين يديه . وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحرات ثلاث . أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم إليه .

وقال الحسن : أهينوا الدنيا ، فوالله ماهي لأحد بأهنأ منها لمن هانها . وقال حكيم : الدنيا دار خراب ، وأخرب منها قلب من يعمرها ، والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها .

والشافعي رحمه الله يعظنا بقوله : ياأخي إن الدنيا دحض مزلة ، ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إعسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله وارض برزق الله ، لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك ، فإن عيشك فيء زائل ، وجدار مائل ، أكثر من عملك وأقصر من أملك . وقال يحيى بن معاذ الرازي : العقلاء ثلاثة ، من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه .

وقال أيضا : من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها حتى يصير رمادا ، ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به ، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد فصار جوهرا لا حد لقيمته .

إن من ركن إلى الدنيا زحزحته بزخرفها ، وفتنته بأمانيها ، فهي ناظرة إلى القلوب تتربصها ، وعاكفة على النفوس تتحيلها ، فكم من عاشق لها قتلته وأخذته وأغرقته بوائقها ، فليستيقظ عاشقها من غفلته ، ولينتبه من رقدته ، وليتذكر يوم يثقل لسانه ، ويزيغ بصره ، ويتعثر أنينه ، ويبكي إخوانه ، فيأتي أجله ، حينذاك ينظر إلى الدنيا أنها دار غرور ، وأن الآخرة هي دار القرار ، «من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد» . وخطب علي كرم الله وجهه خطبة نقتطف منها ما يلي : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقا وكأنهم قد قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه ، وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية ، وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا ، وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها ، فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها ، فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال ، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه . وقال أيضا في خطبة أخرى : اعلموا أنكم ميتون ومبعثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزون بها ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فإنها بالبلاء محفوفة ، وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة ، وكل ما فيها إلى زوال ، وهي بين أهلها دول وسجال لا تدوم أحوالها ، ولا يسلم من شرها نزالها ، بينا أهلها منها في رخاء وسرور ، إذا هم منها في بلاء وغرور ، وأحوال مختلفة وثارات منصرفة ، العيش فيها مذموم ، والرخاء فيها لا يدوم ، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ، ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها ، وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور . . . ! .

والدنيا أحوال ثلاثة :

حالة لم تكن فيها شيئا ، وهي ماقبل وجودك إلى الأزل .

وحالة تكون فيها مشاهدات للدنيا ، وهي ما بعد موتك إلى الأبد .

وحالة متوسطة بين الأبد والأزل ، وهي أيام حياتك في الدنيا .

فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد .

والدنيا سريعة الفناء ، قريبة الانقضاء ، تنظر إليها فتراها ساكتة مستقرة ، وهي سائرة سيرا عنيفا وسريعا ، ولكن الناظر إليها لا يحس بحركتها ، وإنما يحس عند انقضائها ، مثلها مثل ظل متحرك في الحقيقة ، ساكن في الظاهر ، لا تدركه الأبصار ، ولكن تدركه البصيرة .

وقال عيسى عليه السلام : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها .

والدنيا زينتها الأرض ، والأرض تجمع المعدن والنبات والحيوان .

فأما المعادن فيطلبها الإنسان للآلات والأواني والنقد كالذهب والفضة . . . إلى غير ذلك . وأما النبات فيطلبه الإنسان من أجل القوت والعلاج .

وأما الحيوان فينقسم إلى إنسان وحيوان .

فالحيوان يطلب لحمه للأكل وظهره للركوب والزينة .

وأما الإنسان فقد يستولي عليه الإنسان من أجل تسخيره من غلمان وجواري ونسوان ، أو ليغرس في نفسه التعظيم والإكرام والجاه وملك القلوب .

وهذه صفحات جمعها الله عز وجل في قوله «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين»

ــ وهذا من الإنس ــ «والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة» ـ وهذا من الجواهر والمعادن ـ «والخيل المسومة والأنعام» ـ وهي البهائم ـ «والحرث» ـ وهو النبات والزرع ـ .

وكل هذه الأشياء المرتبطة بالإنسان لها علاقة مع قلبه ، وهو حبه وحظه وصرف همته لذلك ، فإذا انصرف القلب إلى ذلك اندرج في طياته الكبر والغل والرياء والحسد والسمعة والمداهنة وسوء الظن والتكاثر والتفاخر ، وهذه أيضا هي الدنيا الباطنة ، وأما الظاهرة فهي ما ذكرنا . أو بعبارة أصح ، علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل .

فلو عرف الإنسان ربه ونفسه وعرف حكمة الدنيا وسرها ، لعلم أن الدنيا لم تخلق إلا لعلف البدن ، ليواصل مطافه إلى خالقه ، حينذاك يعرف المسار.

وخلاصة القول ، فإن مذاهب الناس في الدنيا كثيرة ، تزيد على السبعين ، كل ينشد ضالته فيها ، ومقتنع لها بمبدئه ، ويبقى الناجي من هذه الفرق واحد ، نعم فرقة السالكين سبل القدوة الأعظم .

سيد المرسلين، محمد صلى الله عليه وسلم، الذي لم يترك الدنيا كلية، وإنما أخذ منها زاده الضروري، ولم يترك الشهوات كلية، وإنما قمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولم يترك كل شيء للدنيا، ولم يطلب كل شيء منها، بل يعرف قصدها وقصد ما خلق على ظهرها فيحفظه لحد مقصوده، حيث يأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن والملبس ما يقيه البرد والحر، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله عز وجل بكل همته واشتغل بالذكر والفكر، وحافظ على الورع والتقوى، وسلك سبل الهدى، وجعل نصب عينيه قول الله عز وجل «وتزودوا. فإن خير الزاد التقوى»، وهو القائل صلى الله عليه وسلم «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة» قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

مناقشة العزلة

اختلفت الآراء في العزلة بين النابغين، فذهب بعضهم إلى تفضيلها، وذهب بعضهم إلى تفضيل المخالطة. ولنأت بأمثلة من ذلك.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خذوا بحظكم من العزلة. وقال ابن سيرين : العزلة عبادة. وقال الفضيل : كفى بالله محبا، وبالقرآن مؤنسا، وبالموت واعظا. وقيل عنه أيضا : اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا. وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، والعاشرة في عزلة الناس. وقال سفيان الثوري : هذا وقت السكوت وملازمة البيوت. وقال إبراهيم النخعي لرجل : تفقه ثم اعتزل. وقال رجل لسهل : أريد أن أصحبك [illegible] أحدنا فمن يصحب الآخرة ؟ قال : الله سبحانه. قال : فليصحبه الآن. و[illegible] الفضيل من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه.

تلكم أقاويل المنعزلين وآراؤهم.

غير أن الذين يفضلون الاختلاط يحتجون بحجج من القرآن أو بأحاديث نبوية. غير أن تلك الآيات أو الأحاديث لم يدركوا بعد معانيها.

فمثلا قوله تعالى «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا» أو قوله تعالى «فألف بين قلوبهم» فالمراد بالتفرق تفرق المذاهب والآراء في معاني الكتاب والسنة، والمراد بالألفة نزع ما في القلب من الأسباب المثيرة للفتن، أما العزلة لا تنافي ذلك. واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم «المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» وهذا الحديث لا علاقة له بمفهوم العزلة، إذ يشير إلى سوء الخلق الذي يمنع الألفة. واحتجوا أيضا بأقواله صلى الله عليه وسلم «من فارق الجماعة شبرا خلع ربقة الإسلام من عنقه» «من فارق الجماعة فمات، فميتته جاهلة» «من شق عصا المسلمين، والمسلمون في الإسلام دامج، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» كل هذه الأحاديث لا علاقة لها بالعزلة اشتغالا بالنفس وسلامة من الغير، وإنما المقصود منها الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام، فالخروج على ذلك بغي، نظرا لحاجة الجماعة إلى إمام مطاع يجمع الشمل والرأي، فمخالفة ذلك تشويش يبعث على الفتنة.

واحتجوا أيضا في نهيه صلى الله عليه وسلم عن الهجر كما جاء في أقواله «من هجر أخاه فوق ثلاث دخل النار» «لا يحل لامرىء مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، والسابق يدخل الجنة» «من هجر

أخاه سنة فهـو كسافك دمه» . فالمراد بـالأحاديث إشارة إلى الغضب واللجاج مما يتسبب قطع الكلام والسلام والعشرة لتـدبر نفسه ومجاهـدته لها حتى يتمكن من إصـلاحها . والهجر إذا كـان محمولا على الإصلاح فـلا بأس بذلك . كما ورد عن عائشـة رضي الله عنها «أن النبي صلى الله عليـه وسلم هجر زينب ذا الحجة والمحـرم وبعض صفر. وكما روي أيضا عـن عمر رضي الله عنـه . أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتزل نسـاءه وآلى منهن شهرا وصعد إلى غرفـة له وهي خزانته فلبث تسعـا وعشرين يوما ، فلما نـزل قيل له : إنك كنت فيهـا تسعا وعشرين ، فقـال «الشهر قـد يكون تسعـا وعشرين» . ولكي نوضح الموضوع أكثر، فإن العزلة التي أركز عليها ـ والتي هي بيت القصيد ـ ما تكون حافزة نحو صفاء النفس من كـدورتها ، فتكـون من أجل تحصيل الطـاعـات في الخلـوة والمواظبة على العبـادة الخالصـة الحاضرة والفكـر ودراسة العلم والتخلص من ارتكـاب ما نُهي عنـه بحكم المخالطـة السيئة من ريـاء وغـيبة ومنكر، والتأثر بأخلاق رديئة وخبيثة من جلساء السوء إلى غير ذلك . ولمثل هذه العزلة تكون لها فـوائد عديـدة . منها الاستئنـاس بمناجـاة اللـه عز وجل واستكشـاف الأسرار في أمر الـدنيا والآخـرة وملكوت السموات . كل هذا يستدعي بـالطبع عزلة باعتبارها الوسيلة للـوصول ، وقد كان صلى الله عليه وسلم قبل بدء الرسالة يتبتَّل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوة وتمكن ، فأصبح بدنه للخلق وقلبه للخـالق . قيل للجنيد : أنا أكلم الله منذ ثـلاثين سنة والناس يظنون أني أكلمهم . فمثل هـذا القول استغـراق في حب اللـه لم يبق لغيره متسع ، وقـد ثبت أن بعض الصوفيين يخالطـون الناس ببدنهم وهـم لا يدرون ما يقولـون ولا ما يقال عنهم لفرط عشقهم وحبهم لله عز وجل . وأعظم العقلاء المشتغلين بالآخرة يرون العزلة هي أفضل حافز للاستعانة عليها . قيل لبعض الحكماء : إلى أي شيء أفضى بك الزهد والخلوة ؟ قال : إلى الأنس بالله .

والحق أن هذا النوع من العـزلة في الواقع ليست عزلـة ، فالحكيم أنيس وجليس المولى عز وجل ، فإن شاء أن ينـاجيه المولى قرأ القـرآن ، وإن شاء أن ينـاجي مولاه صلى وذكر. وقـال ذو النون المصري : سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه . وقال ما لك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه ، وضيع عمره .

وفائدة أخـرى في العزلـة ، وهي الإبتعاد عن المعاصي التي يتعـرض لها الإنسان غالبـا بالمخـالطة والمعاشرة كالغسة والنميمة والرياء إلى غير ذلك.

ثم الـ[illegible] من الفتن والخصـومـات وصيانـة الديـن والنفس من شرور الناس ، لأن الإختـلاط والمشاركة في [illegible] تبعث على الحسد والعداوة وسوء الظن ونصب المكيدة والدسيسة والغائلة ، وقيل معاشرة [illegible] تورث سوء الظن بالأبرار، وقيل عن عمر بـن الخطاب : العزلة راحة من قرين السوء ، وقال أبو [illegible]رداء : كان الناس ورقا لاشوك فيه ، والناس اليوم شوك لاورق فيه. وقال أيضا : اتقوا الله واحذروا النـاس ، فإنهم ماركبـو اظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهـر جواد إلا عقـروه ، ولاقلب مؤمن إلا خربوه.

بجانب هذا وذاك، فإن العزلة أيضا تقطع طمع الناس فيك وتقطع طعمك فيهم، وتخلصك من الثقلاء والخبثاء والحمقى وأخلاقهم.

رغم أننا بينـا فوائد العزلة ومـاقيل عنها من مدح، فإننا نـؤكد آفتها إذا لم تفهم على الوجـه الذي أردناه لها، مع العلم أن للمخالطة قيمة وفوائد إذا كانت على الوجه المطلوب الذي نريده منها كالتعليم والتعلم والنفع والإنتفـاع والتأديب والاستئنـاس والإينـاس ونيل الثواب وإنـالتـه في القيـام بالحقـوق والتواضع والإستفادة من التجارب ومشاهدة الأحوال والإعتبار بها....إلى غير ذلك.

فالذي يرى الاقتدار من نفسـه هضم العلوم الشرعية وماوالها. فالعزلـة له خسران مبين، وفي مثل هذا يقول النخمي وغيره: تفقه ثم اعتزل. وليس كمن يعيش معتزلا في برج أوهامـه وخواطره الفاسدة فيكون في أكثـر أحوالـه أضحوكة الشيطـان في الوقت الـذي يعتقد أنه من العبـاد، فلا خير في عـزلة ينقصها العلم ولاخير في عـزلة الجهال ــ أي من لا يحسن العبادة في الخلوة ولا يعـرف ما يلزمـه فيها، ولاعذر لعالم مقترب إلى الله بعلمه، فمن أكبر الكبائر الاعتزال وكتمان علمه على الناس.

والانتفاع بالناس من أجل الكسب والمعاملة لا يأتي إلا بالمخالطة. زيادة على التأديب والمجاهدة للنفس عن طريق تحمل أذى الناس.

إن النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب، فمن نمكن من ذلك في حدود الشرع فهو أفضل من عزلته المصحوبة بالنوافل إلا من وصل الفتح الأكبر، فـذلك شيء آخر لاطاقة لي بالحديث عنه خشية وخشوعا.

وهناك حالات لايمكن تجاوزهـا عند أصحاب العزلة، كحضور الجنـائز وعيادة المرضى وحضور العيدين وصلاة الجمعة وحضور صلاة الجماعة. كل هذا لايمكن تجاوزه إلا لضرورة.

وإن تجارب الإنسان لاتستفاد إلا بالمحافظة، فالعقل الغريزي غير كاف ليتفهم مصالحهُ الدينية والدنيوية إلا بالممارسة والتجربة والإحتكاك، فلا خير في عزلة غير محنكة بتجارب.

والســالك لطريقـة الله مـاجـرب نفسه بنفســه، فإن استشعـر كبرا أورياء أو فســادا أو نفاقـا أو احتيالا... إلى ذلك سعى في إماطة بوائقة دفعة أو تدريجيا حتى يفطم نفسه بنفسه ويقيها الغوائل وكيد الشيطان.

وخلاصة القول، فأنت الآن مخير بين العزلة أو المخالطـة، فلا يمكن أن ندفعك لواحدة أكثر مما تـدفع نفسك على ضـوء تجربتك، فذلك يختلف بـاختـلاف الأحـوال والملاحظة، والحق لايكـون إلا واحدا، والحق يكشف الحقيقة، والحقيقةإن أشرقت كشفت الغطاء ورفعت الحجاب.

وإن كان يطـول النظر في باب المخالطـة، فإننا نحدد في نفس الوقت آداب العـزلة، إذ ينبغي أن ينوي المرء بعـزلته كف شر نفســه عن الناس مع الســلامة من شرهم، والخلاص من آفـة القصور عن القيام بحقوقه الواجبة نحوهم، مع التجرد بهمته لعبادة الله عز وجل، ثم في خلوته يواظب على العلم والعمل والـذكر والفكر، ويكف عـن أخبار الناس أو الإصغـاء إليهم حتى لايشوش ذلـك على ذكره

وفكره وصلاتـه، وأن يقنع بما آتاه الله من فضلـه في معاشه، وأن يصبر على ما يلقاه من أذى الجيران والخلان، وأن يسد سمعه على ما يقـال فيه من ثناء أو قـدح، وأن يسير مواظبا نحـو العلي الأعلى مرة بالذكر مع حضور القلب ومرة بالفكر في جلاله وعظمته وصفاته وأفعاله وملكوته.

وعلى أي حال، فإن العزلة والخلوة تعني المجاهدة، وفيها قال صلى الله عليه وسلم «المجاهد من جاهد نفسه»، وكل متجـرد لله في جهاد نفسه فهوشهيد، وفي ذلك يقـول عز وجل «ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء، عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله»

القضـاء والقـدر

مشكلة القضـاء والقدر بين أخذ ورد، لم يتوصل العلماء والفـلاسفة حتى عصرنا هـذا إلى إظهار صورة واضحـة، فهـم لازالوا يخوضـون بين الرأي والرد المعـاكس، وبين الكتب السماوية المنـزلة، فهم لازالوا لحد الآن بين الجدل والتخمين والاستنتاج الذي قل أن يفك الرموز والإشارة الخفية التي مازادت الموضوع إلا تعقيدا واستفسارا وتساؤلا، مما أدى إلى تضارب الأفكار وتنويع وتعقيد الدراسات.

فالقـدر الذي يعني تقـدير الخالق المبـدع الذي أوجـد كل الموجودات على الصورة التي أرادها سبحانه وتعالى. جعل في إبداعاته مـوجودات مرتبة ومنظمة في أماكنهـا ومركبة بشكل دقيق متناهي في الدقة لا يمكـن لأولها أن يكون آخرها ولآخرهـا أن يكون لأولها، كما قال تعالى « إنـا كل شيء خلقناه بقدر» «وإن من شيء إلا عنـدنا خـزائنه، وماننـزله إلا بقـدر معلوم» «ولكن ينزل بقـدر ما يشـاء، إنه بعباده خبير بصير» « سنه الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا». وهذا يعني أن كل الموجـودات العلويـة أو السفلية وضعت في المكـان الواجب وضعـه. بينما القضاء مـاأوجبته الحكمـة الإبداعية من العناية بـالموجودات من تقدير الاستطاعة الموجودة فيها عمـلا بقوله تعالى «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» لأن ذلك جعلـه في فطرتهم وقواهم، وبمجرد الخروج عن هـذا الحد الذي ليس في أصل الطباع يذوق العذاب نتيجة الانحراف وما هو مجبول عليه في أصل الفطرة.

ومن هنا يمكـن أن نقول أن القضاء هـو ماقضـاه الله سبحـانه وتعـالى في سابق علمـه، لأنه لا يكلف خلقه إلا ما يجعله في وسعـه وطاقته، تمشيا مع قوله عـز وجل «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» فمجـرد أن يتكلف الإنسان أكثـر مافي طبعـه وما نهاه اللـه عنه عـذبه، لأنـه ضرب بقضائه وحكمـه وانحرف عن وصيته المنصوص عنها في القرآن الكريـم كما ذكرنا، لكن العبد إذا عبد وأطاع أخذ الخير والرضا بحكم أنه مجبول على الخير، والخير يـؤت النفس خيرا، ولا يمنح الخير ولا يجود إلا بالجود كونه قضاءالحق. فالعبد حينما يتمرد، ينحرف في إيمانه لغير الله يخرج بطبيعة الحال عن قضائه فيعذبه ليرده إلى خيره الذي يوصله إلى كرامته.

ومن هنـا يمكننا أن نعتبر المعصيـة خـروجا عن قضـاء الله سبحـانـه وتعالى تستـوجب السخط والعقوبـة، وقد نعلم أن الشر لا أصل له في الإبداع من جهـة المبدع سبحانه وتعـالى، كما أن المخلوق غير مصان على فعل الشر.

والإنسان مخير ، مسير في أي لحظة من حياته.

مخير بقدر ما هو محكوم بهذا الناموس الطبيعي الذي لا يمكن أن يتخلص منه ، وهو ناموس الأسباب والمسببات ، وارتباط الماضي بالحاضر، والحاضر بالمستقبل. والتخيير والتسيير مثل السلكين الكهربائيين - السالب والموجب - كل منهما يكمل الآخر وبحاجة إليه ، فاجتماعهما لازم لأي نشاط كهربائي ، كذلك التسيير والتخيير لازم لأي نشاط إداري في الوجود غير المحدود سواء في عالم الغيب أو عالم الشهادة.

وقد قلنا أن القدر هو تقدير المبدع سبحانه وتعالى للأشياء على الصورة التي هي عليها ، وهي أشياء خلقت من عدم إلى وجود مرتبة لا تتجاوز بعضها. بينما القضاء هو ما أوجب في الحكمة من العناية بالعلم من تكليف الاستطاعة الموجودة فيهم. فأهل السنة وقفوا موقف التسليم بالقضاء والقدر معتمدين على ما جاء في كتاب الله عز وجل ، وما جاء في أقواله صلى الله عليه وسلم معتبرين أن قضاء الله وقدره لا ينقضان الدين والشرع ، وأن القضاء والقدر والدين والشرع من عند الله ، وما هو من عند الله لا يمكن رفضه أو دفعه ، وهو المعيذ من نفسه بنفسه كما قال صلى الله عليه وسلم «أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك». والمعنى أن الله يسخط عن العاصي والكافر، فإذا العبد استعاذ برضاه من سخطه - أي طلب الرضا - رفع الله سخطه عن العبد التائب ، فيكون أمر الله وقدره سواء ، لأن أمره لا يبطل قدره ، وقدره لا يبطل أمره ، ولكن يدفع ما قضاه وقدره بما أمر به. وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر، فخرج مغضبا حتى وقف عليهم فقال : ياقوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا ، ماعرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به» ، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه ثم قال «أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تتنازعوا» ، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : الناظر إلى القدر كالناظر إلى عين الشمس ، كلما ازداد نظرا ازداد تحيرا. لقد خرج رسول الله على أصحابه وهم يختصمون بالقدر، فغضب رسول الله واحمر وجهه الشريف من أجل الخوض في القدر احمرارا شديدا ، وقال : « أبهذا أمرتم أو لها خلقتم ، تضربون القرآن بعضه ببعض ، بهذا هلكت الأمم قبلكم» ، وقال صلى الله عليه وسلم «إذا ذكر القدر فأمسكوا» ، وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما اقترب من بلدة فيها الطاعون رجع. فقيل له : أتهرب من قضاء الله ؟ فقال : أهرب من قضائه إلى قضائه. والصحابة رضوان الله عليهم اعتبروا مسألة القضاء والقدر من الأمور العلوية الإلاهية التي ترتبط ارتباطا كليا بالخالق سبحانه وتعالى ، لذا يجب الاطمئنان لها والتسليم بها ، وأن الله لا يمنح العبد إلا ماهو خير لنفسه وإيمانه. وسئل ابن تيمية عن اختلاف المسلمين في ماهية القضاء والقدر فقال : «الجماعة الذين اختلفوا في قضاء الله وقدره ، وخيره وشره ، منهم من يرى أن

الخير من الله تعالى، والشر من النفس خاصة. فإن أهل السنة والجماعة يذهبون إلى أن الله تعالى خالق كل شيء، وربه ومليكه، لارب غيره، ولا خالق سواه، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم. والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله، نهى عن معصية الله ومعصية رسوله، فإن طاع كان ذلك نعمة، وإن عصى كان مستحقا للذم والعقاب، وكان لله عليه الحجة البالغة، ولا حجة لأحد على الله تعالى، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره، ومشيئته وقدرته، لكن تجب الطاعة ويأمر بها، ويثيب أهلها على فعلها ويكرمهم، ويبغض المعصية، وينهى عنا ويعاقب أهلها ويهينهم. وما يصيب العبد من النعم، فالله أنعم بها عليه، وما يصيبه من الشر، فبذنوبه ومعاصيه، كما قال تعالى «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» وقال تعالى «ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك».

وروي عن علي كرم الله وجهه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بقيع الغر قد في جنازة فقال: «ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة. فقالوا: يارسول الله، أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ فقال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة. فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسره لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ قوله تعالى «فأما من أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى».

وسأل شيخ من الشيوخ الإمام علي كرم الله وجهه وهو منصرف إلى صفِّين: أخبرنا عن سيرنا إلى الشام، أكان بقضاء الله وقدره أم لا؟ فقال علي: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا ولا علونا قلعة إلا بقضائه وقدره، فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي، ما أرى لي من الأجر شيئا. فقال له: مه أيها الشيخ، عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولاإليها مضطرين. فقال الشيخ: كيف والقضاء والقدر ساقنا؟ فقال علي كرم الله وجهه: ويحك لعلك ظننت قضاء لازما، وقدرا محتوما، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهي، ولما كانت تأتي لائمة من الله لمذنب، ولا محمدة لمحسن أولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان، وجنود الشيطان، وشهود الزور، وأهل العمى عن الصواب في الأمور، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها.

إن الله أمر تخييرا، ونهى تحذيرا، وكلف يسيرا، ولم يعص مغلوبا، ولم يطع مستكرها، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا «ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار».

قال الشيخ: وما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟ قال: هو الأمر من الله والحكم، ثم تلى قول الله تعالى «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحسانا»، فنهض الشيخ من مقامه مسرورا محبورا بما سمع. وسأل رجل عليا عن القضاء والقدر، فقال له: إنه طريق مظلم لا تسلكه.

فأعاد عليه السؤال، فقال له : بحر عميق لا تلجه. فأعاد عليه السؤال : فقال له : سر الله قد خفي عليك فلا تفشه.

وأيضا سأل رجل عليا كرم اللـه وجهه عن القضاء والقـدر، فأعرض عنـه أربع مرات، ثم ألح بالسؤال، فقـال له علي كرم الله وجهـه : لما خلقك الله تعالى خلقك كيف يشاء هـو، أم كيف تشاء أنت ؟ فقال الرجل : بل كيف يشاء هو. قال علي : فيحييك كيف يشاء هو أم كيف تشاء أنت ؟ قال الرجل : بل كيف يشاء هـو. قال علي : فيميتك كيف يشاء هو، أم كيف تشـاء أنت ؟ قال الرجل : بل كيف يشاء هو. قال علي : فيبعثك كيـف يشاء هو، أم كيف تشـاء أنت ؟ قال الـرجل : بل كيف يشاء هو. قال علي : فيحاسبك كيف يشاء هو، أم كيف تشاء أنت ؟ قال الرجل : بل كيف يشاء هو : فقال له علي : إذهب ولا تعترض، وقل مـا قاله أهل العلم : «إن الله علم مـا سوف تختاره لنفسك من الأعمال والأقوال فكتبه عليك .

قد يطول بنا المطاف في مسألة القضاء والقدر، ولا يمكن سبر الموضوع خشية الانزلاق من حيث نشعر أو من حيث لا نشعر، ولكن نكتفي بهذا القدر كإشارة، علما بأن عقيدتنا السمحاء قد وضعت حدا للموضوع بما حباهـا الله من بذور عرفانية مثمرة، وأن الله عز وجل قد قـدر الكائنات منذ أبدع العقول الروحـانية، ورتب الكواكب والأفلاك، وهـو القائل في محكم كتابه «مـا أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتـاب من قبل أن نبرأهـا» وهـذا يعني أن اللـه رتب الموجـودات من كل جانب قبل وجودها، ولما شاءت إرادته أن يبدعها ويوجدها اختار لها الانفعالات التي يجب أن تنفعل بها وقت وجودها، فلما أرادها بموجب حكمته وسابق علمه أن توجد فقد تعلق في إيجادها أشياء.

منها إحاطة علمه سبحانه وتعالى قبل وجودها. وإيجادها لعالم الوجـود منظمة ومرتبة حسب كل موجود منها – وهذا يعني القضاء. ثم إيجادها لعالم الوجود بموجب قدرته الأحدية، فكان هذا قدرها.

فيكون بـذلك القضاء والقـدر لا ينفك أحدهما عـن الآخر. والإنســان لا يستطيع أن يخرج عن ملكوت اللـه القائم على النظام والـدقة التي أبدعهـا الله خير إبداع، وهـو القائل سبحانـه وتعالى في محكم كتابـه «بديع السموات والأرض، أنى يكن لـه ولد ولم تكن له صاحبـة، وخلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم، ذلكم اللـه ربكم، لا إلاه إلا هو، خـالق كل شيء، فـاعبدوه، وهـو على كل شيء وكيل، لاتدركـه الأبصار، وهـو يدرك الأبصار، وهـو اللطيف الخبير، قد جـاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ»

وصيــــة

الصحبة لا يقوى عليها إلا الرجال الأقوياء الذين لا تغريهم الأحوال، ولا تقبل إلا في طاعة الله وحدود الشريعة، وشرطها النصيحة وأدبها كف الجفاء، ولها مراتب بحسب الأحوال، فإن كان فوقك فاصحبه بالحرمة، وإن كان مثلك فاصحبه بالوفاء، وإن كان دونك فاصحبه بالرحمة، وإن كان عالما فاصحبه بالخدمة، وإن كان جاهلا فاصحبه بالسياسة والكياسة، وإن كان غنيا فاصحبه بالزهد، وإن كان فقيرا فاصحبه بالجود، وإن صاحبت صوفيا فاصحبه بالتسليم. وأولى لك أن تصحب الجليل الودود الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك. فالجليل يعطيك والخليل تعطيه، والجليل يحفظك والخليل تحفظه، والجليل يحملك والخليل تحمله، والجليل يتولاك والخليل تتولاه، والجليل يكون لك حيث تريد والخليل تكون له حيث يريد، إن الذي يأنس بمولاه لا يأنس بسواه، قال تعالى «لا تجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه».

وإنه لمن الحكمة توقير الكبير ورحمة الصغير ومخاطبة الناس باللين والبشاشة الطافحة على الوجه، والإنصات لحديث الجليس ما لم يكن هجرا، والنصيح في الله إن علمت منه ذلك وإلا قدّم العُذر من أجل الانفصال، وإن كان حديثه حسنا فاستمع من غير قطع، واشخص إليه بالنظر ما دام محدثا.

وعليك بالتواضع فإنه سر من الأسرار لا يهبه الله إلا لنبي أو صديق، فليس كل تواضع تواضعا، وهو من أعلى المقامات، وحقيقته العلم بعبودية النفس، فلا يصح مع العبودية الرئاسة أصلا، وقد قال أحد المشايخ رضي الله عنهم، آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة. قال عيسى عليه السلام لأصحابه : أين تنبت الحبة ؟ قالوا : في الأرض، فقال عليه السلام : كذلك الحبة لا تنبت إلا في قلب مثل الأرض : يشير إلى التواضع. والتواضع شرف عظيم للإنسان، يجب أن نفرق بينه وبين التملق، فالتواضع موقوف على أصحاب التمكين في العلم والتحقيق في التخلق.

وعليك بالزهد، فإنه صفة شريفة، وشرطه أن لا يحن إلى ما قد زهد فيه، وأدبه أن لا يذم المزهود فيه، وعله أن يشغل نفسه عن زهده من أجله، فإن اشتغل بذلك تولاه الله بالحضور معه في بساط الأنس في كل ما يطرأ من تفاصيل الكون، حتى إذا لم يلتفت إلى ذلك العارض عرف حينئذ منة الله عليه وعنايته به، فيزداد شكرا ورغبة مما زهد فيه.

وإن ملازمة طريق الاعتدال في كل الأحوال هي من صفة الرجال، وبادر إلى استغلال الوقت فإنه هبة من الله لعباده، فنزينة بالتقوى والعمل الصالح، ولا تصاحب أحدا إلا من ترى معه الزيادة في دينك ومعرفتك، والزم الورع في النطق والأخلاق، فلا تجلس في طريق المسلمين، فإن كان اضطرارا فغض البصر، وأرشد الضال، وأعن الضعيف، وكف الأذى، ورد السلام، وتورع في مشيك وقعودك، ولا تقابل بيت أخيك.

واحترام الشيوخ واجب، فلا تلبس ثيابهم ولا تقعد مكانهم أو ترد عليهم كلامهم، بل بادر إلى امتثالهم واحترامهم وتعظيمهم من عظموه واحترموه، فإن كنت أعلم من شيخك فالشيخ أعلم بالمصلحة لك منك.

وإذا قدمت مسجدا فالزم حرمته، وقدم اليمنى في الدخول، وقدم اليسرى في الخروج، واركع ركعتي التحية، وإن استطعت أن تكون من أول الداخلين وآخر الخارجين فافعل، ولا تجعله موطن النوم والراحة.

والعاقل من جعل كلامه وراء قلبه، وليس كالأحمق الذي كلامه على طرف لسانه وعقله في حجره إذا قام سقط.

والورع رأس الدين، وهو من صفات المحققين، قال عنه بعض الصوفية : ما رأيت عليّ أسهل من الورع، كل ما حاك في نفسي تركته.

وإن كانت تحضرني الآن - وأنا أخط بالقلم - وصايا كثيرة العد، فإني أرى الإحجام عنها أدعى خشية التطويل، ولا أرى أفضل من عرض آيات بينات هي أفضل من قول قائل وأحسن من حكمة حكيم وأغنى من ناصح وأجدى للقلب من بيان بليغ.قال عز وجل في محكم كتابه وهو أصدق قائل يوصي عباده ليكونوا سعداء في الدارين : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا».

«وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا».

«ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط»

« ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا»

«ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطأ كبيرا»

«ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن»

«ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق»

«وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا»

«وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاط المستقيم»

«ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا»

«ولا تمش في الأرض مرحا، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا»

«ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله»

«ولاتفرح إن الله لا يحب الفرحين»

«وابتغ فيما آتاك الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك»

«ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين»

«ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك، واغضض من صورتك»

«وإن هذا صراطي مستقيما فابتعوه ولا تتبعوا السبل فترق بكم عن سبيله»

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا للناس حسنا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»

«واصبر على ما أصابك»

«ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم»

«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وقل الحق من ربكم»

«قل الله أعبد مخلصا له ديني»

«قل ما أسألكم عليه من أجر»

«خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»

«وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له»

«واعبدوا الله واتقوه»

«وجاهدوا في الله حق جهاده»

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا»

«سارعوا إلى مغفرة من ربكم»

«لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة»

«ولا تتبعوا خطوات الشيطان»

«ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم»

«ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا»

«ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى»

«وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم»

«كونوا قوامين بالقسط شهداء»

«ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس»

«ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»

«ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض»

نسأله سبحانه وتعالى التوفيق في أعمالنا ، والعفو عن سيئاتنا «إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون».

رؤية الرسول «ص» والوعد بالجنة

رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام أو اليقظة صحيحة، فلا يتمثل في شخصه صورة مخلوق مطلقا سواء في المنام أو اليقظة. أما أسلوب الرؤيا كيف وأين والصورة واللباس فلا داعي للدخول في هذا التفصيل مادامت الرؤيا تحمل اليقين أنه هو صلى الله عليه وسلم. وقد قال عليه السلام «من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي» وقال أيضا «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي» وقال أيضا «من رآني فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتكوّنني».

والمالك لطاعة الله بشائره أن يراه صلى الله عليه وسلم مناما، أما إن كان من الذين سبروا الطريق فليس من المستعبد أن يراه يقظة، ومن رآه يقظة فقد جعل الله بينه وبين الشيطان سدا، ومن ابتعد عنه الشيطان من غير رجعة فقد التزم الطاعة، ومن التزم بشر بالجنة التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

وفيها يقول عز وجل «إن المتقين في جنات وعيون، ادخلوها بسلام آمنين، ونزعنا ما في صدورهم من غل، إخوانا على سرر متقابلين، لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين».

وقال سبحانه «ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعلمون، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون» وقال تعالى «إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين، كذلك، وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، ووقاهم عذاب الجحيم، فضلا من ربك، ذلك هو الفوز العظيم».

وقال تعالى «إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ومزاجه من تسنيم عينا عينا يشرب بها المقربون».

إن هذه الأمثلة من الآيات هي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر. أما الأحاديث الشريفة الواردة في هذا الموضوع فهي كثيرة أيضا، نأتي منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبولون، ولكن طعامهم ذلك جُشاء كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والتكبير، كما يُلهمون النَّفَس»

وقال أيضا «قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة عين»».

وقال أيضا «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورَشَحُهُم المسك، ومجامرهم الألُوَّةُ – أي عود الطيب – أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا في السماء» وفي رواية البخاري ومسلم : آنيتهم فيها الذهب، ورشحهم فيها المسك، ولكل واحد منهم زوجان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا».

وقال أيضا «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها في السماء ستون ميلا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المومن ولا يرى بعضهم بعضا».

وقال أيضا «إن في الجنة شجرة يسير الراكبُ الجوادَ المُضَمَّرَ السريع مائة سنة ما يقطعها» وفي رواية يسير الراكب في ظلها مائة سنة ما يقطعها».

وقال أيضا «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر، وفي الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا : يارسول الله. تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال : بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

وقال أيضا «لقاب قوسين في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب»

وقال أيضا «إن في الجنة سوقا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم، وقد ازددتم حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم حسنا وجمالا، فيقولون : وأنتم والله لقد ازدادتم بعدنا حسنا وجمالا».

وقال أيضا : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : ياأهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى ياربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا».

وقال أيضا حينما كانت جماعة عنده فنظر إلى القمر ليلة البدر «إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته»

وقال أيضا «إذا دخل أهل الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون : ألم تُبَيِّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب. فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم» بهذا القدر نكتفي، والله ولي المتقين.

شمائل الرسول وأوصافه ومعجزاته

« اللهم حسن خلقي» اللهم جنبني منكرات الأخلاق» ذلك ماكان يدعو به صلى الله عليه وسلم، فاستجاب له سبحانه وتعالى «ادعوني استجب لكم»، وقد كان خلقه القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها : كان خلق رسول الله صلى عليه وسلم القرءان و وقال فيه عز وجل « وإنك لعلى خلق عظيم»، وقال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

كان صلى الله عليه وسلم أحلم وأشجع وأعدل وأعف الناس، سخي اليد، لايسأل إلا وأعطى، يرقع الثوب والنعل، وكان أشد حياء، يجيب دعوة العبد والحر، لم تمس يده امرأة غير زوجاته، يقبل الهدية ويكافىءعنها مادامت خالصة ويأكلها ولا يأكل الصدقة، ولايتكبر عن الأمة والمسكين، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، وينفذ الحق و إن عاد عليه، كم وضع الحجر على على بطنه من شدة الجوع، لم يشبع شبع التخمة إيثارا على نفسه لافقرا ولابخلا، يجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويمشي وحده من غير حارس، أشد الناس تواضعا وأبلغهم وأحسنهم بشرا، يلبس ماوجد، وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر، يركب ماأمكنه أو يمشي راجلا حافيا بلارداء ولاعمامة ولا قلنسوة، يعود المرضى ويحب الطيب ويكره الكريه منها، يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل والشرف، يصل الرحم ولا يجفو على أحد، كما يقبل المعذرة ويمزح ولا يقول إلا حقا، وإن ضحك لايقهقه، يرى اللعب المباح ولاينكره، ترفع الأصوات عليه فيصبر، وكانت له أعنز وغنم، وعبيد وإماء، يقضي وقته فيما ينفع، لا يحتقر مسكينا ولا يهاب ملكا، وهو أمي لايقرأ ولايكتب، نشأ في رعاية الغنم يتيما، جمع الله فيه المحاسن وأخبار الأولين والآخرين، لم يشتم ولم يلعن أبدا، وإن سألوه أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له، وما ضرب إلا في سبيل الله، أو أنتقم إلا أن تنهك حرمات الله، وإن خير بين اثنين اختار أيسرهما، وما عاب مضجعا، فإن لم يفرش له اضطجع على الأرض، يبدأ بالسلام من لقيه، لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله، وإذا جلس ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما، وكان يجلس بين أصحابه حيث انتهى به المجلس، وأكثر ما يجلس مستقبلا القبلة، يكرم من يدخل عليه فيجلسه على ثوبه إن لم يكن بساط، ويفضل الداخل عليه بالوسادة التي تحته، ويدعو أصحابه بكناهم وإكراما لهم، ويكني من لم تكن له كنية، وكان أبعد الناس غضبا وأرأفهم وأنفعهم وخيرهم، وفي مجلسه لم ترفع الأصوات، وإذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لاإلاه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك».

- وأما صفاته فكان صلى الله عليه وسلم نير اللـون، شديد سواد الحدقة مع سعتها وحسنها، وفي بياض عينيـه حمرة، كثير شعر حروف الأجفان مشرق الـوجه دقيق الحاجبين في طول، مدور الـوجه، واسع الجبين، كث اللحية، تملأ صـدره، عظيم الصدر والمنكبين، ضخم العظـام، ضخم العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سـائل الأطراف، دقيق الشعر من الصدر إلى البطن، ربع القد، ليس بـالطويل المفرط ولا بـالقصير المتناهي، أحسن النـاس عنقا، ليس بكثير اللحم ولا بصغير الذقن، متماسك البدن، إذا تكلم شع النـور من ثغره، ناصع البياض لاتشـوبه صفرة ولاحمرة ولاشيء من الألوان، وكـان عرق وجهـه أطيب من المسك، وشعره يضرب إلى أذنيـه ليس بالبسط ولا المجعد، وشيبه في الـرأس واللحية سبع عشرة. ما رآه أحـد إلا شبهه بـالقمر البـدر، مفلج الأسنان، ألطف الشفتين، ختم الفم سهل الخدين، مـا بين كتفيـه خـاتم النبـوة يلي المنكب الأيمن فيه شـامـة سوداء، ضـاربة إلى الصفرة، حولها شعـرات كأنها عرف فرس، ومشيتـه كأنما يتقلع من صخر يمشي الهويني من غير تبختر.

وكان صلى الله عليـه وسلم «يقول أنا أشبه الناس بأدم صلى الله عليـه وسلم، وكان أبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بي خلقا وخلقا».

أما معجزاته صلى الله عليه وسلم فقد نسردها لاعلى سبيل الحصر.

منها نبع الماء مـن بين أصابعه، والبركـة في الطعام، وحنـو الشجر والجماد وكـلامهما، وانشقاق القمر إلى فلقين فلقة دون الجبل وفلقة فوق الجبل، حتى شـوهد ذلك في إقليم الهند، وشفاء الأمراض بمسح يـده على المرض كما فعل مع عبد اللـه بن عتيك في كسر سـاقه، ومع علي كـرم الله وجهـه في مرض عينيـه، ومع سلمة بن الأكـوع في ضربة، وإعادة بصر أعمى، وإعـادة حدقـة عين قتادة التي أصيبت في غزوة بـدر حيث اتفق الجميع على قطعهـا، كما أصيب مرة أخرى في العين الأخـرى داخل معمعة غزوة أحـد، فسقطت عينه في كفه فدمعت عينا الـرسول صلى الله عليه وسلم ودعا لـه بردها ومسح عليها فعادت أحسن وأحد وأجمل، وشفاء الإبن المجنون التي كانت تراوده حالة الصرع صباحا ومساء فمسح صدره فصاح صيحة خرج على إثـرها من جوفه كالجر والأسود فشفي. ونفس الجنون في أعرابي ما أن مسح على صدره وقرأ أيات حتى قام ولم يعرف ذلك المرض قط.

ومن معجزاتـه صلى الله عليه وسلم الإسراء والمعـراج الذي حير عقل الإنسـان القديم والحديث على السواء، ودعاؤه المستجاب أودعاؤه لأشخاص كي يستجيب لهم الله سبحانه وتعالى، فكان ذلك حقا وصدقا، وتنبـؤاته بالبشرى والبلوى والأحداث، ورميه للأعـداء بقبضة تراب فعميت أبصارهم، وأبطل الله عمل الكهـانة بمبعثه، وأطعم السم مع شخص فمات الرجل وبقي صلى اللـه عليه وسلم فكلمه ذراع المسمـوم، وزويت له الأرض فرأى مشرقهـا ومغربها وأخبر بأن ملك أمتـه سيبلغ مارأى، وأخبر فاطمـة بنته رضي اللـه عنها بأنها أول من يلتحق بـه من أهله فكـان كذلك، ومسـح ضرع شاة خرود لالبن لها فسألت لبنا، وكان بعض الصحابة يسمعون معه تسبيح الطعام بين يديه.

والقرءان أعظم معجـزة لم يستطع أن يأتي به أهل البيـان، وهو المعجزة الكبرى البـاقية بين البشر ينادي من يستطيع أن يأتي بمثله قائلا «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»

هذا موجز عن معجزاته صلى الله عليه وسلم وهي على سبيل المثال فقط، نختمها أيضا ببعض الأحاديث المنتقاة كما يلي :

في نبع الماء من خلال أصابعه صلى الله عليه وسلم.

عن أنس رضي الله عنه قال : أتي صلى الله عليه وسلم بإناء وهو بالزوراء – موضع بالمدينة – مع أصحابـه، فوضع يـده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصـابعه، فتـوضأ القوم، قـال قتادة : قلت لأنس : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة أوزهاء ثلاثمائة. رواه الشيخان.

وعنه قـال : خرج النبي صلى اللـه عليه وسلم في بعض مخارجـه – أي أسفاره – ومعـه ناس من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاة فلم يجدوا ماء يتوضأون، فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح مـن ماء يسير فتوضأ منـه النبي صلى الله عليـه وسلم، ثم مـد أصابعه الأربع على القـدح، ثم قال : قـوموا توضـأوا، فتـوضـأ القوم حتى بلغوا مـا يريدون من الـوضوء، وكانـوا سبعين أو نحوه. رواه البخاري.

وعن جابر رضي الله عنه قال : عطش الناس يـوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه رَكْوَةٌ – إنـاء صغير من جلد – فتوضأ فجهش النـاس نحوه فقال : مالكم ؟ قـالوا : ليس عندنـا ماء نتوضأ ولانشرب إلا بين يـديك، فوضع يده في الـركوة فجعل الماء يفـور بين أصابعه كأمثـال العيون، فشربنا وتوضأنا، قيل : كم كنتم ؟ قال : لوكنا مائة ألف لكفانا . كنا خمس عشرة مائةً. رواه الشيخان.

وفي تكثير الطعام وزيادته بين القوم.

عن أنس رضي الله عنه يقـول : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صـوت رسول الله صلى الله عليـه وسلم ضعيفا أعرف فيه الجوع، فهل عنـدكِ من شيء ؟ قالت : نعم. فأخرجتْ أقرصا من شعير ثم أخرجـت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ثـم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضـه، ثم أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهبتُ فوجدتـه في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهـم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلك أبوطلحة ؟ قلت : نعم، قال : بطعام ؟ قلت : نعم . فقال رسول اللـه صلى عليه وسلم لمن معـه : قومـوا، فانطلق وانطلقتُ بين أيـديهم حتى جئتُ أبـا طلحة فأخبرتُه، فقال أبوطلحة : ياأم سليم، قد جاء رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وليس عندنا مانطعمهم فقالـت : الله ورسوله أعلم، فانطلق أبـو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هلمّي يا أم سليم ماعندك، فأتت بذلك الخبـز، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فَفُتَّ، وعصرَتْ أم سليم عُكَّة – إناء من جلد – فأَدَمَتْه، ثم قال رسول اللـه صلى الله عليه وسلم فيه ما شاء

الله أن يقول، ثم قال :

إئذَن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال :

إئذَن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال :

إئذَن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال :

إئذن لعشرة، فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا. رواه الخمسة إلا أبا داود.

عن جابر رضي الله عنه قال : لما حفر الخندق رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا، فانكفأتُ إلى امرأتي، فقلت : هل عندك شيء، فإني رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا، فأخرجتْ إلي جِرابا فيه صاع من شعير، ولنا بُهيْمة داجن – شاة صغيرة – فذبحتها، وطحنت الشعير ففرغتْ إلى فراغي، وقطَّعْتُهَا في برمتها ثم وليتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت : لاتفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن معه، فجئته فساررته، فقلتُ : يارسول الله ذبحنا بُهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ياأهل الخندق، إن جابرا قد صنع سورا – وليمة – فحي هلاً بكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتُنزِلن بُرمتكم ولاتَخبِزَن عجينكم حتى أجيء، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْدُم الناس حتى جئتُ امرأتي فقالت : بكَ وبِكَ، فقلت : قد قلتُ الذي قلتِ، فأخرجتْ له عجينا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ادعي خابزة فلتخبز معك، واقْدَحِي من برمتكم ولاتنزلوها، وهم ألف. فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لَتَغِطُّ كما هي، وإن عجينا ليُخْبَزُ كما هو. رواه البخاري في غزوة الخندق.

وفي تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم.

عن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا نعد الآيات بركةً، وأنتم تعدونها تخويفا، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقلّ الماء فقال : اطلبوا فَضْلة من ماء، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل. فأدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الإناء ثم قال : حيّ على الطهُور المبارك والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبُع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم. ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل. رواه البخاري. والترمذي بلفظ «كنا نأكل الطعام مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نسمع تسبيح الطعام».

وفي تكثير التمر القليل.

عن جابر رضي الله عنه قال : توفي أبي وعليه دين، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أبي ترك عليه دينا وليس عندي إلا مايُخرج نخلُه ولا يبلغ ما يُخْرِج سنين ما عليه، فانطلِقْ معي لكي لايُفْحِش علي الغرماء، فمشى حول بيدرٍ – الموضع الذي يداس فيه الطعام بعد حصاده – من بيادر التمر، فدعا الله، ثم آخَرَ، ثم جلس عليه فقال : انْزِعوه، فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل ماأعطاهم. رواه البخاري.

ومنها حنين الجذع كان يتكأ إليه صلى الله عليه وسلم.

عن جابر رضي الله عنه قال : كان المسجد مسقوفا على جذوع من نخل فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صُنع المنبر فكان عليه ، سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت. وفي رواية : فلما كان يوم الجمعة ورُفِع إلى المِنبر صاحت النخلة صياح الصبي. رواه البخاري والنسائي والترمذي بلفْظ : فحن الجذع حنين الناقة ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فمسه فسكن.

ومنها انقياد الشجر له صلى الله عليه وسلم.

عن جابر رضي الله عنه قال : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا واديا أفْيَحَ – أوسع – فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته فاتَّبعْتُه بإداوة – إناء فيه ماء – من ماء ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرشيئا يستتر به ، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحدهما ، فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي عليّ بإذن الله ، فانقادت معه كالبعير المخشوش – الذي في أنفه حلقة فيها حبل يقاد به – الذي يصانع قائده ، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي عليّ بإذن الله ، فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمَنْصَفِ مما بينهما لأم بينهما ، فقال : التئما عليّ بإذن الله فالتأمتا. قال جابر : فخرجتُ أُحْضِرُ مخافة – أسعى بشدة وأتباعد عن النبي لئلا يراني قريبا منه – أن يحس رسول الله صلى الله عليه وسلم بقربي فيبتعد أو فيتبعَّد ، فجلست أحدث نفسي ، فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، وإذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف وقفة ، فقال برأسه هكذا – أشار برأسه يمينا وشمالا كأنه يكلم أو يصرف أحدا – ثم أقبل ، فلما انتهى إليّ قال : ياجابر، هل رأيت مقامي ؟ قلت نعم يارسول الله. رواه مسلم.

ومنها سرعة إجابة الدعوات له صلى الله عليه وسلم.

عن أنس رضي الله عنه قال : أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا هو يخطب يوم جمعة إذ قام رجل فقال : يارسول الله ، هلكت الكراع ، هلكت الشاء ، فادع الله يسقينا ، فمد يديه ودعا. قال أنس : وإن السماء كمثْل الزجاجة ، فهاجت ريح أنشأت سحابا ثم اجتمع ثم أرسلت السماء عَزالِيَها – المراد نزل المطر كأفواه القرب – فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا ، فلم تزل تمطر إلى الجمعة الأخرى ، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال : يارسول الله ، تهدمت البيوت ، فادع الله يحبسْه ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : حوالينا ولاعلينا ، فنظرتُ إلى السحاب تصدَّع حول المدينة كأنه إكليل. رواه الخمسة إلا الترمذي.

ومنها إخباره بالمغيبات صلى الله عليه وسلم.

عن عَدِيّ بن حاتم رضي الله عنه قال : بينما أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا قَطْعَ السبيل ، فقال : ياعديُّ ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها

وقد أنبئتُ عنها، قال : فإن طالت بك حياة لَتَرَيَن الظعينة - المرأة في الهودج - ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحد إلا الله، قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دُعَّارُ طيِّءٍ - شرارهم - الذين قد سعروا البلاد، ولئن طالت بك حياة لَتفتحن كنوز كسرى. قلت كسرى بن هُرْمز ؟ قال : نعم. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخْرِجُ مِلء كفه من ذهب أو فضة فلايجد من يقبله. ولَيَلْقَيَن الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقولَن له : ألم أبعث إليكَ رسولا فيبلِّغك، فيقول : بلى، فيقول : ألم أعطك مالا وولدا وأُفْضِلْ عليك ؟ فيقول : بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة. قال عديّ : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ولاتخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى، ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم، رواه البخاري.

ومنها انكشاف الغيب له صلى الله عليه وسلم.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسرل الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال : إني فَرَطٌ - ناظر نظرا بصريا - لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ماأخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها. رواه الشيخان. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة فسمعناه يقول : أعوذ بالله منك، ثم قال : ألعنك بلعنة الله ثلاثا، وبسط يده كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة، قلنا : يارسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقول قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال : إن عدو الله إبليسَ جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه. والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثَقاً يلعب به ولدان أهل المدينة. رواه الشيخان.

وفي هذا القدر كفاية، والله ولي التوفيق.

من دعاء القرءان الكريم

نصوص أدعية من القرآن الكريم مختارة، روعي فيها التنسيق من غير تطويل ولاتكرار.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمان الرحيم

- « الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولاالضالين».

-«رب أعوذ بك من همزات الشيطان، وأعوذ بك رب أن يحضرون».

-«رب أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا».

-«رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المُنزلين».

- «رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين».

-« رب لاتذرني فردا وأنت خير الوارثين».

-« رب هب لي من لدنك ذرية طيبة، إنك سميع الدعاء».

-« رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام».

-« رب هب لي من الصالحين».

- « رب إني لِمَا أنزلتَ إليّ من خير فإني فقير»،

- « رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفرلي ولوالديّ وللمومنين يوم يقوم الحساب».

-« ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما».

- «ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفرلنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة، إنك لاتخلف الميعاد».

-« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين».

- «ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين».

- « ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين».

- « ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين».

- « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين».

- « ربنا آمنا فاغفرلنا وارحمنا ، وأنت خير الراحمين».

- « ربنا عليك توكلنا و إليك أنبنا و إليك المصير».

- « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهب لنا من أمرنا رشدا».

- « ربنا أتمم لنا نورنا واغفرلنا. إنك على كل شيء قدير».

- « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم».

- « ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين».

- « ربنا لاتوخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفرلنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

- « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة»

- « ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم اتغفر لنا وترحمنا 'نكونن من الخاسرين».

- « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون».

- « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

- « ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما».

- « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم».

- « سلام قولا من رب رحيم».

- « حسبنا الله ونعم الكيل».

- « قل أعوذ برب الفلق ، من شر ماخلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد».

- « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إلاه الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس».

- سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين.

من دعاء الرسول الأمين

مجموعة أدعيتـه صلى الله عليه وسلم نوردها لاعلى سبيل الحصر، وهي مقسمـة إلى جوامع أدعية واستعاذة، مختومة بدعاء لحفظ القرءان.

جوامــــع

- « اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»

- « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر».

- « لاإله إلا الله وحده لاشريك له، اللـه أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا، سبحان الله رب العالمين، لاحول ولاقوة إلا بالله العزيز الحكيم...اللهم اغفرلي وارحمني واهدني وارزقني».

- « اللهم ربَّ السمــوات السبع وربَّ العـرش العظيم، ربَّنــا وربَّ كلِّ شيء منــزل التـوراة والإنجيل والقرءان، فالق الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته.

أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الـآخـر فليس بعـدك شيء، وأنت الظـاهـر فليس فـوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدَّين أغنني من الفقر».

-« اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنيني بفضلك من سواك».

- « الهم إنب أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال».

- « اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرْفة عين، وأصلح لي شأني كله، لاإله إلا أنت».

- «رب أعني ولاتعن عليّ، وانصرني ولاتنصر عليّ، وامكُرْ لي ولاتمكر عليّ، واهدني ويسِّر الهدى لي.

وانصرني على من بغى عليّ، ربِّ اجعلني شــاكـرا لك، ذاكـرا لك، رهـابــالك، مطيعـالك، مُخْبِتـاإليك، أواهاً منيبـا، رب تقبل تـوبتي واغسل حوبتـي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسـدد لساني، واهْد قلبي، واسْلُلْ سَخِيمَة صدري».

- « اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي ، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ماقدمت وما أخرت وماأسررت وماأعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخّر، وأنت على كل شيء قدير».

- « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى».

- « اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني.

- « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على عادانا ، ولاتجعل مصيبتنا في ديننا ، ولاتجعل الدنيا أكبر همنا ، ولامبلغ علمنا ، ولاتسلط علينا من لا يرحمنا»

- « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد ، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، وأسألك لسانا صادقا ، وقلبا سليما ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأسألك من خير ماتعلم ، وأستغفر مما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب» .

- « اللهم عافني في جسدي ، وعافني في بصري ، واجعله الوارث مني ، لاإله إلا الله الحليم الحكيم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين».

- اللهم إني أسألك من صالح ماتؤتي الناس من المال والأهل والولد غير الضالّ ولا المُضلّ».

- «اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني وزدني علما. الحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار».

- «اللهم إني أسألك حبّك وحبّ من يحبُّك ، والعملَ الذي يبلّغني حبّك. اللهم اجعل حبّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي ، ومن الماء البارد»

- « اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبُّه عندك اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب ، اللهم وما زويتَ عني مما أحب فاجعله لي قوة فيما تحب»

استعاذة

- « اللهم إنا نسألك من خير ماسألك منه نبيك محمدٌ ، ونعوذ بك من شر مااستعاذ منه نبيك محمدٌ ، وأنت المستعان وعليك البلاغ ، ولاحول ولا قوّة إلا بالله»

- « اللهم إني أعوذ بك من الهم ، والحزن ، والعجز ، والكسل ، والجبن ، والبخل ، وضَلَع الدَّين ، وغَلَبة الرجال» .

- « اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمَغْرَم ، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن ففتة النار، وعذاب النار، ومن شر فتنة الغِنى ، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبَرَد ، ونقّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدَّنس ، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»

- « اللهم إني أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من أن أُرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر»

-« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليّها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، ومن قلب لايخشع ، ومن نفس لاتشبَع ، ومن دعوة لايُستجاب لها»

- « اللهم إني أعوذ بك من شر ماعملت ومن شر مالم أعمل»

- « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوُّلِ عافيتك ، وفُجاَءَةِ نقمتِك ، وجميع سخطك ».

- « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المَحْيَا والممات».

- «اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ، ومن شر بصري ، ومن شر لساني ، ومن شر قلبي ، ومن شر منّي»

- « اللهم إن ي أعوذ بك من الهدْم ، وأعوذ بك من التردّي ، وأعوذبكَ من الغرق والحرق والهرم ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدْبِرا ، وأعوذُ بك أن أموت لدِيغًا».

-« اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذِّلة ، وأعوذ بك من أن أظلِم أو أُظلَم».

- « اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق».

- « اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام وسَيِّءِ الأسقام».

- « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، لاأُحْصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك»

- « اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء»

حفظ القرءان

عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه عليٌ رضي الله عنه فقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، تَفَلّت هذا القرءان من صدري فما أجدني أقدر عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا الحسن - كنية لعلي - أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع بهن من علمته ، ويثبت ماعلّمت في صدرك قال : أجلْ يارسول الله ، فعلمني. قال : إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الأخير، فإنها ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب ، وقد قال أخي يعقوب لبنيه ، سوف أستغفر لكم ربي ، يقول حتى تأتي ليلة الجمعة ، فإن لم تستطع فقم في وسطها ، فإن لم تستطع فقم في أولها ، فصل أربع ركعات تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة ياسين ، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم "الدخان" ، وفي الركعة الثالثة بفاتحة

الكتاب وآلم تنزيل «السجدة» وفي الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك " المفصل " ، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله وأحسن الثناء على الله وصلِّ عليّ وأحسن ، وعلى سائر النبيين ، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان ثم قل في آخر ذلك.

- « اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ماأبقيتني ، وارحمني أن أتكلف مالايعنيني ، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني ، اللهم بديع السموات والأرض ذاالجلال والإكرام والعزة التي لاترام. أسألك يا ألله يارحمن بجلالك ونور وجهك أن تُلزم قلبي حفظ كتابك كما علّمتني ، وأرزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني ، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لاترام ، أسألك ياألله يارحمن بجلالك ونور وجهك أن تنوّر بكتابك بصَري وأن تطلِق به لساني ، وإن تفرّجَ به عن قلبي ، وأن تشرح به صدري ، وأن تُعْمِل به بديني ، لأنه لا يعينني على الحق غيرك ، ولايُؤتيه إلا أنت ، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم»

ياأبا الحسن ، فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمس أو سبعَ تجاب بإذن الله ، والذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمنا قط.

قال ابن عباس رضي الله عنه : فوالله مالبث عليٌّ إلا خمسا أو سبعا حتى جاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل ذلك المجلس فقال : يارسول الله ، إني كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحو هن ، وإذاقرأتُهُنّ على نفسي تفلتْنَ ، وأنا اليوم أتعلم أربعين آية أو نحوَها ، وإذا قرأتها على نفسي فكأنما كتاب الله بين عيني ، ولقد كنت أسمع الحديث ، فإذا رددته تفلت وأنا اليوم أسمع الأحاديث ، فإذا تحدثت بها لم أُخْرِم منها حرفا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : مؤمنٌ ورب الكعبة يا أبا الحسن»

من دعاء بعض المشايخ

هذه أدعية قصيرة أوردتها لبعض مشايخ الصوفية لاعلى سبيل الحصر، وهي :

دعـاء ذو النـون المصـري

- « اللهم الحول حولك، والطوْل طولُك، ولك في كل خلقك مدد قوة وحوْل، وأنت الفعال لما يشاء، لا العجز ولا الجهل يعـارضانك. ولا النقصان والـزيادة يحيـلانك، وأنى يعارضـانك وهما ما حدثـت أو يرومان إحـالتك، وهما ماخلقـت، وكيف لايكونـان مما أحدثتـوما خلقت وأنـت الموجود بالدلائل عليـك، فلن يخلق خلقك غيرك أنت، فتباركت يامن كلُّ مدروك فمن خلقِـه، وكل محمود المدروكات فمن صنعه، أنت الذي لايدرك في الدنيا العيان، ولايستغني عنك مكان، ولايعرفك غيرك إلا بإقراره لك بالوحدانية، ولايجهلك من خلقك إلا ناقص المعرفة، ولايسهِّيك شيء عن شيء.ولا يحُدّ قدرتك أحد، ولايخلو منك مكان، ولايشغلك شأن عن شأن»

وله أيضا :

- « اللهم اجعل العيون منّا فـوارات بالعبرات، والصدور منا محشـوةً بالعبر والحُرُقات، واجعل قلوبنا غواصةً في موج قرع أبواب السموات، تائهةً من خوفك في البوادي والفلوات. افتح لأبصارنا بابا إلى معرفتك ولمعرفتنا أفهاما إلى النظر في نور رحمتك، ياحبيب قلوب الوالهين، ومنتهى رغبة الراغبين»

وله أيضا :

- « اللهم أنت آنس المؤنسين لأوليـائك، وأقـربُهم بالكفـايـة من المتوكلين عليـك لمشاهـدهم، فضمائرهم تطلع على أسرارهم. إلهي سرِّي إليك مكشـوف، وأنا إليك ملهـوف، إذا أوحشني الـذنب آنسني ذكرك، عالما بأن أزمة الأمـور بيدك، وأن مصدرها عن قضائك. إلهي من أولى بالذل والتقصير مني، وقـد خلقتني ضعيفـا، ومن أولى بـالعفـو منـك وعلمك بي سـابق وأمـرك بي محيط، أطلعتك بإذنك، والْمنـة لك عليّ، وعصيتُك بعلمـك والحجـة لك عليّ، أسألك بـوجـوب رحمتك، وانقطـاع حجتي وتفقُّري إليك، وغناك عني أن تغفرلي خطيئتي الظاهرة والباطنة»

دعاء الجنيد

- « اللهم إني أسألك ياخير السامعين ، وبجودك ومجدك ياأكرم الأكرمين وبكرمك وفضلك يا أسمح السامحين ، وبإحسانك ورأفتك ياخير المعطين ،

أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع اشتدت إليك فاقته ، وأنزل بك على قدر الضرورة حاجتَه ، وعظمت فيما عندك رغبته ، وعلم أن لا يكون شيء إلا بمشيئتك ، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك ، فكم من قبيح قد سترته ، وكم من بلاء قد صرفته ، وكم من عثرة قد أقلْتها ، وكم من زلة قد سهلت بها ، وكم من مكروه قد رفعته ، وكم من ثناء قد نشرته. أسألك ياسامع أصوات المستغيثين ، وعالم خفي إضمار الصامتين ، ومطلعا في الخلوات على أفعال المتحركين ، وناظرا إلى مادق وجل من آثار الساعين ، أسألك أن لاتحجُبَ بسوء فعلي عنك صوتي ، ولاتفضحني بخفيّ مااطلعت عليه من سري ، ولاتعاجلني العقوبة على ماعلمته من خلواتي ، وكن بي في كل الأحوال رافقا ، وعلي في كل الأحوال عاطفا ، إلهي وسيدي وسندي أنا بك عائذ لائذ مستغيث مستجير من تكاثف مخاوف علل سرّي ، ومن لزوم ذلك ضميري وقلبي ، حتى يكادَ ذلك أن يملأ صدري ، ويوقفَ عليّ الإنبساطَ إلى ذكرك عقلي ولساني ، ويمنع من الحركة في الخدمة جسمي ، فأنا في حبس مايعارضني من ذلك من النقص والتقصير، وأسألك أن تُخرجَ ذلك عن ذكري ، وتمنعه من قلبي ، واجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورةً ، وبخدمتك وعبادتك موصولةً ، حتى يكون الورودُ وُرودا واحدا ، والحال حالا واحدا لاسأمة فيه ولافتورَ ولاملَلَ ولاتقصيرَ حتى أُسرع به إليك في حين المبادرة ، وأسرح بذلك إليك في ميادين المسابقة ، وارزقني من طعم ذلك اللذائذَ السابغة ياأكرم الأكرمين»

وله أيضا :

- « إلهي وسيدي ومولاي ، من أحسن منك حكما لمن أيقن بك ، ومن أوسع منك رحمةً لمن اتقاك وقصدك ، ومن أسرع منك عطفا ورأفة لمن أرادك وأقبل على طاعتك ، فكلهم في نعمائك يتقبلون ، وَلك بفضلك عليهم يعبدون ، سرت همومهم لك إليك ، وانفردت إرادتهم لديك ، وأقبلتْ قلوبهم بك عليك ، وفنيتْ حظوظهم من دونك واجتمعتْ لك وحدك ؛ ، فهم إليك في الليل والنهار متوجهون ، وعليك في كل الأحوال مقبلون ، ولك على الأحوال مؤثرون ، فأنا أسألك إلهي وسيدي ومولاي أن تكون لي بفضلك كاليا كافيا عاصما راحما ، فإني إليك لاجيء وبك مستغيث وإليك راغب ومنك راهب ، وعليك في أمور الدنيا والآخرة متوكل ، لاإله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»

دعاء أبو سعيد

- « اللهم إني أسألك بحقك عليك ، فلا حق أحق من حقك عليك بحقك على أهل الحق ، وبحق أهل الحق عليك ، وبحق كل ذي حق بأن لك بقدمك بعلمك بكل شيء ، وملكك لكل شيء وقدرتك على كل شيء ، صل على محمد وعلى آله ، وأن تفعل بي ...كذا وكذا...»

دعـاء الشبلـي

- « اللهم لك الحمد ياضياء السموات والأرض، ويابهاء السموات والأرض، وياقيوم السموات والأرض، ويـانــور السمـوات والأرض، بحق أسمائك عليك، وبحقك عليك فـلاحق أجل منك عليك، وبحق ماأنزلت، وبحق من جعلت له فهما فيها أنزلت يـا ألله، ويامن لاسواك الله، ويامن أنت الله صل على محمـد وعلى آل محمد، وأجمعهم ولاتشتتهم، وارحم ظواهرهم واعمـر بواطنهم لهم بالكـلاءة والكفايـة وكن لهم عوضـاً من كل عوض، وارحمهم ولاتـردهـم إليهم طرفـة عين ولاأقل من ذلك، بحق كل حق، وأنت ذلك الحق، واجعلهم أتقياء وأجلاء في معـانيك اللدُنية، واجعلهم ممن إذا قال قال على التحقيق، وإذا سكت فلا سواك»

دعـاء يحيـى بن معــاد

- « اللهم إن نجيتني نجيتني بعفـوك، وإن عذبتني عـذبتني بعدلك، رَضيتُ مـا بي لأنك ربي وأنا أعبدك، إلهي أنت تعلم أني لاأقوى على النار وأنا أعلم أني لاأصلح للجنة فما الحيلة إلاعفوك»

دعـاء إبراهيـم المارستاني

- « اللهـم إني أسألـك حسن الإقبـال عليـك، والإصغـاءَ إليـك، والفهم عنك، والبصيرة في أمرك، والنفاذَ في طاعتك، والمواظبة على إرادتك، والمبادرة في خدمتك، وحسنَ الأدب في معاملتك، وبرَدِّ التسليم إليك، والنظرِ إلى وجهك»

نصوص للصلاة على الرسول الأمين

قال اللـه عز وجل «إن الله ومـلائكته يصلون على النبي ، ياأيها الـذين آمنو صلو عليـه وسلموا تسليما»

وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا».

وقال أيضا«أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة».

وقال أيضا «لاتجعلوا قبري عيدا ، وصلوا عليّ ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

وقال أيضا« البخيل من ذُكرت عنده فلم يصل عليّ».

وعن أبي حُميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا : يارسول الله كيف نصلي عليك ؟ قال :

«قولـوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريتـه ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبـارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه قال : لقيني كعب بن عجرة فقال :

ألا أهدي لك هديـة ، إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج علينـا ، فقلنا يارسول اللـه قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ قال :

« قولوا : اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قلنا يـارسول الله ، هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك؟ قال : «قـولوا : اللهم صل على محمـد عبدك ورسـولك ، كما صليت على إبراهيم ، وبـارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« من سرهُ أن يكتـال بالمكيـال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت ، فليقل : اللهم صل على محمـد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» ،

وسأختصر مجموعـة من الصلاة عليه صلى الله عليـه وسلم أقتبسها بتصرف من «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار، في ذكـر الصلاة على النبي المختـار» للشيخ أبي عبـد الله محمـد بن سليمان الجزولي ، ومن«الطيب الفاتح ، في صلاة الفاتح» للشيخ محمد بن عبد الواحد النظيفي.

اللهم صل على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آل سيدنا محمد.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وارحم سيدنا محمدا وآل سيدنا محمد وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت ورحمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم صل على سينا محمد عدد من صلى عليه.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما تحب وترضاه له.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أهل بيته.

اللهم صل على سيدنا محمد نبيك ورسولك، وسيدنا إبراهيم خليلك وصفيك، وسيدنا موسى كليمِك و نجيك، وسيدنا عيسى روحك وكلمتك، وعلى جميع رسلك وأنبيائك وملائكتك وخيرتك من خلقك وأصفيائك وخاصتك وأوليائك من أهل أرضك وسمائك.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى أزواجه وذريته وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين وجميع عباد الله الصالحين.

اللهم صل على سيدنا محمد عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك ومبلغ علمك وآياتك.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد من صلى عليه، وصل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما أمرت أن نصلي عليه.

اللهم صل على سيدنا مخمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أهل بيته الأبرار أجمعين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله، بحر أنوارك ومعدن أسرارك ولسان حجتك وعروس مملكتك، وإمام حضرتك وخاتم أنبيائك، صلاة تدوم بدوامك وتبقى ببقائك، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنايا رب العالمين، اللهم أبلغ لسيدنا محمد أزكى السلام.

اللهم صل على سيدنا محمد سيدي الأولين والآخرين، وصل عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين، وصل عليه حتى ترث الأرض ومن عليها وأنت خير الوارثين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد ماأحاط به علمك وجرى به قلمك وسبقت به مشيئتك وصلت عليه ملائكتك، صلاة دائمة بدوامك باقيةً بفضلك وإحسانك إلى أبد الآبدين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى جميع أصحاب سيدنا محمد وعلى كل التابعين وتابع التابعين ومن تبعهم بالإحسان إلى يوم الدين.

اللهم صل على سيدنا محمد عدد ماذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

اللهم صل على سيدنا محمد بالغدو والآصال أفضل صلواتك.

اللهم صل على نبي الرحمة وشفيع الأمة وكاشف الغمة ومُجلي الظلمة ومُؤتي الرحمة.

اللهم صل على سيدنا محمد صاحب الحوض المورود والمقام المحمود واللواء المعقود والمكان المشهود

اللهم صل على سيدنا محمد صاحب الشامة، الموصوف بالكرامة المخصوص بالزعامة، من هو في السماء محمود، وفي الأرض محمد.

اللهم صل على سيدنا محمد صاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة.

- اللهم صل على سيدنا محمد صاحب السلطان والبرهان، والتاج والمعراج، والراكب على البراق، والمخترق السبع الطباق، والشفيع في جميع الأنام.

اللهم صل على سيدنا محمد وأبينا آدم وأمنا حواء وكافة الأنبياء والرسل إلى يوم الدين

اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه، وصل على جبرائيل وميكائيل وإصرافيل وحملة العرش والملائكة المقربين، وصل على جميع الأنبياء والمرسلين ؤلى يوم الدين.

اللهم صل على سيدنا محمد صلاتك التي صليت عليه، وسلم على سيدنا محمد سلامك الذي سلمت عليه.

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات، وتقضي لنا بها جميع الحاجيات، وتطهر بها من جميع السيئات، وترفعنا بها أعلى الدرجات، وتبلغنا بها أقصى الغايات، من جميع الخيرات في الحياة وبعد المات.

اللهم صل على سيدنا محمد الذي ملأت قلبه من جلالك، وعينه من جمالك ، فأصبح فرحا مؤيدا منصورا، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، واعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته.

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تكرم مثواه، وتشرف بها عقباه، وتبلغ بها يوم القيامة مناه ورضاه.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وارحم سيدنا محمدا وآل سيدنا محمد، كما صليت وباركت وترحمت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد.

اللهم صل على نبيك المصطفى ورسولك المرتضى ووليك المجتبى وأمينك على الوحي.

اللهم صل على سيدنا محمد نور الهدى، والقائد إلى الخير، والداعي إلى الرشد إمام المتقين، ورسول رب العالمين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا دائما بدوام ملكك يا أرحم الراحمين.

اللهم صل على سيدنا محمد في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى، وصلى على سيدنا محمد في الآخرة والأولى.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد الملائكة وتسبيحهم وتقديسهم وتحميدهم وتمجيدهم وتكبيرهم وتهليلهم من يوم خلقتهم إلى يوم القيامة.

اللهم صل على سيدنا محمد عدد ماجرى به القلم في علم غيبك إلى يوم القيامة.

اللهم صل على سيدنا محمد وآله قدرماتحبه وترضاه، وعدد مايحبه ويرضاه.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الكرام، صلاة موصولة دائمة الاتصال بدوامك ياذا الجلال والإكرام.

اللهم صل على سيدنا محمد قطب الجلالة وشمس النبوة والرسالة والمنقذمن الجهالة والضلالة، صلى الله عليه وسلم صلاة دائمة الاتصال والتوالي، متعاقبة بتعاقب الأيام والليالي.

اللهم صل على سيدنا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

اللهم صل على سيدنا محمد بن عبد الله، القائم بحق الله، ماداق أمر إلافرجه الله.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراتك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لماأغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراط المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم، صلاة تنجينابها من جميع الأهوال والآفات، وتقضي لنا بها جميع الحاجات، وتظهرنا بها من جميع السيئات، وترفعنا بها أعلى الدرجات، وتبلغنابها أقصى الغايات، من جميع الخيرات في الحياة وبعد الممات.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراط المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم، صلاة تعرّفنا بها الذات الأحمدية، في جميع اللحظات واليقظات، وتفيض بها علينا من جمالها وجلالها من الأنواروالأسرار والمعارف والتجليات والفيوضات مالا عين رأت، ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب أحد من المخلوقات.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم، صلاة تغرقنا بها في بحر مشاهدة ذاتك

الأحدية، وتـؤيدنا بالعناية المحمـدية، والهمة الأحمدية، في جميع الحالات والمقامات، وتـديمها علينا مادامت الأرض والسموات.

اللهم صل على سيدنا محمد الفـاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقـداره العظيم، صلاة تجعلنا بها من الذين قالـوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء.آمين.

اللهم صل على سيدنا محمد الفـاتخ لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهدي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم، صلاة عبد ناداك رغبا ورهبا. رب هب لي من لدنك ذريـة طيبة، إنك سميع الدعـاء، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي، ربنـا وتقبل دعائي آمين.

اللهم صل على سيـدنا محمد الفـاتخ لما أغلق، والخاتم لما سبق، نـاصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آلـه حق قدره ومقـداره العظيم، صلاة تهب لنـا بها خلافـة ربانيـة، وولاية صمدانيـة، وعلما لدُنيـا، وسرا وهبيا، بحق اسمك اللهم مـالك الملك توتي الملك من تشـاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير، آمين.

خـــاتمـــــة

والآن أيها القارئ الكريم.

دعك من حيـاتك الخير المركـزة التي لايستقـر عليهـا حـالك حتى في أكلك ومشربك وملبسك ومسكنك ، دعك من التيـارات الفكـرية اليـوميـة التي تجتاحك من كـل حدب وصـوب ، دعك من حيرتك اليوميـة التي لايتم ليلها إلا بمسكنـات ، دعك من هذا وذاك ، فأنت لم تخلق عبثـا لتضل بك الأهواء ، وتقفَ مكتـوف الأيدي كالـولهان الذي لايفقه شيئا ، أنت مخلـوق لأداء رسالة معينـة في هذه الحياة ، أنت خليفة الله في أرضه.

قم أيها الكريم. وعالج نفسك قبل العـاجلة ، وأعلنها ثورة على نفسك الأمـارة أو اللوامة ، وعلى الشيطان الرجيم الذي سيتبرأ منك في الختام قائلا : «إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين»

أعلنها ثورة فكرية مبصرة عملية على نفسك. إنهض نهضة مجذوب اقشعر جلده وارتعدتْ أفراسه ووقف شعره خوفا ووجلا من الرحمن الذي يعلم السر وأخفى.

إقرع باب التوبة فإنه ينفتح لك فترى سر حقيقة الحياة ، وسر الحقيقة الأحمدية.

فحينذاك صلِّ على الحبيب المختار، وعلى آله الأبرار، وممن تبعهم من الأخيار، والله ولي التوفيق.

المراجــع

1 ـ إحياء علوم الدين. جزء 1 - 2 - 3 - 4 - 5 . تأليف الإمام ابي حامد محمـد بن محمد الغزالي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

2ـ التاج الجامع للأصول. 1- 2- 3- 4- 5. تأليف الشيخ منصور على ناصف- طبعة 4 - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه - مصر.

3ـ من أعلام التصوف الإسلامي 1- 2- تأليف طه عبد الباقي سرور - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة.

4ـ أصل الإنسان وسر الوجود - جزء 4- تأليف باسمة كيال - طبعة 1 - سنة 1981م - منشورات دار مكتبة الهلال - بيروت.

5ـ نعت البدايـات وتوصيف النهايات - تأليف الإمـام ماء العينين بن الشيخ سيدنا محمـد فاضل بن مامين - المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

6ـ فاتق الرتق على راتق الفتق - بهامش كتاب - نعت البدايات وتوصيف النهايات لنفس المؤلف.

7ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرءان الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي - دار مطابع الشعب.

8ـ قرآن كريم - بهامشة تفسير الإمامين الجليلين جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطي - سنة 1952م - مطبعة محمد علي صبيح وأولاده - مصر.

9ـ الإسلام - تأليف سعيد حوى - طبعة 2- سنة1979م - دار الكتب العلمية - بيروت

10ـ الرسول صلى الله عليه وسلم - تأليف سعيد حوى - طبعه 4- سنة 1979 م - دار الكتب العلمية - بيروت.

11ـ تلبيس إبليس - تأليف الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - طبعة .2 سنة 1928م - مطبعة النهضة - مصر.

12ـ روضة التعريف بالحب الشريف - تأليف الوزيـر لسان الدين بن الخطيب - دار الفكر العربي - بيروت.

13ـ طبقات الصوفيه – تأليف أبي عبد الرحمن السلمي – طبعة 2سنة1969م.

14ـ اللمع في التصوف – تأليف أبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي – طبعة 1– سنة 1914م – مطبعة بريل – لندن.

15 ـ ولاية الله والطريق إليها – بقلم إبراهيم هلال – دراسة وتحقيق لكتاب قطر الولي على حديث الولي – للإمام الشوكاني – طبعة 1– سنة 1969م – دار الكتب الحديثة – مصر.

16ـ الإبريزمن كلام سيدي عبد العزيز الدباغ – تأليف سيدي أحمد بن مبارك – دار العلم للجميع.

17 ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – تأليف الإمام محي الدين أبي زكرياء يحيى بن شرف النووي – المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

18ـ أقطاب التصوف الثلاثة – تأليف صلاح عزام – طبعة 3 – سنة 1968م – مؤسسة دار القطب – القاهرة.

19ـ مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم – تأليف الشيخ سيدي محمد محي الدين بن محمد بن علي بن العربي – طبعة 1سنة1907م – مطبعة السعادة – مصر.

20 ـ السعادة الأبدية لأبي مدين الشافعي – تأليف عبد الحميد حميد والتلمساني – سنة 1935 م – المطبعة الجديدة – فاس – المغرب.

21ـالمنقذ من الضلال – تأليف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي – مكتبة الجندي – مصر.

22ـ الرياضة وأدب النفس – تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسين الحكم الترمدي. سنة 1949م – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر

23 ـ مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب – تأليف عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ – سنة 1959 م – دار صادر ودار بيروت – بيروت.

24 ـ النفس البشرية عند ابن سينا – جمع وترتيب وتعليق وتقديم الدكتور ألبير نصري نادر – سنة 1968م – دار الشرق – بيروت.

25ـ مع الأنبياء في القرءان الكريم – تأليف عفيف عبد الفتاح طباره – مطبعة دار الكتب – بيروت.

26ـ الطيب الفاتح والورد السانح في صلاة الفاتح – للشيخ محمد بن عبد الواحد النظيفي – مطبعة السعادة – مصر.

27ـ دلائل الخيرات وشوارق الأنوار، في ذكر الصلاة على النبي المختار – الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي – سنة 1327هـ – مطبعة عثمانية – درسعادت – تركيا.

28ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين – تأليف الشيخ محمد الحضري بك – المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

فهـــرس الكتـــاب

انتهـــى

بحمـــد اللـــه وعـــونه

مساء يوم السبت 20 ربيع الثاني سنة 1407 هجرية

موافق لـ12 دجنبر 1987 ميلادية . أسأل الله أن يعم نفعه

ويتيبني عليه . وصلى الله على سيـد الأولـين

والآخـريـن

عنـوان المؤلف :

عـبد الحمـيد الجوهـــري

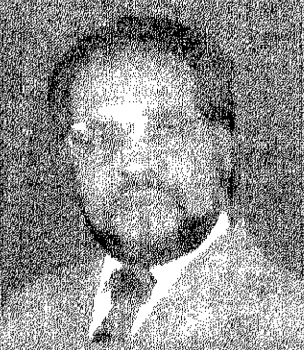
ص . ب . 112 هاتف المنزل : 17 - 26 - 62 - (04) أسفي

المـغـــرب

تـم الطبـع بمطابـع افريقيـا الشـرق

159 مكـرر، شـارع يعقـوب المنصـور ـ الـدار البيضاء ـ

الهاتـف : 13 . 98 . 25 - 04 . 95 . 25



التصـــوف مشكـــاة الحيـــران

في هذا الكتاب

* إبراز معاني أسرار الدين الإسلامي نحو معرفة الله جل جلاله.
* تأكيد مدى القوة الروحية للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم.
* إنقاذ روحي للعقل من مخالب المادة التي أبعدت الإنسان عن الروحية.
* طمأنينة وراحة واستقرار للفكر الحائر.
* مفتاح سر حقيقة الوجود لمن أراد سلوك الصراط المستقيم.
* مشكاة ونبراس للنفوس التي تشعر بالوسخ والظلمة.
* عين يشرب منها عباد الله الصالحين.
* إقرار سلطة الاختيار من شرود العقل التائه.
* حرب ضد الإديولوجيات والفلسفات التي ضلت وأضلت.

ردمك : 9981-25-055-4